

ܚܝܬܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ

History: Sayfo

Beth Mardutho Library



ܬܠܬܐ ܕܝܠܕܐ

ܕܡܠܟܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܡܠܟܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ
ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ
ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ
ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ
ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ ܕܝܠܕܐ

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

حسر اللثام
عن
نكبات الشام

وفيه مجمل اخبار الحرب الاهلية المعروفة بمجداث
سنة ١٨٦٠ مع تمهيد في وصف البلاد
الجغرافي والسياسي

الطبعة الاولى

طبع في مصر سنة ١٨٩٥

مقدمة

اما بعد فلما كانت حوادث الحرب الاهلية التي دارت رحاها في بلاد الشام سنة ١٨٦٠ من اهم ما جرى في البلاد الشرقية في هذا العصر وكان الذين شاهدوا بعضها او سمعوا بها يعدون الآن بالالوف ولم يبق من بينهم واحد لنشر حكاية هذه الحرب بالتفصيل في كتاب كما نشرها الا فرنج في كتبهم وجرائدهم رأينا بعد الاستعانة بالله عز وجل ان نجمع من رواية الثقات وكتابات الادباء ونتيجة المباحث الشخصية والمشاهدة العيانية ما يكفي لسرد وقائع السنة المذكورة وايضاح ما حدث فيها من المصائب والاهوال خدمة للتاريخ وحرصاً على الحقائق من الضياع . وليس لنا في نشر هذا الكتاب غاية غير كتابة تاريخ هذه الحوادث الحظيرة ولهذا لطفنا عبارته ما امكن وتحاشينا نشر الآراء السياسية فيه واجتنبنا لقاء اللوم على احد الناس ما خلا الذين اثبت التحقيق انهم ساعدوا على ارتكاب الفظائع وامرت الدولة العثمانية باعدامهم او نفيهم ساعة اتضح الامر .

فعسى ان تلقى هذه الخدمة الصغيرة من الناس قبولاً وبأني هذا الكتاب بالفائدة المطلوبة والله المسؤول ان

يحسن لنا الاجر انه المحسن

الكريم

جغرافية الشام

تمهيد

لما كانت ذكر الحوادث التي سنأتي على بيانها لا يتم ولا يتضح للقارئ بدون ان يتمهد له العلم بالبلاد التي حدثت فيها تلك الحوادث رأينا ان ناتي على خلاصة ما يهم القارئ من وصف بلاد الشام الجغرافي وايضاح مواقع مدنها وقراها التي حصلت فيها الحروب والاهوال وذكر طرف من احوال الاهالي وعقائدهم وعوائدهم وغير ذلك مما كان سبباً للحرب فنقول :

كانت سورية او بلاد الشام من عهد بعيد مقراً للحضارة ومركزاً للعز وصفاء العيش وقامت فيها الدول الكثيرة ونمت طوائفها نمواً واسعاً وعظمت متاجرها الى حد لم يرو عن غيرها من البلدان في التاريخ القديم وامتاز اهليها من عهد نشأتهم بجدّة الذهن وتوقده واتساع المدارك وسمو العزم وصحة البدن ونحو ذلك مما نشأ عما خصت به هذه البلاد الطيبة من جمال الموقع وما فيها من عذب الماء ورقيق الهواء وكثرة المناظر البهية وتنوع الاشكال الزاهرة الشبيهة

✽ موقع الشام وحدودها ✽

وموقع الشام الجغرافي في الطرف الغربي من قارة آسيا على شطوط البحر المتوسط وهي بين ٣٠° ٣٤' و ٣٠° ٣٧' من الطول الشرقي و ١٠° ٣١' و ٣٠° ٤٣' من العرض الشمالي يحدها من الشمال بلاد الاناضول ومن الشرق البادية وبلاد الجزيرة ومن الجنوب القطر المصري وبلاد العرب ومن الغرب البحر المتوسط . وموقعها من اجمل مواقع الارض واكثرها اهمية فهي الصلة الطبيعية بين الغرب والشرق

✽ اقسام الشام واسماؤها ✽

وقد قسم القدماء هذه البلاد الى قسمين الاول سورية وهو القسم الشمالي آخره عند بدء بلاد الاناضول واوله من ناحية الجنوب جبل الشيخ . واما القسم الثاني فهو بلاد فلسطين وموقعه ما بين جبل الشيخ في الشمال وحدود البلاد المصرية في الجنوب وهو القسم الذي استوطنه الاسرائيليون وملكوا معظمه في ايام الكليم موسى وخليفته يشوع بن نون . وظلت هذه البلاد تعرف بهذين الاسمين يعني سورية وفلسطين حتى ملكها الرومان واطلقوا على القسمين اسم سورية ثم فتحها العرب في بدء نهضتهم واطلقوا عليها اسم الشام واختلفوا في سبب تسميتها بهذا الاسم ولم تزل البلاد تعرف بالاسم الروماني عند الافرنج والاسم العربي عند العرب الى هذا اليوم

✽ المساحة وعدد السكان ✽

وليست بلاد الشام على شهرتها من البلدان الواسعة فهي لا تزيد عن خمسين ألف ميل مربع في مساحتها ولكن سكانها اليوم اقل مما كانوا في ايام عزها السابق يوم كانت فيها ممالك آرام وفينيقية واسرائيل واشور وغيرها زاهية زاهرة . فقد صار عدد السكان اليوم في كل بلاد الشام مليونين من النفوس بعد ان كان لا يقل عن عشرة اضعاف هذا القدر القليل وذلك لاسباب جمّة اهمها كثرة الحروب وتغلب الدول الفاتحة على البلاد وظلم الفاتحين وعبثهم بالاموال والارواح ممّا سنعود الى ذكره.

✽ طوائف الشام ✽

ويمتاز اهل الشام عن بقية اهل الارض بكثرة اديانهم فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد الذي سنذكره من طوائفها وفيها اديان خاصة بها لا وجود لها في سواها من البلدان ولعل ذلك من اكبر اسباب انحطاطها وشبوب الحروب الاهلية فيها وسببها الاول كثرة الالام التي تغلبت عليها في الازمان السالفة . واما الطوائف الحالية فاشهرها المسلمون وهم انواع ثلاثة اشهرهم السنية ويليهم الشيعة ويعرفون في بلاد الشام باسم المتأولة . ثم النصارى وهم فرق عديدة منها الروم الارثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين والسرّيان والموارنة والبروتستانت وليس في الارض كلها اناس من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة الا في بلاد الشام والبلدان التي يتردد عليها اهل

الشام مثل مصر واميركا وغيرها . ومن هذه الطوائف اليهود وهم اليوم طائفة قوية في متصرفية القدس الشريف ومنهم عائلات كثيرة في كل انحاء البلاد . ومنها طائفة السمرة وهم اقل طوائف الشام عدداً يقطنون انحاء نابلس في متصرفية القدس واصلهم من اهل اشور ارسلهم احد ملوكها ليعمروا البلاد بدل اليهود الذين سباهم ويدينون اليوم بدين اسرائيل ولكنهم لا يعتبرون غير كتب موسى الخمسة ولهم تاريخ غريب . ومنها الدروز وهي طائفة باسلة يسكن افرادها جبال حوران على حدود البلاد الشرقية وجبل لبنان وبعض المدن ولا يزيد عدد افراد هذه الطائفة عن تسعين الفا من النفوس وديانتهم سرية . ومن الطوائف الشامية طائفة النصيرية والاسماعيلية واهلها من اصحاب الاديان السرية ايضاً ومعظمهم يقطنون الجبال التي تلي طرابلس واللاذقية . ومن غريب امر هذه الطوائف ان بينها اربعة هي طوائف الدروز والاسماعيلية والسمرة والنصيرية لا وجود لها في غير بلاد الشام وهذا من الغرابة بمكان

✽ المسلمون ✽

واما تعداد النفوس فلا يُعرف بالتدقيق ولكن الاحصاء الاخير الذي عوّلت عليه الدولة العلية يظهر منه ان عدد المسلمين في بلاد الشام يزيد عن مليون منهم حوالي مائة الف من العربان الذين لا يقيمون في ارض معلومة ولم يزالوا على حال اجدادهم من البداوة وحب الغزو والتنقل وهم كثر في كل ناحية وبنوع اخص في اطراف

البلاد الشرقية ونواحي الحولة على حدود فلسطين من ناحية الشمال ولكن عددهم قليل في بلاد النصيرية والارياض الشمالية ولا وجود لهم في جبل حوران موطن الدروز الذي مر ذكره ولا في كسروان وهو موطن الطائفة المارونية . و يبلغ عدد المسلمين الذين على الطريقة الشيعية او المتأولة حوالي ٧٠ ألفاً من النفوس معظمهم في بلاد بعلبك في اطراف البلاد من ناحية الشرق وراء طرف لبنان الجنوبي وفي بلاد الشقيف وبلاد بشارة وانحاء مدينة صور وكل هذه في جنوبي ولاية بيروت وشمال متصرفية القدس وعددهم قليل جداً في المدن المعروفة

✽ المسيحيون ✽

واما المسيحيون فيبلغ عددهم حوالي تسعمائة الف نفس او يزيد منهم ٢٧٠٠٠٠ من الموارنة و ٢٥٠٠٠٠ من الروم الارثوذكس و ٥٠٠٠٠ من الروم الكاثوليك و ٣٥٠٠٠ من بقية الطوائف التي عددناها . واهم الاماكن التي يسكنها المسيحيون جبل لبنان وفي بعض مدنه مثل دير القمر وزحلة وغيرها لا يسكن الدروز . وكسروان مقاطعة خاصة بالطائفة المارونية لا يسكنها سواهم من العالمين . ويكثر النصارى في مدينة بيروت وهم الفريق الاكبر من اهلها وعددهم ليس بقليل في كل المدن الجمرية مثل طرابلس وصيدا وصور وبافا والداخلية مثل دمشق وحلب وانطاكية وغيرها وقل ان يخلو مكان في سورية من بعض طوائف المسيحيين

✽ الاسرائيليون ✽

واما الطوائف الاخرى فاشهرها الطائفة الاسرائيلية واهلها يقربون اليوم من مائة الف في عددهم اكثرهم في الاراضي المقدسة مثل القدس الشريف ونواحيها وهم يزدون عدداً يوماً بعد يوم اكثر الذين يهاجرون الى هذه البلاد منهم ولاعتقادهم ان هذه البلاد ستعود اليهم بعد حين ويساعدتهم اكابرهم على شراء الاراضي وتعمير القرى والمدن وقد صارت القدس ونواحي جبل الكرمل والناصره جلها من املاكهم وصاروا هم اصحاب النفوذ فيها واكثرهم غرباء نزحوا الى بلاد الشام في هذه السنوات الاخيرة وينتظر ان يزد عددهم زيادة كبرى في الاعوام القادمة . وطائفة السمرة التي اتينا على ذكرها وهي من اغرب طوائف الارض تعد في جملة اليهود ولا يزد عدد نفوسها عن ستين ولعلها اصغر طوائف الارض

✽ الدروز ✽

واما طائفة الدروز فتمتاز بميلها الى الحرب ولافرادها خصال كثيرة تحمد ومعظم الدروز كما قدمنا في حوران ولبنان ووادي التيم واقليم البلان ويندر ان تخلو منهم مدينة او ولاية في الشام واما في غير الشام فلا اثر لهم الا ان يكون من بعض افرادهم الذين يسمون في طلب الرزق وعدد الدروز بالتقريب نحو ٩٠ الف نفس . وسنعود الى ذكرهم ونأتي على طرف من تاريخهم في ما يجي .

✽ الطوائف الاخرى ✽

واما النصرية والاسماعيلية فيمتازون بديانتهم الباطنية وعوائدهم المستهجنة وهم يقربون من ثلثين الفا عدداً معظمهم في الجبال الواقعة بين حماه واللاذقية . ومن غريب الامر ان في عكا طائفة صغيرة اسمها طائفة البايين ليس لها وجود في غير مدينة عكا من بلاد الشام . واما الطوائف الاخرى فقد تقدم الكلام عنها

✽ المناظر الطبيعية ✽

وفي بلاد الشام جبال كثيرة اشهرها جبل لبنان وهو سلسلة تمتد من طرابلس الى نهر الليطاني ويعد من الجبال المشهورة بجمال المناظر وطيب الهواء . ويليه الى الشمال سلسلة جبال اللكام والى الجنوب جبل الشيخ وما يليه من سلسلة جبل لبنان الشرقي . وفي البلاد سهول كثيرة شهيرة في خصبها منها سهل حمص والشام ووادي الفرات ومرج ابن عامر والبقاع وسهول عكا وحوران . وانهارها كثيرة ولكنها كلها صغيرة لا تصلح لسير السفن ولا يعول عليها في ري الاراضي كما يعول على النيل في مصر ومن اشهر هذه الانهر نهر حلب وهو فرع من الفرات يسقي مدينة حلب ونهر العاصي وهو يسقي مدينتي حمص وحماة ونهر ابراهيم ونهر الكلب الذي يسقي بيروت ونهر الدامور ونهر الاولى يسقي مدينة صيدا ونهر الليطاني وبردى وهو يسقي مدينة دمشق ونهر الاردن وهو شهير له ذكر في الكتب المقدسة

وفيها من البحيرات ما يستحق الذكر منها بحيرة انطاكية على مقربة من مدينة انطاكية في شمال البلاد وبحيرات اخرى صغيرة على مقربة من حمص وحماه وبحيرة الحولة وبحيرة طبرية وبحيرة لوط وهي في شمالي الاراضي المقدسة

✽ الحاصلات والحيوانات والمعادن ✽

وتربة سورية جيدة خصبة وارضها حمراء اللون وبيضاء وسوداء ويغلب فيها اللون الاول . واشتهر عن بلاد الشام كثرة النماكية على اشكالها والحاصلات من الحبوب على انواعها وقل ان توجد بلاد في الارض ينمو فيها من اشكال النبات ما ينمو في هذه البلاد ولما كثرت شهرتها تضرب بها الامثال . وحيواناتها الاليفة والبرية كثيرة وهي مثل التي توجد في القطر المصري تقريباً . وفيها من المعادن الفضة والرصاص والذهب والفحم والحديد والنحاس والحمر واغلب هذه الكنوز لا تستخرج الآن من قلب الارض لان التصريح بذلك من الامور الصعبة وروح الاشتراك بين الافراد على القيام بالاعمال التجارية الكبيرة غير معروف الى الآن في بلاد الشرق

✽ المصنوعات ✽

ومصنوعات الشام ليست بقليلة ولكنها مثل سائر صنائع المشرق تصنع باليد ولم تدخل المعامل الكبرى والآلات البخارية فيها الى الآن واشهرها تربية دود الحرير وهم يربونه في لبنان وغيره بالاعتناء الزائد وبيعثون به الى معامل فرانسا وغيرها لينسج حريراً ويعود اليهم

ويتوقف على صناعة الحرير وتربية دودِه معاش عائلات كثيرة في بلاد الشام وهو اهم فرع من فروع تجارتها الآن . وتصنع فيها الاقمشة القطنية من نوع « الديما » الشهيرة المعروفة بين الافرنج باسم الشام وتسمى « غزلية » في هذه البلاد وقد تنفذ اهل بعض المدن مثل الزوق ودمشق وغيرها في عمل المنسوجات الحريرية المقصبة وعليها الرسوم المختلفة نسجاً لا طبعاً واهدى بعضهم الى قداسة البابا وبجلالة ملكة الانكليز وغيرها من الامراء والملوك هدايا من هذا النوع وعليها رسومهم فاعجبوا بانقانها وشهدوا بجماها . واشتهر اهل دمشق في ترصيع الادوات الخشبية بالعاج وعرق اللؤلؤ وفي تركيب الجواهر على الذهب ولهم في ذلك ذوق تضرب به الامثال وقد كان في هذه المدينة القديمة صناعات اخرى مثل عمل القيشاني والسيوف الدمشقية ضاعت ولم يبق لها وجود الا في الآثار القديمة

✽ المعارف ✽

ومعارف الشام تذكر في بعض الانحاء وقليلة لا تذكر في انحاء اخرى فحيث يكثر الاجانب والمرسلون تكثر المدارس والكتب وحيث يقل عددهم تقل المعارف وليس للحكومة من المدارس الا الشيء القليل وهي قاهرة على اولاد المسلمين . وقد نهضت مدينة بيروت وقرى لبنان ومدينة طرابلس ودمشق نهضة تذكر وتشكر في الاعوام الاخيرة ودخل الشبان والشابات والصبيان والبنات مدارس الافرنج على امثالها فنبغ منهم الافراد وانتشر المتعلمون في كل اقصاء البلاد ونزح

فريق كبير منهم الى القطر المصري واميركا واوروبا. والسوريون اليوم اصحاب القلم في كل البلدان العربية فهم يحررون كل جريدة عربية تذكر في القطر المصري وغيره من الديار العربية وليس في بلاد الشام واحد من المؤلفين او اصحاب الجرائد غير سوري الاصل وهذا يدل على ذكاء السوريين واقدامهم وميلهم الى الارتقاء وهمتهم فلو اطلق لهم العنان واعطيت الحرية لاقلامهم لملأوا البلاد بالمؤلفات النفيسة والكتابات المفيدة على اشكالها

✽ المدارس ✽

واما المدارس في بلاد الشام فكلها الاجانب ما خلا الشيء القليل منها واشهرها المدرسة الكلية المرسلين الاميركيين في بيروت ومدرسة القديس يوسف المرسلين الكاثوليك اليسوعيين والمدرسة البطريركية لطائفة الروم الكاثوليك ومدرسة الحكمة لنيافة المطران يوسف الدبس رئيس الطائفة المارونية في بيروت والمدرسة الرشدية للحكومة المحلية. ومدارس البنات كثيرة اشهرها مدرسة الاميركان ومدرسة الانكليز ومدرسة الراهبات العازريات ومدرسة الراهبات البروسيات الانجيلية وغيرها وكل هذه المدارس في بيروت وهي مركز العلوم والمعارف في بلاد الشام. وفي البلاد مدارس اخرى اشهرها في جبل لبنان كمدرسة عين طوره ومدرسة قرنة شهوان ومدرسة عين ورقة ومدارس برمانا والشوير وعين زحلنا وغيرها والثلاث الاخيرة للانكليز. وفي القدس الشريف مدارس كثيرة للانكليز والالمان وقل ان تخلو

اليوم بلدة معروفة من مدرسة للانكليز او للفرنساويين وفضل المراسين من طائفتي الكاثوليك والبروتستانت كثير على هذه البلاد

✽ المهاجرة ✽

واكثر سهول سوريا وجبالها آهلة بالسكان ولكن قلة وسائط النقل وحالة البلاد الادارية تمنع من زيادة السكان وقد ثقل عددهم بما ياتيهم الحكم من سوء التدبير والظلم مما يضطر الناس الى الرحيل والمهاجرة ويقدر ان عدد الذين هاجروا الى اميركا وسواها من اهل لبنان في مدة ١٥ سنة من هذا التاريخ لا يقل عن مائتي الف نسمة وهو اكبر الادلة على حاجة البلاد الى الاصلاح

✽ ولايات الشام واقسامها ✽

واما اقسام الشام الادارية على حسب نظام حكومتها الحالي فهو ان البلاد مقسومة الى خمس ولايات اولها ولاية حلب وهي القسم الشمالي من البلاد والثانية ولاية بيروت وهي السواحل البحرية المعروفة وما يليها في داخلية البلاد من اللاذقية شمالاً الى حيفا جنوباً. والثالثة ولاية الشام او سورية وقاعدتها مدينة دمشق وهي تشمل داخلية البلاد وشرقها . والرابعة متصرفية القدس وهي تشمل جميع البلدان الواقعة بين حدود ولاية بيروت وحدود القطر المصري . والخامسة متصرفية لبنان وامرها معروف ولهذا المتصرفية نظام خاص واستقلال اداري ولها وال تعينه الدول مع الباب العالي كل عشر سنين وموقعها في اواسط بلاد الشام بين ولايتي سورية وبيروت . وجميع الولايات

الشامية تابعة في امورها العسكرية الى مشير العرزي الهمايوني الخامس من فرق الجيش العثماني ومركزه في دمشق ونقسم الولاية الى متصرفيات والمتصرفية الى قائمقاميات والقائمقامية الى مديريات في كل بلاد الدولة العثمانية . وفي كل قرية من قرى لبنان شيخ يسمونه شيخ الصلح واكثر المشايخ يرثون الوظيفة وراثته ولهم الاولوية في مصالح الحكومة وفي كل مديرية او ما فوقها مجلس للادارة ومجلس للجنايات يرأس الاول الحاكم الاداري والثاني القاضي والاعضاء ينتخبون انتخاباً من بين الاهالي وفي كل ولاية مجلس للاستئناف في مسائل الجنايات والحقوق ولكن استئناف المسائل التجارية في كل بلاد الشام يرجع الى بيروت ما خلا ولاية حلب

✽ المدن البحرية ✽

واما المدن المعروفة في بلاد الشام فكثيرة بعضها في داخلية البلاد والبعض الآخر على شاطئ البحر المتوسط مثل مرسين في الشمال وهي مينا ولاية اطنه ولها موقع حسن وفيها سكة من الحديد تصل الى ادنه وهي اول سكة من هذا النوع ظهرت في بلاد الشام ولها مركز تجاري ولهذا تمر عليها بواخر الشركات التجارية وثقف فيها يوماً كاملاً واكثر اهلبا يعرفون العربية والتركية لقربهم من الولايات التركية . وتليها الى ناحية الجنوب على شاطئ البحر اسكندرونة وهي مدينة صغيرة لما ميناء بديع ترسي فيه البواخر ولهذا المدينة الصغيرة اهمية كبرى لانها مينا حلب وما يليها تمر فيها البضائع الصادرة والواردة ولمحة اهلبا

تقرب من لهجة حلب في الكلام . وتليها اللاذقية الى جنوبها وهي
مركز متصرفية باسمها وتعرف بكثرة النصيرية فيها وهم يقطنون الجبال
التي تلي هذه المدينة كما مرّ ولها شهرة قديمة . وطرابلس وهي من
اجمل المدن البحرية منظراً ولها مقام كبير لانها الثانية في مدن
السواحل السورية بعد بيروت ولها تجارة واسعة ولاهبا شهرة في الجدد
والاقدام ومينائها جميل امين يضرب المثل في جمال مناظره والروائح
الذكية التي تتضوع من حدائقه وهي متصرفية من ولاية بيروت .
وتليها بيروت الى جهة الجنوب منها وهي اشهر مدائن الشام واهمها
واعظمها لانها مركز تجارة البلاد برمجها ومركز العلوم والمعارف فيها وقد
نمت في السنوات الاخيرة نمواً سريعاً فدخلت اليها معظم ادوات التمدن
الحديث وانشأت المدارس العالية التي لا نظير لها في الشرق وتجددت
فيها الشوارع والحدائق والبنيات الجميلة وكثر عدد سكانها حتى صار
نيف ومائة وعشرون ألفاً . وفي بيروت من المطابع الكبرى عدد كبير
فهي تطبع الكتب لكل بلاد الشام ولسائر المشرق . وجرائد الشام
عن بكرة ايها تطبع في هذه المدينة الزاهرة ما خلا ثلاثة هي طرابلس
في المدينة التي تسمى باسمها والفرات في حلب وسورية في دمشق
والجريدتين الاخيرتين من جرائد الولايات الرسمية . واكثر اهل
بيروت من النصارى من طائفة الروم الارثوذكس وفيها عدد كبير من
كل الطوائف الاخرى ويقرب المسلمون فيها من ثلاثة اثنان عدد اهلها
وهي مركز الولاية التي تسمى باسمها وشهرتها تغني عن الاسهاب في مثل
هذا الفصل الموجز . وتلي بيروت الى جهة الجنوب مدينة صيدا وكانت

في سابق الزمان عاصمة الفينيقيين ولها شهرة بعيدة وظلت على شهرتها الى اواسط هذا القرن حين كانت عاصمة البلاد السورية يقيم فيها الولاة وعمال الدولة العثمانية . وهي صغيرة الآن لا يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نفس معظمهم من المسلمين وهي شهيرة بآثارها وبساتينها وقدميتها . ومثلها مدينة صور وهي تليها الى ناحية الجنوب وفيها عدد كبير من المتاولة واحوالها متأخرة . وعكا وهي بلدة حصينة حدثت فيها المعارك الهائلة ولها شهرة تاريخية من قديم الزمان الى الآن وهي مركز متصرفية . وحيفا وهي مركز قائمقامية لها شهرة في هذه الايام بالمستعمرة الالمانية الكبيرة التي عمرت قراها وصيرتها من اهم الانحاء الشامية . ويافا وهي مشهورة برداءة مينائها وكثرة الامواج فيه ولها مركز خطير لانها ميناء القدس الشريف تمر فيها الابضعة وينزل اليها المسافرون الوفا ممن يعرج عليها في طريقه الى المدن الاخرى او يزور القدس عن طريقها . ولهذه المدينة شهرة كبرى بالفاكهة التي تزرع فيها وتباع في مدائن مصر والشام وهي اول اسكة سورية تقف عليها البواخر الذاهبة من القطر المصري وفيها سكة حديدية انشئت حديثا تسير بها الى القدس الشريف . وآخر السواحل الشامية المعروفة غزة وهي على مقربة من الحدود المصرية وليس لها اهمية بين المدائن

✽ مدن الداخلية ✽

هذه اهم السواحل السورية . واما مدن الداخلية فكثيرة منها انطاكية وهي التي بناها ملوك الدولة السلوقية التي حكمت البلاد من

بعد الاسكندر ذي القرنين وظلت هي المدينة الاولى في البلاد وعاصمة الملك الى ايام الفتح الاسلامي وكانت من اعظم مدائن الشرق واهمها في العلوم والمتاجر والمقام السياسي فتوالى عليها النكبات ودمرتها الزلازل مراراً حتى انحطت وصارت الى حالها الحاضرة وليس لها اليوم ذكر بين المدائن الشهيرة . ومنها حلب وهي مدينة شهيرة كبيرة لها تجارة واسعة ولاهلها خبرة في صناعة النسيج وهي مركز ولاية باسمها وبلغ عدد سكانها نيف ومائة الف نفس معظمهم يتكلمون العربية والتركية واكثرهم من المسلمين . وفي نواحي حلب سهول واسعة وبقاع خصبة يقطنها العرب الرحل وهي لو زرعت وانقنت لجاءت بالحصائد الكثيرة . ومن هذه المدائن حمص وحماه وهما مدينتان قديمتان في السهول التي يمر بها نهر العاصي ولاهل المدينتين شهرة في نسج الاشياء القطنية . ومنها دمشق الفيحاء وهي اشهر من ان تذكر واكبر مدائن الشام واكثرها نزهة وخضرة وحسناً واقدمها عمراً واكثرها نفراً يزيد عدد سكانها اليوم عن مائة وخمسين الفاً سبعة اعشارهم من المسلمين . ولاهل هذه المدينة العظيمة شهرة بعيدة في الرقة والانس وفي الاقدام على الاعمال الكبيرة ولم علم خاص بصناعة الحرير والحلي وهم ميالون الى الحظ والطرب اكثر من كل قوم سواهم ولا عجب فمدينتهم اشهر مدائن الارض بجمال بساطينها ومزارعها ومائها العذب وهوائها الطيب ومنظرها الغريب ورخص اسباب العيش وتوفر دواعي الراحة والرخاء وكثرة الفاكهة وغير هذا مما يجعل لهذه المدينة المقام الاول بين مدن الارض المعروفة بالبهاء والزهاء . ودمشق اقدم مدن

العالم الباقية الى اليوم وقد نقلت عليها الاحوال اشكالا والوانا ولعلها لم تصل الى درجة من العز تضاهي درجتها ايام كانت مركز الخلافة الاسلامية في عهد الدولة العربية الاموية الباقية آثارها فيها الى هذا اليوم . ومتاز دمشق الفخام على بقية المدائن الشامية بجمال اهلها وحسن مناظرهم كما انها تمتاز بجمال غوطتها التي تضرب بها الامثال وهي محيطة بها من كل جانب كأنما المدينة جزيرة يحيط بها بحر من الاشجار والبساتين والازهار والرياحين . وفيها مركز ولاية سورية ومركز العرضي الهمايوني الخامس الذي ترجع اليه الامور العسكرية من كل الولايات الشامية . ومنها يخرج الحج الشامي كل عام باحتفال عظيم ولها تجارة واسعة بالحبوب والغلال والفاكهة وبالمصنوعات الحريرية والمصوغات والحلي والادوات المرصعة وغير هذا مما يختص بها دون سواها وتصل بينها وبين بيروت سكة بسيطة للعربات تجرها الخيل والقوم اليوم يعملون في مد الخط الحديدي بين المدينتين فاذا تم ذلك صارت دمشق الى درجة رفيعة في المتاجر وتحسنت شؤونها ووفرت ثروتها . وليس في دمشق الشام مطبعة ولا جريدة ما خلا واحدة للولاية مرّ ذكرها ومدارسها بسيطة فهي مثل بقية مدائن الشام تعول على بيروت في كل الامور العلمية والتجارية ولو شئنا التطويل في وصف هذه المدينة لضايق بنا المقام ولكن يكفي بعد الذي قلناه ان نوضح لغرض هذه الرسالة ان دمشق في اواسط البلاد التي حدثت فيها المذابح في سنة ستين ولهذا لجأ اليها الفارون من قرى حاصبيا وراشيا وغيرها وحصل فيها بعد ذلك مذبحه هائلة سنأتي على ذكرها في حينها

ومن مدائن الشام في داخلية البلاد القدس الشريف ولها شهرة
تغني عن الاطناب فهي مهبط الوحي ومسكن الانبياء الصالحين ومدفن
سيدنا المسيح ومن تقدمه من رجال الله الاخيار ومركز الحرم الشريف
وقبر سيدنا ابراهيم وآثار هيكل سليمان وهي اشهر مدن الارض
الدينية يعتبرها المسلمون والنصارى واليهود مدينة مقدسة ومحجون
اليها من اقصى الانحاء . وقد كانت في سابق العهد عاصمة المملكة
اليهودية كما لا يخفى ومرت عليها ايام رأت فيها من العز والرخاء والمجد
والعظمة ما لم تره مدينة سواها في ايام الملك سليمان الحكيم
وتوالى فيها الحوادث الشهيرة الهامة من مثل قيام الانبياء
وانتساب الحروب حتى كان ما كان من خرابها على يد الامبراطور
تيطس الروماني بعد التاريخ المسيحي بسبعين سنة ومن ذلك الوقت
انحطت هذه المدينة العظيمة وتشتت اهلها في كل اقطار المسكونة ولم
نقم لها ولا لهم قائمة من ذلك الحين . على ان الاسرائيليين لم يزالوا
يؤمنون ويعتقدون ان القدس او اورشليم ستعود اليهم وتصير مرة
اخرى عاصمة مملكتهم وهم يحترمونها لانها مركز عزهم السابق ومدفن
آبائهم واجدادهم . والمسيحيون يعتبرونها المدينة المقدسة لما فيها
من عجائب الله ولقيام النبيين وموت المسيح فيها وعندهم الكنائس
الكبيرة الكثيرة فيها لكل الطوائف منها واحدة يعز نظيرها في الوجود
اسمها كنيسة القيامة يزعمون ان قبر سيدنا المسيح فيها وهو الذي يتقاطر
الحجاج كل سنة الوفا لمشاهدته والتبرك بمراة . والقدس مركز
متصرفية كبرى تقرب من الولاية في ضخامتها واهميتها ولهذا يعدها

البعض من الولايات الشاميّة وأكثر سكانها اليوم من الاسرائيليين وبينهم عدد يذكر من المسلمين والنصارى من كل طائفة ومذهب . واشتهر اهل القدس بصناعة الخشب المخروط والسج وتسيق الزهور اليابسة وغير هذا ممّا هو مشهور ومأثور

ومن هذه المدن الداخلية نابلس وهي في لواء القدس الشريف اشتهرت بصنع الصابون النابلسي المعروف وفيها طائفة السمرة التي مرّ ذكرها . ومنها طبريا وصفد والناصرّة موطن سيدنا المسيح وكلها في متصرفيّة القدس ولها شهرة في الآثار وجمال المناظر الطبيعيّة وذكر ما حدث في ايام الانبياء

واما مدن لبنان وقراه الشهيرة فكلها في داخل البلاد من اشهرها مدينة زحلة وهي على اطراف الجبل من ناحية الشرق مبنية بين جبلين كبيرين يمرّ في واديهما نهر صغير تستقي البلدة ومزارعها منه ولهذا المدينة مركز حصين ولاهلها بأس في الحروب واقدام كبير على الاعمال وهم لا يقلون عن ١٢ الف نفس عدّا وقد نزع منهم في السنوات الاخيرة عدد كبير الى ولايات اميركا المتحدة وانشأوا فيها المحلات التجارية وقاموا بالاعمال الكبيرة حتى انهم بنوا مدينة في ولاية نيويورك سموها زحلة باسم بلدتهم الاصلية واكثرهم من اصحاب البنية القويّة والصحة الجيدة وقد كان لهم في الحروب التي سنأتى على ذكرها اعمال تذكر وتشكر . ومنها دير القمّر وهي من اشهر مدن لبنان كانت قبل حروب سنة ١٨٦٠ مدينة شهيرة لها صناعة تعرف بها في نسج الاقمشة ومتاجر واسعة ولكن المصائب التي دهمتها في تلك

السنة والاهوال التي حدثت فيها تركت اكثر من نصفها خراباً واضطرت اهلها الى الرحيل ومنهم اناس اليوم في كل مدائن الشام واكثر مدائن مصر وفي اوروبا واميركا وهي الثانية في عدد السكان بين مدن لبنان وموقعها في اواسطه بلخف جبل تحيط بها القرى من كل جانب . ولاهلها شهرة في الذكاء والشجاعة وكلهم اليوم من النصرى وبينهم نفر قليل من المسلمين . واما الدروز فقد منعوا من السكن فيها بعد الذي حدث في سنة الهول التي نحن في صدها . وقد اصاب هذه البلدة من نكبات سنة ١٨٦٠ اكثر مما اصاب كل بلدة سواها تقريباً وكان لاهلها دخل كبير في كل تلك الحروب . ومن الاماكن التي اشتهرت بالحرب بيت مري وهي قرية صغيرة تشرف على بيروت من شرفها ولها موقع جميل وفيها ماء عذب زلال وهواء طيب مثل اكثر قرى لبنان او كلها . ومنها حاصبيا وهي مدينة وادي التيم وتابعة لولاية سورية . وراشيا وهي بين حاصبيا ودمشق

وهما البلدتان اللتان ذاقتا المرّ من مذايح

تلك السنة المشومة وغير هذه

سيأتي ذكرها في

حينه

فصل

في حكومة الشام قبل حوادث سنة ١٨٦٠

نرى من الواجب ايضاح حالة الشام وحكومتها في الاعوام التي سبقت الحوادث الشهيرة لما لها من العلاقة الكبرى بالحروب والمذابح التي سوف نرويها فنقول بالاختصار ان البلاد كانت كما هي اليوم تابعة للدولة العثمانية يحكمها العمال من الاتراك واشراف البلاد باسم السلاطين العظام الذين شادوا لهذه السلطنة صروح المجد والفخار واحسنوا معاملة رعاياهم حتى اجتذبوا اليهم القلوب وصيروا مملكتهم اقوى ممالك الارض ولا غرو فبالعدل تقوى الممالك

✽ مقاصد السلاطين العظام ✽

وكان سلاطين آل عثمان العظام الذين اسسوا هذه الدولة يريدون ان يعيش الناس في ظلمهم آمنين مستريحين فاتخذوا العدل لهم شعارا وجعلوا مراعاة العوائد والعقائد منارا وابقوا لكل امة حكموها الخيار في المحافظة على لغتها وثقاليدها ودينها فضمنوا بذلك رضا الاهالي من كل جنس ومذهب عن دولتهم وحب هؤلاء الاقوام لحكومتهم وتسليم الافراد والجماعات لارادتهم حتى دانت لهم الرقاب وخضعت لهيبتهم الطوائف . بمثل هذا قامت سلطنة آل عثمان واتسع

نطاقها وازداد سوددها وعظمت قوتها ورسخ قدمها في البلدان الكثيرة التي ملكتها ببسالة سلاطينها وقوادها

وقد عادت هذه السياسة القوية الناجمة عن نيات حميدة وسرائر ظاهرة عادلة بجميع ما قصد منها بحيث لم يمض الوقت القصير على العرش العثماني الا واضحت رايته الهلالية تخفق في جهات كثيرة من الارض تظل بظلمها امما كثيرة رعت في مجبوحة العدل والامن والطمانية مع انها كانت سببا لالقاء الرعب والخوف في قلب كل عدو يحاول ان يأتي امرا نكرا لفساد في سريره او مطامع في نفسه وحافظ السلاطين العثمانيون العظام في كل ادوارهم على قواعد هذه السياسة التي اوجبتها عليهم عدالة مبادئهم وسمو مداركهم وحبهم لراحة رعاياهم . وكانوا آونة بعد اخرى يأتون بالادلة الحسية الظاهرة على استمرارهم في اعتبار هذه المبادئ الحسنة فان ساكن الجنان السلطان محمد الفاتح عند ما فتح القسطنطينية استدعى البطريرك بيساديوس اليه وسلمه بيده الشريفة التاج وعصا البطريركية الرعوية وطيب خاطره واقره على جميع ما كان له من الحقوق والامتيازات وسياسة رعيته الروحية ايام الدولة الرومانية وسلمه فرمانا سلطانيا صار بذلك قاعدة لكل فرمان من هذا النوع صدر بعده ورخص له بممارسة طقوسه وعوائده الدينية بكل حرية ومنع عنه كل معارضة بذلك . وقد منح هذا السلطان العظيم مثل هذه المنح الجليلة لجميع الطوائف الاخرى في ممالكه الواسعة فكان كل يمارس دينه وعوائده ولغته على ما يريد . وقد كان خلفاؤه من السلاطين العظام يسرون

على هذه المبادئ ويزيدون على هذه المنح والامتيازات كلما اقتضت
الاحوال ودليل ذلك ما صدر في مدة كلٍ منهم من الفرامانات
لرؤساء الملل ونخافة اولئك السلاطين العظام على ما في تلك
الفرمانات من الانعامات والامتيازات

وسهر اولئك السلاطين العظام على راحة الرعية على اختلاف
عقائدهم ونكّلوا بكل معتد على حقوقها وشرائعها معها كان مقامه ورتبته
فان ساكن الجنان السلطان محمود الثاني لما رأى الاختلال الواقع من
الجنود التي كانت تؤلف من الانكشارية وغيرهم وما كان يصل بالريّة
من شرها وتعدّيها على المسلمين وغير المسلمين خصوصاً وما ظهر من
عصيانها من وقت الى آخر حتى صارت آلة تسلب امن المملكة بعد
ان كانت الآلة الوحيدة لحفظ النظام الداخلي والامن الخارجي عمل
على ابادتها منعاً لشرها وتمكن من ذلك فاباد تلك الزمر العاتية عن
آخرها وانشأ نظاماً عسكرياً جليلاً حسب النظام الاوروبي فكان من
نتائج عمله هذا الاقتصاص من المجرمين وحفظ راحة صنوف الرعايا
في الداخل وتجديد سطوة المملكة في الخارج . وساكن الجنان
السلطان عبد المجيد رأى ان نظامات المملكة الداخلية قد شابهت الخلل
ولم يعد بها الكفاءة لضمان الحقوق لجميع اصناف تبعته فعمد الى
اصلاح هذا الخلل بوضع نظامات جديدة دعاها بالتنظيمات الخيرية
واصدر فرماناً سلطانياً بها . وكان من خصائص هذه التنظيمات التي
صارت بدءاً عصر جديد للممالك العثمانية ان يتساوى جميع افراد الرعية
من اي مذهب وجنس ورتبة في جميع الحقوق الوطنية . نعم ان

هذا العصر الجديد لم يغير طباع بعض الظالمين كاحمد باشا الذي كان والياً على سورية سنة ١٨٦٠ إلا أن رغبة هذا السلطان المجيد ورجال دولته الامناء في مصلحة الرعية وخير المملكة قد اخرجت هذه المقاصد الخيرية من حيز القوة الى حيز الفعل واقتضت ممن قاومها وابدى التعدي على الرعية كما اقتضت من احمد باشا الذي سنأتي على ذكر اعماله وجعلته هو ومن جرى مجراه يريد بالرعية شرّاً وفساداً ويعمل على تفريق كلمتها والقاء الشقاق والعداء بين جامعتهما

فيظهر ممّا تقدم ان الفتن والمذابح التي ورد ذكرها في تاريخ الشام لم تكن بقصد احدٍ من السلاطين او رجال دولتهم الامناء بل من العمال الاردباء ومن تعدي الفئات التي ابادها السلطان محمود الثاني كما تقدم وممن كان يقتدي بها من الاهالي . وكان بعد المسافات وضعف وسائل الاتصال في تلك الازمنة من اعظم ما ساعد اولئك المعتدين على اجراء ما كانوا يجرونه من الاعمال المغايرة لرضاء سلاطينهم وولاة امورهم ومع ذلك فهم لم ينجوا من القصاص الصارم عند ما بلغ خبر فعلهم اذان السلطان كما عوقب احمد باشا وغيره

✽ الايالات ✽

وكانت البلاد اربعة اقسام ادارية تسمى ايالات الاولى ايالة حلب والثانية ايالة دمشق كانت تتناول اواسط البلاد ممّا يلي الشرق والثالثة ايالة صيدا او بيروت وكانت تتناول اواسط البلاد ممّا يلي الغرب . والرابعة ايالة القدس الشريف . وكان لكل ايالة وال مستقل

يخبر الباب العالي رأساً في امور ايالته الا ان الايالات الاربع كانت خاضعة لسلطة واحدة عسكرية يقيم رئيسها في دمشق الشام ويسمونه مشير العرضي الهايوني الخامس وعلى هذا المشير ادارة الشؤون العسكرية في سوريا كلها (ولم يزل هذا النظام الى اليوم) وعليه ان يقدم القوات اللازمة عند اللزوم لكل والٍ طلب منه ذلك لاجل تقرير الامن في البلاد وحفظ نظامها

وكان رجال العسكرية في ذلك الوقت (الا القليل منهم) من ضباط كبار وانفار صغار خليطاً من ولايات الدولة في اوربا واسيا الصغرى وكان العرب بينهم قلائاً لان نظام العسكرية لم يكن نافذاً فيهم

✽ المتسلميات ✽

وقسمت كل ايالة اقساماً كل قسم منها عبارة عن مدينة ونواحيها وسميت هذه الاقسام متسلميات . وكان لكل قسم حاكم يسمونه مسلماً يعينه الباب العالي رأساً او والي الايالة ومرجع اموره في متسلميته الى والي الايالة التابع لها . وكان لعظماء الاهالي نفوذ كبير لدى المتسلمين حتى انهم كانوا يعارضونهم في كثير من الامور ويساعدونهم على اجراء ما لم يرغبوا او غايات خصوصية فيه . واما المتسلمون فكانوا يسعون وراء منفعة انفسهم اولاً لا يهمهم خربت البلاد او عمرت ولم يكن لهم قانون يجرون عليه ويؤخذون على مخالفته . ولكنهم ساروا بحسب الاهواء والاميال وكثيراً ما سعوا في تفريق الرعية حتى يساعدهم الانقسام على نوال ما يبتغون

✽ حكام الجبال ✽

اما الجبال وبعض اقسام البلاد فكانت يحكمها بعض الامراء
والبكوات والمشايخ تولوا شؤونها منذ زمن طويل وكانت لهم اقطاعاً
يحكمونها على ما يرون ويرجعون في الاحكام الى الايالة التابعين لها .
واشتهر عن هؤلاء الحكام الاستبداد والجور وكثيراً ما كانت تقوم
الحروب بينهم ولطالما هب بعضهم الى الثورة وجرد سيفه لمحاربة جنود
الدولة . وكان بعض حكام الايالات يستعينون بهم على ايلة اخرى
او على مشايخ اياالتهم ولهذا ساد الاضطراب والانقسام الدائم وكانت
امنية القوافل والمسافرين في الطرقات مسلوقة الا اذا ادوا ضريبة
لكل حاكم يمرون في بلاده وللعرب سكان البوادي ضرائب على البلاد
يسمونها خاوات اذا تأخر الاهالي عن دفعها حمل عليهم البدو ونهبوهم
ونكلوا بهم وتعذر سلوك الطرق على المسافرين حتى انهم كانوا يتألفون
جماعات مسلحة اذا راموا السفر الى احدى المدن او الى جهة من
جهات البلاد ليتمكن لهم دفع النوازل ورد المهاجمين والمعتدين وان يكن
العدد الوافر منهم لم ينج من الجور والاعداء . وكان المسافر في تلك
الازمنة كمن يقتحم خطراً عظيماً لانه فضلاً عن اخطار الطرق كان
او باش المدن شراً عظيماً على أولئك الغرباء الذين يأتونها من
المقاطعات وخصوصاً من المسيحيين الذين كانوا يصادفون انواع الاعداء
والخسف اينما ساروا وكان اهالي لبنان مع ما هم عليه من شدة البأس

في تلك الايام يحسبون الذي يسافر منهم الى احدى المدن نابغة في
الجسارة والاقدام

✽ الاموال الاميرية ✽

ولم تكن الحكومة في تلك الايام تسأل حكام المقاطعات في
اغلب الاحيان الا اداء الاموال الاميرية المضروبة على بلادهم
فكانوا يجمعونها من بلادهم اضعافاً بحسب ما يبدو ولم فيظلمون او يرحمون
على ما يريدون وبتغون والناس يحتملون ذلك ولا يجسرون على
الشكوى او ابداء المعارضة لحاكمهم في بيان تظلمهم فاذا اقدم واحد على
ذنب التظلم للحاكم او لاله وعرف به الحاكم جوزي واهله بالدمار وقام
الآثار . وكان اذا حارب احد هؤلاء الحكام حاكماً آخر او عصي
الحكومة او انتصر لحليف له يلتزم رجال الاهالي عند سماع نداء
الحرب ان يتجندوا تحت راية حاكمهم على نفقة انفسهم ولا يمكن لاحد
ان يتقاعد عن ذلك والا فيصير عرضة لكل ويل وبلاء . وكثيراً ما
ساق العسف بعض هؤلاء الحكام الى مجاوزة حدود الادب والشهامة
بالاعتداء على اعراض الرعية وهاكها

✽ حالة المدن ✽

ولم تكن حالة المدن افضل من حالة الارياض ولكنها كانت اكثر
تعاسة واشد شقاء ولا سيما في اوائل هذا القرن حيث بلغ الاخلال

حده في البلاد وحل الويل فيها وعمّ البلاء وزاد الشقاء اذ صارت هذه المدن مرسجاً للاعداء والجور وميداناً للخصومات والثورات المتواصلة وكثرت العصابات لا رداً لها ولا وازع وجعلت شأنها تنفيذ مآربها بالقوة لا بالحق غير ناظرة الى ما سوى النفع الخاص ولا عامة بغير القسوة الهائلة والجهل الكثير

❖ قسم تملك ❖

واما سبب هذا الاخلال فهو السياسة السيئة التي اتبعها الولاة لغاية في النفس يقصدون منها باوغ مآربهم ونيل مقصدهم . هؤلاء جعلوا شعارهم المثل القائل « قسم تملك » فكانوا يسرون على هذه الحطة الدنيئة ويسعون في تقوية فئة على أخرى من الناس فينالون مآربهم من الطرفين . وقد بلغوا مرادهم في بادىء الامر الا ان سياستهم اضررت بهم في آخر الايام فصارت البلاد الى الهمجية والاخلال وفقدت اسباب الراحة وباتت دائرة نفوذ الولاة ضيقة حتى انحصرت في بعض الضعفاء وآل الذمة

ثم ان تقسيم الاهالي على انفسهم اوجب على كل قسم ان يكون ذا قوة يستند عليها للثبات امام خصمه او للتغلب عليه فلهذا ولما يوجب الانقسام من تباين الغاية والمطامع سيما بين اهالي الوطن الواحد صار للقوة المقام الاول فتشدد اصحابها وتنادوا في التهمة حتى صاروا ضربة على الاهالي وعلى انفسهم ايضاً . وقد اوجبت سياسة الضعف هذا الاخلال العظيم في وجاقات الجند فصاروا الى العداة والتنافر وعدم الطاعة لولاة

الامور (الا اذا كانت لهم غرض في الطاعة) ومن ثم جاروا بالرعية وزادوا الاحوال تعاسة وشرًا فنقد كل نظام وباتت البلاد في حالة الفوضى بلا ادارة تجعل الناس في مأمن على انفسهم واعراضهم واموالهم وانحصرت السطوة والنفوذ في اصحاب الغايات والجهال الذين لا يعرفون الا الغلظة والتوحش ويفتخرون بالشر واقتراف الكبائر . وقد كان في البلاد قوم من آل العلم والوجاهة غير راضين عن تلك الحالة المخللة وعارفين مخالفتها للشرائع باسمها الا انه لعدم الحظ لم يكن لهم من الوسائط والقوة ما يرد هذا التيار المندفع الذي كان ينشأ عنه كل يوم ويل جديد ومخاوف عديدة توجب القلق والاضطراب . وهذه الاحوال المخللة جعلت الناس عرضة للاخطار المستمرة لا سيما الذين كانت الفجار يطعمون بهم فاضطروا الى تجنيد قوة خصوصية تصونهم وعمد اصحاب المنازل والمقامات الى اتفاق المال على رجال من الاشداء كانوا يذودون عنهم ويصونون حرمتهم

✽ امور الولاية ✽

اما الحكومة فكانت بيد والي الايالة وكتخدائيه او كاتم سره وكانت هؤلاء على استبداد في الامور التي يقدرون على اجرائها وكثيرا ما كان الوالي يصادر الناس في اموالهم وخصوصا آل الذمة ويأمر بقتل عمرو وزيد ويغدر بيكر وعبيد وتنفذ احكامه بدون ذنب يرجع الحاكم اليه ولا شرع يعول عليه . وتحكي حكايات كثيرة تدل على هذا الجور منها ان احد الولاة كان مارا في احد اسواق

دمشق وكانت الاسواق في ذلك العهد ضيقة فمرَّ رجل ومعه دابة محملة
عنباً فمست الدابة الوالي فامر بقطع رأس الرجل فقطع في الحال .
وامثال هذه الحكاية اكثر من ان تعد

❖ ديوان الايالة ❖

وكان في مركز كل ايالة ديوان يؤلف من بعض علماء المسلمين
والوجهاء يرأسه الوالي من شأنه النظر في امر الاموال الاميرية
ومال الجزية وغير ذلك . ولم يكن لهذا المجلس نظام او اوقات للاجتماع
واكنه كان يجتمع عندما يريد الوالي او اذا حدث ما يوجب انعقاده
وكان الحكم في فصل المشاكل الجنائية التي تقع بين بعض الناس
وتصل للحكام منوطاً في اغلب الاحيان بالقضا باشي ومركزه في باب
سراي الوالي ثم بالتفكجي باشية وهم رؤساء القرهقولات في المدن
وكان هؤلاء القوم أميين جهلاً يحكمون بحسب اهوائهم وافكارهم
ونقودهم الرشوة ولم يكن لهم قانون يعرف او نظام يوصف

واما الاحكام الحقوقية وما شاكلها فالذي كان يسلم من تداخل
الوالي واحكامه كان يحال على الاحكام الشرعية . واما مسائل الاحوال
الشخصية فكانت منوطة بكل طائفة تحكم بها بحسب قواعد دينها

❖ اسباب القلاقل ❖

واما الثورات التي كانت تحدث والاعنداءات التي كانت تقع على
الذمين وآل السكينة من المسلمين فكان اكثرها من الجند ذلك لان
القوة الجندية بالاجمال كانت مؤلفة من رجال جهلاء تمادوا في القحة

والمنجور اذ لم يردعهم نظام ولم تردهم قوة . وكان الجنود ثلاثة اقسام رئيسية منها اثنان وطنيان وهما الانكشارية والقيقول وقسم دخیل وهو جنود مأجورون كان يحضرهم الولاة معهم كحرس خصوصي لهم ويؤلف هذا القسم من طوائف واجناس مختلفة كالارناؤود والمغاربة والموصلة والتكرانة والترك والدلاة وغير ذلك وكان العداء بين الاقسام الثلاثة قائماً على قدم وساق وقد نشأ عنه حروب كثيرة بين هذه الاقسام المتضاغنة فتسبب عن ذلك مخاوف كثيرة ولحق بالاهالي اضرار عظيمة حيث كانت تنهب الدكاكين وتقل الاسواق وتتعطل الاشغال ويتعذر على ابناء السبيل الخروج من بيوتهم . وكم من مرة اضحت بعض المدن وخصوصاً الشام وحلب مطعماً للنار من جراء ذلك ولم ينصرف المشكل الاً بمداخلة الولاة او بعض الاعيان ولكن ليعود الشر بعد وقت قصير عند ما يحدث له موجب صغير وما ذلك الا لعدم مقاصدة المجرم وقلة جرثومة العداء ولطالما نهض القوم على الولاة انفسهم وقتلوه وعساكرهم كما جرى في دمشق سنة ١٨٣١ لسليم باشا حيث قتل هو ومعظم عساكره لاجل ضريبة جزئية فرضها على الدكاكين والمحازن والبساتين . وقد كان الاعداء على العرض والقتل مما يحدث في كل يوم

ولاجل تكرار هذه الاحوال الشديعة كنت ترى شوارع المدن وحاراتها كثيرة الابواب العظيمة ثقيل آن الثورات وقاية لمن ورائها من السكان او لاجل ان يقيم الثائرون وراؤها متاريسهم لصد اعدائهم . اما خانات التجارة فلم يكن الثائرون يدخلونها وقيل ان ذلك

احتراماً لها إلا أن هذا قول ضعيف والمرجح أن لم يكن احترامها وعدم
الاعتماد عليها إلا لكونها قوية ولأنها كانت ذات أبواب حديدية
متينة جداً ولأنه كان يحرسها قوة كافية من الحراس لرد المهاجمين
عنها ولأن أكثر التجار كان لهم اعتبار عند رؤساء الجند لكثرة ما
يقدمونه لهم من الهدايا والهبات

✽ الوجاقات ✽

وكان كل قسم من العسكر يسمى وجاقاً إلا أن أكبر هذه الوجاقات
وأكثرها رجالاً وقوة ونفوذاً كان وجاق الانكشارية ثم وجاق القبيقول
وكانت أكثر مدن الشام تقسم عسكرياً قسمين قسم انكشاري وقسم
قبيقولي ورؤساء هذه الوجاقات يسمون اغاوات . وكان رجال كل
قسم يتشمون على يديهم بشارة وجاقهم وأكثر اجتماعهم في القهاوي
وجرت العادة أن يرسم فوق وجاق كل قبوة إشارة الوجاق الذي
يجتمع رجاله فيها ولم يكن لهم نظام عسكري في ذلك الوقت إلا
أن رجال كل حارة كانوا يخضعون لأغا الوجاق الحال فيها والجميع
يخضعون لكبير الوجاق المنتخب من بين الاغوات لامتيازهم بالجسارة
وصداقة الوالي أو لغير هذا ولم يمكن لحدث أو امرأة شابة جميلة
المرور امام القهاوي التي يجمع فيها العساكر خيفة أن يضحوا فريسة
أولئك الجهال

ولما كان نفوذ هذين الوجاقين بالغاً جداً عظيمًا ويدهما على الأهالي
ثقيلة أكثر المنتمون لهما من الرجال والمنضمون اليهما أما لغاية سلوك

مسلکهما او بغية الصيانة من الاعداء من آل الوجاق نفسه او للاستعانة به على الغير عند الحاجة وقد انضم اليهما وخصوصاً الى الانكشارية كثيرون من اصحاب الوجاهة وبعض من الذميين للغاية المذكورة . ولما كثر عدد رجال هذين الوجاقين صار معظمهم ينفقون على انفسهم من جيوبهم فلذلك اضطروا الى العمل مثل سائر الناس فكان يذهب الرجل منهم الى عمله متقلداً سلاحه ليسهل عليه الانضمام الى رجال وجاقه عند اللزوم . او يفعل ذلك للدفاع عن نفسه اذا عرض له عارض في طريقه . اما العطل من هؤلاء الرجال فكان شأنهم الجلوس في القهاوي ومعاقرة الخمر ومصادرة الناس والاعداء على اولادهم وحریمهم بحسب ما كانت تصورهم لهم بنت الحان في رؤوسهم او ما تطلبه شهواتهم القبيحة وكثيراً ما كانوا يطلقون بنادقهم او يعملون سيوفهم بمار على غير سبب ولا يسألون عما فعلوا . ومع ذلك فكان يوجد فيهم عدد عديد من آل الشهامة والمروءة يدافعون عن الاعراض وينتصرون للضعيف ويحفظون الذمام ويمجرون المستجير

❖ فئة المعتزين ❖

ثم ان عدم وجود حاكم قادر ينصف المظلوم من ظالمه ويقتص من المعتدين ويضمن للرعية الصيانة اوجب ظهور القوة الافرادية فلذلك كثر في تلك الايام الرجال الجبارة الاشداء من المسلمين والذميين غير المنتمين لحزب عسكري والمتكئين على قوتهم ونشاطهم .

وكان لهؤلاء الرجال الذين يسمونهم معترين اعتباراً واحتراماً عند آل الوجاقات وبقية الناس . ومما يحسن ذكره ان هؤلاء المعترين كانوا اصحاب شهامة ومروءة عظيمين يحكى عنهم حكايات كثيرة صادقة نورد شيئاً منها على سبيل الفكاهة . يحكى ان رجلاً من الوجهاء بين المسيحيين مرت امرأته وهي خارجة من الحمام باحدى الحواري فصدف ان احد رجال الانكشارية مرّ من هنالك فراقت في عينيه وتأثرها حتى عرف بيتها ورجع فتربص لزوجها حتى رجع من اشغاله فقال له استعد ايها الرجل لعشاء ومسكر وقل لامرأتك ان نتحضر لاني سآتي بعد ساعة لعندكم ففهم الرجل مقصد الانكشاري وما صم عليه من هتك عرضه فكبر عليه الامر وكان له صاحب مسلم من المعترين فذهب اليه وقص عليه خبره فقال له اذهب لبيتك ولا تخف واعد للرجل العشاء والشراب وانا ساتبعك فذهب الرجل الى بيته حزينا ليعمل ما طلب منه صاغراً وبعد القليل حضر الانكشاري فاقتبله بوجهه باشٍ فاخذ هذا بمعاقرة الخمرة وطب المرأة لتسقيه فلم يسعها الا الحضور وهي مرتجفة وجلة . ثم حضر المعتري بسلاحه واخفى في البيت وقال لصاحبه انه عند ما يتعشى الرجل و يبلغ به المسكر حده اخبرني ففعل صاحب البيت فنهض المعتري من كمينه وهجم على الانكشاري قائلاً اتعلم ان هذا بيت صاحبي وتعتدي عليه ثم ضربه بسيفه وقطع رأسه اما الرجل وامرأته فخشيا عاقبة الامر واتفقا على مبارحة المدينة فرحلا عنها ولم يرجعا اليها . وامثال هذه القصة كثيرة لا محل لايرادها الآن

﴿ التعصب الديني ﴾

وكان التعصب الديني آخذاً مركزاً عظيماً عند الناس في ذلك الحين كما ذكرنا حتى تجاوز القوم شرائط الدين وعدوا كل من كان خارجاً عن مذهبهم كافراً يجوز الاعتداء عليه لا اثم في اذلاله ناسين بان كل دين لا يجوز الاّ رعاية الذمي والذود عنه والمحافظة على حقوقه ومعاملته بالحسنى وكان العدد الكبير من العلماء الاعلام وآل التعقل يعلمون ذلك ولم يمكن لهم ردع المعتدين في زمن عمت فيه الفوضى وصار الحكم للعصبية . وقد اوجب هذا التعصب على آل الذمة الانضمام في السكنى ليقدروا على ممارسة دينهم وتحف وطأة الغير عنهم فيخف ويلهم نوعاً ولم تزل كل طائفة في اكثر مدن سوريا تسكن في حي خاص بها دون سواها

﴿ حالة النصارى ﴾

وكان النصارى عرضة للاهانة والذل اكثر من كل اهل الطوائف الاخرى سبيء معاملتهم كل واحد ما خلا اهل العلم والعقلاء ممن كانوا يذودون عنهم ويحمونهم واذ لم يكن لهم مخرج من ذلك الفوه كما الف مذلوهم اذلالهم . فكان النصراني حيثما توجه ينعت بالكفر ويشتم صليبه ويهان ويحتقر وتقلب عمته ويصفع الى غير ذلك وان سار في محلة المسلمين تبعه الصبيان قائلين له « نصراني كلب عواني » . دقوله بالصرامي . قالت امه فينه . ضربه ثقلع عينه » وامثال هذه من القبايح فكان يحتمل كل ذلك صابراً على بلواه لا يفوه بينت شفة ولا يقدر

على غير الاستجارة بمتعقل مسلم اذا صدفه فيحاول هذا ابعاد الصبيان عنه فان اطاعوه كان به او لا فيضطر ان يتركه وشأنه آسفًا من هذا العداء . وكان المسلم اذا مر بمسيحي يقول له اشملي اي سر عن اليسار فيلبي هذا الامر صاغراً واذا كثر المارة ما بين ذاهب وآيب كثر شقاؤه ولم يعلم المسيحي كيف يسير فيدعي حينئذ الى الطورقة فيطورق اي يسير في الطاروق (الطاروق منخفض في وسط السكة يبلغ اقل من شبر انخفاضاً وعرضه من ذراع ونصف الى ذراعين وعلى جانبه رصيفان للمارة ويسير في الطاروق البهائم محملة وغير محملة وفي الشتاء تجتمع فيه مياه الامطار وفي الصيف الاقدار) وهناك يصادف الغناء الاكبر من البهائم واصحابها هذا الحيوان يدفعه وذلك يزحمه والسائق يوكزه والآخر يلكمه فلا يجد له مخرجاً من هذا الشقاء الا بوصوله للمحلة او بخلو الرصيف من المارة فيصعد اليه . وكثيراً ما كان اصحاب الدكاكين في الاسواق يسخرونه لقضاء ما يلزمهم من الاشغال او يستعملون اهانتهم واسطة لاذهاب ملهم وتزجيج كرههم فكان احد اصحاب الدكاكين يناديه تعال يا معلم فيأتي فيقول له تقدم فيفعل فيصفعه ويكلفه ان يذهب ويحضر له حاجة او ان يلبسه مركوبه او يرفعه له من امام دكانه او ان يساعد في ترتيب دكانه وغير ذلك وان كان يريد المزاح معه فاما ان يهمس في اذنه شامئاً اياه او يقول له امراً آخر او انه يتناول عمته عن رأسه ويصفعه ويرمي العمة الى جاره ويقول له اذهب وخذها منه فيذهب ليأخذها فيصادف من الثاني ما صادف من الاول الى ان

يقدر الله له وجود واحد يشتغل في بيعه وشرائه فيسلمه العممة او يكون من اهل الصلاح والانسانية فيدفعها اليه ويصرفه لعله بان معاملة الذمي هذه لا تجوز (وقد كانت كثير من الاسلام ينكرون على اخوانهم هذه الافعال الغير الجائزة) وكان المضطهد المسكين يظهر البشاشة والرضا ويسلم ذاته للعذاب والويل . وكثيرا ما كان يأتي ولد او شاب من وراء النصراني ويقلب له عمته و يأتي آخر فيدحرجها ثم آخر فيبعدها وكلما قصد صاحبها ان يتناولها يصفع ويرفس وكانت العممة كبيرة مستديرة تحمكة الربط قوية الشد لحفظ ما يضعونه ضمنها من الاوراق التي يضطر الى وضع ورقة خراجها فيها ليبرزها حالاً عند الاقتضاء ولم يكن يمكن للمسيحي تركها لان اوراقه داخلها ومنها ورقة خراجها التي اذا سار بدونها عرض نفسه للخطر والاهانة الكبرى

✽ السخرة ✽

وكان القانون يحتم على الذمي ان يحمل على كتفه حيثما توجه كيساً يسمونه كيس الحاجة لا يخرج من بيته بدونها والغاية من هذا الكيس ان يضع فيه ما يسخره المسلمون بحمله من خضار او غير ذلك . وصدف كثيراً ان الرجل النصراني كان يستمر مسخرًا يومه بطوله مع انه من اصحاب العائلات يعيش بسعيه اليومي فتضطره السخرة الى المبيت وعياله بلا طعام او يستمد مساعدة جيرانه . ولما كان القوم لا ينفرون من النصراني نفورهم من اليهودي كان نصيب النصراني من التسخير اكثر وويله اشد . ولكثرة تكرار هذه الامور التي لا تطاق

صار الناس يحسبونها بسيطةً وكانوا عند ما يجلسون في سهراتهم يسألون بعضهم بعضاً من نوع التباسط ان كم مرة شئت وصنعت وكم حمل حملت فيقول هذا كذا وذاك كذلك ومن دلائل اعتيادهم الذل وحسبانهم بانهم خلقوا له وان كانوا يشعرون بثقله هذه الحكاية وهي انه كان في اوائل هذا العصر شاب نصراني في دمشق من بيت كبير محسوباً من الظرفاء ومحبي البسط واصحاب الصوت الجميل فخطر له ان يحيي ليلة طرب مع بعض خلانه فدعاهم الى سرداب تحت الارض ليقضوا ليلتهم فيه ولا يسمع صوتهم خارج الدار (لانه كان يحظر على النصارى الغناء الا باذن خصوصي من الوالي والحاشية والاغاوات وشيخ الحارة) فقصوا معظم ليلهم في سرور وقد نسوا ما صادفوه في ذلك النهار وحسبوه كانه لم يكن . ولما لاح النجر ذهبوا الى حمام فاستحموا وخرجوا قاصدين احد المطاعم وكان ذلك اليوم يوم حضور الحج من الحجاز فرأى بهم ولد من المسلمين وهم ياكلون وقلب عمه الشاب الذي ذكرناه فنزلت في المقلاة فاخذ صاحب الدكان من النار عوداً مشتعلاً وبدا يضرب النصارى به ويشتمهم ويقول لهم عطلم نهارى يا كفار فاجتمع الناس على صياحه فمنهم من شاركه بالشم ومنهم من ساعده بالضرب الى ان مر شيخ فصرف الجمع وقال لصاحب الدكان اتصرف يومك يا رجل وهو موسم بهؤلاء الجماعة فاجبسهم بدكانك وبعد انتهاء الفرجة نقضاهم اضرارك ففعل الرجل ذلك وسر أصحابنا بهذا الرأي وعند انتهاء الفرجة اعاد المسلم الكرة على سجنائه وغرم كلا منهم جملة مالٍ وصرفهم باسوا حال

❖ اموال الذميين ❖

اما اموال الذميين فكانت مطعماً للحكام وغيرهم فمن جهة كانت الحكومة تنتزفها بزيادة مال الخراج الزيادة الناحشة وبطلب القروض وما اشبه ذلك ومن جهة ثانية بالمصادرات وانتحال الاسباب فكان الحاكم اذا سمع بذي غني عمل على سلب ماله فيستدعيه ويطلب منه قدراً كبيراً من المال على سبيل المساعدة ربما فاق ثروته فياخذه منه فوراً او اقساطاً او يزجه في السجن ويتظاهر بانه يريد قتله مدعياً بانه خالف الحكومة ومن خالف الحكومة حسب عاصياً ومشاقاً وحل دمه وماله وعرضه فيسمع اهله وذويه فيأتون بفدائه بما تصل اليه ايديهم من الوسائط والمال ولذلك صار شأن الغني من النصارى التظاهر بالفقر والمسكنة فكان لا يلبس الا البسط الاردية واذا عمل ثوباً جديداً وضع عليه رقعا كثيرة ليظهر الفقر الا ان ذلك ظهر للحكام فصاروا يرسلون الجواسيس من قباهم لمعرفة اصحاب اليسار وصار هؤلاء الجواسيس شراً عظيماً على الناس فاق شر الحكام اذ كان الحكام لا يصادرون الا اصحاب الثروة اما هؤلاء فلاجل تنعمهم الذاتي وطمعهم بالارتشاء صاروا يتعرضون للجميع موسرين وغير موسرين ولا يتركون المرء الا بتغريمه ما يصل اليه جهدهم هذا غير وشاياتهم وتعمدهم كل واحد بالاذى لدى الحكام . وكان للحكام وسائل كثيرة غير التي ذكرت لانتزاف مال الذمي منها ادعاء احد الجنود عليه بارتكاب ذنب فيؤتى به ويغرّم وان عجز عن اداء الغرامة

اضطرت البطرخانة الى الدفع عنه والّا حل به النكال او سيق الى الشنق ما لم يسعده الحظ بشفاعة احد آل الوجاهة من المسلمين . حكى انه قبل احلال ابرهيم باشا دمشق ببضعة اعوام كان الخفراء ليلاً في حارة النصارى فمروا بثلاثة شبان بيدهم المصابيح يودعون جيرانا لهم رجالاً ونساءً واولاداً كانوا عندهم فتقدم احد الخفراء وقبض على الشاب المذكورين قبضاً شديداً فاقى والدهم وتداخل بالامر ودفع للرجل مبلغاً ليطلق سراح اولاده وابان له واقعة الحال فاخذ الخفير المبلغ بعد ان تظاهر بالرضا في الافراج عنهم ثم ساقهم ليلاً الى دار الوالى فزجوا في السجن حتى الصباح ولما علم الوالى انهم من الموسرين ساقهم الى سجن القلعة (وكان من العادة ان الذي يسجن في القلعة تنتهي حياته بالخنق) فعلم اهلهم بذلك واخذوا يسعون حالاً في خلاصهم وتوسطت البطرخانة وبعض اصحاب النفوذ من المسلمين فلم يفرج عنهم الا بعد التعب الشديد ودفع مبلغ باهظ من المال . والحكايات التي تحكى كهذه لا تعد ولا تعدد لو شئنا سرد بعض الشيء منها لملأنا المجلدات الضخمة ولكننا نكتفي بهذا القليل لضيق المقام ورغبنا في التقدم الى ذكر حوادث الحروب الهامة والمذابح الهائلة

✽ الضرائب الاخرى ✽

وفضلاً عن ضرائب الحكماء كان على النصريين ضرائب اخرى للاهالي من الوجوه والمعارف من المسلمين والمتكيس بكيسهم من اغاوات الانكشارية وغيرهم وكان يقدم هذه الضرائب في اوقات معينة وغير

معينة كهدايا في الاعياد واستعطاف الخاطر ويقوم بذلك عن طيب
نفس لئلا من على عرضه وحياته وماله ويكون له نصير عند الملأ هذا
فضلاً عما كان يغرمه صغار الانكشارية وغيرهم من طوائف الجند
من المغارم النقدية وما كان يصادفه من هذه الفئات من الاعتداء
العظيم والمخاوف الدائمة فان هؤلاء القوم كانوا يطرقون ابواب النصارى
ليلاً وهم سكارى آتين باوعية يطلبون املاًها عرقاً فان املاها
المطروق بابه تخلص من شرهم وان لم يكن عنده ارضاهم بالدرهم وان
لم يكن لا هذا ولا ذاك الحقوا به انواع الاهانة والشر الذي لا يطاق
او حرقوا بيته او دخلوه وانتهبوا ما به وهتكوا الاعراض وقد جرى
ذلك مراراً عديدة ولم ينته الشر الا بتوسط احد المسلمين من المعتزين
او اصحاب الوجهة

✽ الحياة المرة ✽

وخلاصة الامر ان الحياة كانت مرة صعبة على الذين رزئوا بحكم
الوحوش الضارية الذين سولت لهم النفس انه يجوز لهم تعذيب من لم
يتبع رأيهم في الدين وكان اكثر التعدي الذي يصل بال الذمة من
الجند وعمال الحكومة فاذا سلم الواحد من هؤلاء المتوحشين لم يسلم
من انزال الاهالي وارذال المسلمين ولطالما اضطر الناس الى ترك
دينهم واعتناق الاسلام تخلصاً من كل هذه المصائب وفات القوم ان
الاديان لا تقوم بالاكرام وانها تنهى عنه وتأمراً بالحسن والمعروف
تنكر على الناس الظلم والاستبداد ولكنه روح سرى في اهل هاتيك

الايام وهو الذي كان يشتد ويهيب آونة بعد أخرى فيبعث النفوس
الامارة بالسوء على الحرب وسفك الدماء وتحدث من جراء ذلك
الولايات الهائلة التي سوف ناتي على ذكرها

وكان هؤلاء الجهال يحظرون على اهل الذمة العيش بما تقتضيه
وسائطهم وسعيهم ويمنعونهم من التردى بالاردية التي يستعملها
المسلمون ولا يصرحون لواحد منهم بركوب المطايا غير شخص البطريرك
وحدث من جراء ذلك امور نتمزق منها الاكباد ويتفطر لامثالها
الفؤاد من ظلم وشتم واهانة وهتك اعراض وسلب مال وشنق اناس
ابرياء لا ذنب لهم غير ادعاء بعض الانذال عليهم بتعديهم الحد
المفروض لم . ومن غريب الامر انهم كانوا يعتبرون كل هذا الجور
وهذه الامور من آيات الدين والدين بريء منها ولولا ان يقوم في كل
عصر رجال عرفوا بالعلم والاستقامة ويعملوا على انقاذ الذميين من
هذه المصائب الحمراء لكان العيش لا يطاق ولا يذاق وهو مع ذلك
كان لا يمكن للذي في صدره شيء من المروءة فجعل الناس يلجأون الى
احد امرين اما الالتجاء الى وجيه او محارب من المسلمين واما الرحيل
عن البلدة التي يسكنونها والاقامة في قرى لبنان او سواها حيث لم
يكثر التعصب الى هذا الحد

✽ منشور درويش باشا ✽

والعجب ان الحكام كانوا يظنون ان ظلم اهل الذمة والتضييق
عليهم واجب ويطالبونهم بالمحافظة على القوانين الوحشية التي ذكرنا

بعضها وهذا نص منشور ارسله درويش باشا والي دمشق الى جماعة المسلمين في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ بهذا الشأن مع ان هذا الباشا يعد من اعدل وارضح الولاة الذين ولوا دمشق في ذلك الزمن . وهذا هو مجروفيه

« صدر مرسومنا هذا المطاع الى مشايخ واختيارية اهالي قرية سيدنا يا المسلمين ليحروا بحسبه ويعتمدوه فالبادي هو ان النصارى عندكم عمال يقلدوا الاسلام في ملابسهم وعمائهم ونعالهم وتعدوا درجاتهم وخالفوها فهذا ضد رضانا ولا يعطى به رخصة فبناء على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا لاجل ان تحذروهم وتنذروهم من عواقب ذلك المراد حالاً وتنهبوا عليهم الا يلبسوا ملبوس ازرق وعمامة سوداء ونعال سود ولا تدعوهم يقلدوا الاسلام بادن شي لا نساء ولا رجالاً وان بلغنا ان واحد تعدى الحدود المذكورة فما له لا يغني عن حاله وخطيته في عنقه ونطلع من حقكم وحقه فبناء على ذلك ارسلنا لكم مرسومنا هذا من ديوان الشام على يد رافعه نخر اقرانه جندي باشي ارقداشي محمد انما فبوصوله تعملوا بموجبه وتخاصوا مخالفته اعموه واعتمدوه والحذر من الخلاف في ١٩ رمضان سنة ١٢٣٦ » الختم

محمد درويش

ولهذا كان النصارى في حالة مكربة من الفقر ولم يمكن لهم معاطاة الاشغال التجارية او الفلاحة وكان جل معاشهم من الصناعة وبعضهم يدير انوال نسج في المدن الصناعية كدمشق وحلب وحمص بمشاركة المسلمين وتحت حمايتهم . ورخص الاسعار في تلك الايام ساعدهم

على القيام باودهم وتحمل تلك المغارم الثقيلة التي كانت تعرض لهم كل يوم تقريباً. أما حالتهم من حيث المعارف فكانت متأخرة جداً لانهم كانوا اميين جهلاء لا يعرفون القراءة البسيطة والذي يحسن القراءة بينهم يحسب عالماً كبيراً وكان لبعضهم معرفة بالطب اخذوه بالارث وتعلموه بالمزاولة والاخبار حتى نبغ بعضهم فيه

✽ ايام ابراهيم باشا ✽

وظلّ الحال على هذا المنوال والناس يظلمون وليس من منصف ويقتلون وليس من مشفق حتى صارت البلاد على شفا الخراب التام وكثرت فيها الثورات والقتلاقل وكان عدد الذين يقتلون بلا ذنب ولا اثم كل يوم يعد بالمئات والحكومة تشجع الاوباش والاولاد على هذه الامور او لا تقوى على ردهم عنها حتى من الله بالفرج على البلاد الشامية بدخول ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر اليها فلما لبث ان وصل حتى آمن الناس في الحال على ارواحهم واموالهم وعدل في قضاياهم ونظم امورهم وسهل طرق المعيشة والراحة عليهم وكان ذلك في اواسط عام ١٨٣١ ويعد حكم ابراهيم باشا في الشام بدء عصر التنوير والاصلاح فقد كان الذي قبل ايامه لا يعد نفسه من الادميين فلما انتشرت راية العدل وعم الامن وتساوى الناس امام الحاكم وظهرت القوة التي كانت كامنة في الصدور خطا النصارى الخطوات الواسعة في ميدان الحضارة ونشطوا الى القيام بالاعمال الكبيرة ولم يزل اهل الشام يتحدثون بابراهيم باشا وايامه الى هذا الحين . وسنعود الى ذكر ايامه وحكمه

✽ نطق شريف ✽

الآن ان ابرهيم باشا القائد الباسل والحاكم العادل لم يظل مدة طويلة في بلاد الشام لان دولة الاتراك استعانت عليه بدولة الانكليز فاخرجته من الشام وما يليها واضطرتاه الى الرجوع الى مصر فعاد عنها وعادت الاحكام الى العثمانيين الا انهم كانوا قد هبوا من رقادهم واشترطت انكثر عليهم ان يصلحوا اداراتهم ويعدلوا في احكامهم وكلفت وكيلها السياسي في دمشق (الجنرال وود) بمراقبة اعمالهم والسيطرة على عالمهم . ولما انتهت الدولة التركية من حرب القرم وعقدت مخالفة باريز الشهيرة سنة ١٨٥٦ واهم بنودها اصلاح حال المسيحيين في البلاد العثمانية نشر السلطان عبد المجيد نطقه المشهور الذي رفع عن عاتق الذميين ظلم الايام القديمة وقد رأينا ان ننقل هذا النطق الشريف بحروفه هنا لاهميته الكبرى وفائدته التاريخية وهذه صورته

لا يخفى انه منذ ابتداء ظهور دولتنا العلية كانت الاحكام القرآنية المجبلة والقوانين الشرعية المنبغة في غاية المراعاة الكاملة ولذلك كانت قوة سلطتنا السنية وشؤوننا مع راحة جميع الرعايا ورفاهيتهم وعمار البلاد في غاية ما يكون من الكمال . ولكن منذ مائة وخمسين سنة لم بعد انقباد كما يجب ولا امتثال لا للشرع الشريف ولا للقوانين المنبغة لسبب ما طرأ عليها من المحوادث الكبيرة . ولهذا قد انحوت تلك القوة الى ضعف والراحة الى التعب والعمار الى الدثار . واية مماكة لا تقوم بحفظ القوانين الشرعية تأول الى الاضمحلال . ومنذ جلوس سلطتنا على تخت الخلافة انجهد اوكارنا الخيرية خاصة الى عمار البلاد وراحة العباد . فنظراً الى موافق ممالك دولتنا العلية واراضها المخصصة وقابلية اهلها واستعدادهم اذا اخذ في

عمل الوسائط اللازمة بشاهد سرعة حصول المقصود بتوفيق الله تعالى في برهة
خمس أو عشر سنين

فاعتماداً على عون الله تعالى واستمداداً بروحانية نبينا (صلم) قد شوهد من
الامور المهمة اللازمة وضع قوانين جديدة لحسن ادارة دولتنا العلية وممالكنا
المحروسة . ونتيجة خلاصة هذه القوانين هي عبارة عن امنية الحياة وصيانة العرض
وحفظ شرف الانسان وامواله وتعيين مال الوبركو وطريقة اخذ العساكر ومدة
استخدامهم . فلا يوجد في الدنيا شيء افضل من الحياة والعرض والشرف
فالانسان اذا نظر لهذه الامور وكانت على خلاف رضاه يئس من الحياة
ويبادر الى حفظ حياته وشرفه باعمال يؤذي بها الدولة والبلاد

وبخلاف هذا اذا كان مطمئناً على حياته وعرضه وشرفه لا يجتهد عن طريق
الاستقامة ويكون مجتهداً في حسن الخدمة للدولة والملة

واذا كان الانسان غير مطمئن على ماله فيتأخر عن الاهتمام في كل ما يؤول
لنجاح الدولة وعمار البلاد بخلاف ما اذا كان مطمئناً عليه فيكون مهتماً في اعماله
ومجتهداً في توسيعها وتضاعف عنده الغيرة للدولة والملة وحب الوطن ويبذل
نفسه دونها . فهذا الامر يجعله ان يكون مستعداً لكل فعل حميد . واما ترتيب
مال الوبركو (اي المطالب الاميرية) فهو من اهم الامور لكون الدولة يقضي لها
نفقات كثيرة لتجهيز العساكر . وللدول ان تأخذ النفقات من الاهالي لصيانة المملكة
وقد امرنا برفع الحجز عن بيع كل صنف من البضائع والمحصولات بيد شخص
واحد الامر الذي كان الاقدمون يعتقدون انه اصل كل سعادة . وتقرض الاموال
الاميرية على كل انسان بحسب قدرته بالمال والاملاك . وان لا يطلب منه
شيء خلافة

ومن الامور المهمة ايضاً وضع قوانين لتعيين مصاريف عساكرنا البرية
والبحرية . ومن حيث ان صيانة البلاد امر واجب وفرض لازم فعلى الاهالي ان
يندبوا انفاراً للعسكرية . فقد امرنا بوضع قوانين في كيفية اخذ الانفار على قدر
امكان كل مكان ومدة اقامتهم في سلك العسكرية اربع سنين او خمس . لانه اذا
اخذ انفار اكثر من طاقة الاماكن او مكثوا مدة حياتهم في العسكرية يكون ذلك

ظلمًا وضررًا على العباد والبلاد وبصير الانتفار بيأسون من حياتهم اذا مكثوا مدة طويلة . ومن الآن فصاعدًا لا يقاص احد لا سرًا ولا جهراً باي نوع كان . من القصاص الا بعد الفحص والتدقيق تطبقاً لشريعتنا الالهية . ولا يسمح لاحد ان يهين شرف الآخر كائنًا من كان وكل واحد المحرمة الكاملة ان يتمتع باملاكه وامواله بدون معارض كما ان اقارب المذنب لا يقاصون بذنبه ولا مجرمون من ميراثه اذا كانوا ابرياء

فلنعم هذه الترتيبات جميع رعايانا من اية ملة كانت ولينتع بها الجميع بدون استثناء . وليكن اطمئناننا كاملاً ممنوحاً منا الى جميع اهالي المملكة على حياتهم وشرفهم واموالهم حسب فرائض شريعتنا المطهرة وقد امرنا بوضع مجلس للاحكام العادلة يكون فيه وزراءنا ووكلاء رجال دولتنا يتكلمون فيه بالمحرمة النامة لاجل ترتيب ما يلزم لاطمئنان الرعايا على حياتهم واموالهم وتعيين الاموال الاميرية . واما الشرائع المختصة بترتيب العساكر فتصير المفاوضة بها في المجلس العسكري تحت نظارة السر عسكر . وكل ما يرتبونه من الاشياء المستحسنة تعرض لسدتنا السلطانية فنشرفها في اعلامها خطأ بيدنا الملوكية لاجل المصادقة

ولما كانت هذه الترتيبات ليس لها غاية سوى تقدم الديانة والدولة والشعب وخير المملكة . فعظمتنا الشاهانية نتعهد ان لا تفعل شيئاً مخالفاً لها . وتأكيذاً على الاقامة بعهدنا هذا نقسم بالله العظيم امام كل العلماء ووكلاء رجال الدولة في بيت المحرقة الشريفة ونخلفهم ايضاً . وبعد ذلك كل من يخالف هذه الترتيبات بصير قصاصه على قدر ذنبه مع قطع النظر عن رتبته واعتباره . وبما ان للموظفين ماهيات كافية فيجري القصاص الصارم على كل من يقبل الرشوة التي نحرّمها الشريعة الالهية وتكون سبباً لفقوطة المملكة . وبما ان هذه القوانين المتقدم ذكرها قد جعلناها عوضاً عن القوانين القديمة فلنعلن ارادتنا الملوكية السنية في الاستانة العلية وفي سائر ممالكنا المحروسة ونعطى صورها ايضاً الى سفراء الدول المتحابة الموجودين في دار السعادة العلية لتكون دولهم شهوداً على دوامها الى ما شاء الله وعدا ذلك فليحفظنا الله بحفظه الالهي وكل من خالف هذه الترتيبات فليكن موضوعاً للعنة الالهية الى الابد آمين

وبعد نشر هذا المنطوق الشريف الذي جاء شاهداً على ما كانت عليه احوال الرعيّة والمملكة من الاخلال ومخالفة الشريعة الغراء سارت البلاد على الخطة المرسومة فيه ولكن إلى حين

✽ عودٌ إلى الاصل ✽

ولما عادت البلاد إلى رؤسائها السابقين بعد خروج ابراهيم باشا من الشام فقد الشيء الكثير من الاصلاحات وضاعت اسباب الامن التي وضعها ابراهيم باشا في مدة ولايته التي بلغت تسع سنين . ونظراً لضعف بعض الولاة وعدم اقتدارهم على السياسة الحسنة وحفظ الامور طبق رغبة الذات الشاهانية طمع هؤلاء الرؤساء بالرجوع إلى الحالة التي كانوا عليها واخذوا يتقدمون اليها شيئاً فشيئاً رغماً عن مراقبة القنصل وودّ فنشأ من ذلك فقد الامن في الطرق على المسافرين وكثر الاعتداء في الارياق وصار بعض اصحاب المقاطعات يكذبون الراحة في نواحيهم ويحملون على بعضهم بعضاً وراج سوق الافتراء والنهب والسلب والقتل في كثير من جهات البلاد وتأتى عن ذلك ثورات كبيرة منها ثورة في لبنان وأخرى في وادي التيم وبلاد القلمون عند ما عصى الامراء الحرافشة على الدولة وثورة بلاد النصيرية وثورة حلب ضد النصارى وغير ذلك مما كان يستدل منه بان البلاد عادت لما كانت عليه . وسياًتي بيان هذه الثورات في الفصول القادمة

واما المدن فكانت الحالة فيها احسن قليلاً واستمر فيها مبدأ الاصلاح الذي بدأ فيه ابراهيم باشا ولكن لما وقعت الحرب بين الدولة

العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ بدأ في المدن تقسمها ما ابان بان نفوس
 الاهالي كانت إلى ذلك الحين مبالغة إلى الحالة السابقة عند سnoch
 الفرص المناسبة حيث ثارت نيران الاضطهاد ضد المسيحيين فصاروا
 يهانون ويشتمون اشنع الشتم حيثما ساروا واينما داروا ويعاملون معاملة
 وحشية وان تكن اخف من معاملتهم السابقة ولم تقف هذه الحالة على
 حد الا بعد انتهاء الحرب ونشر التنظيمات الخيرية كما تقدم . ومما
 جرى بعد خروج ابراهيم باشا من سوريا حين نشر التنظيمات يظهر بان
 جرثومة الاختلال لم تخلص من البلاد السورية بل ضعفت نوعاً لتجدد
 قواها عند مناسبة الظروف والاحوال وهذا اقوى دليل على ان
 النكبات التي اصاب الشام ما بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ لم تكن
 الا بسبب فساد الاحكام وظلم الحكام وسوف يظهر ذلك باجلى بيان
 عند تفصيل الحوادث التي ستجي . ونكتفي الآن بما تقدم من وصف
 حالة البلاد والعباد التي كانت مقدمة لتلك الحروب والويلات

التي لم يزل صداها يرن في الاذان

وترجف من ذكرها

الابدان

فصل

في منشأ الدروز

من المعلوم ان اكثر نكبات الشام كانت على يد طائفة الدروز
وسببها المنافسة والمباغضة بينها وبين طائفة الموارنة وسياسة الحكام
الاتراك وكرههم للطائفتين . فاما سياسة الحكام فسوف نعود اليها
ويظهر من سرد الحوادث التي سنشرحها ما فيه الكفاية . واما المباغضة
الكائنة بين النصارى والدروز من ناحية وبينهم وبين المسلمين من
ناحية اخرى فقد بينا بعضها في الفصل الذي مرّ ولا بدّ من ايراد
حكاية الدروز واصابهم هنا حتى يكون القارى على بينة من الامر
ويطلق على الدروز هذا الاسم لانهم اتباع رجل من اهل
الديانة الباطنية فارسي الاصل اسمه نشكين الدرزي كان اوّل من
دعا الناس إلى الاعتقاد بالوهمية الحاكم بامر الله معبود الدروز وهذا
طرف من سيرة هذا الطاغية الذي يعبد الدروز عبادة سرّية
وُلد الحاكم بامر الله في مدينة القاهرة سنة ٣٧٥ هجرية وهو
السادس بين الخلفاء الفاطميين واوّل واحد منهم وُلد في مصر وبويع
بالخلافة بعد والده العزيز سنة ٣٨٦ وهو في الثانية عشرة من عمره
فاستهلّ حكمه بقتل مربيّه ووزيره لانه كان يمنعه من اللعب واللهو
ولما صار في السابعة عشرة من عمره اظهر اهتماماً كبيراً في امور الملك

وظهرت عليه لوائح الفراسة والذكاء ولكنه اظهر ميلاً غريباً الى الاستبداد وسفك الدماء ولم يرو ان واحداً من الناس ظلم قومه قدر ما ظلم هذا الطاغية المصريين وغيرهم ممن كان تحت امره . وجعل في اول الامر دأبه الركوب على الخيل والتجول في شوارع القاهرة ليرى خضوع الناس له وتسابقهم إلى اكرامه وكان يكرههم على تعظيمه اكراماً ولم يمل اليه الناس من اول الامر لانه كان على مذهب الشيعة والباطنية (هم التائلون بان لايات القرآن معني غير الظاهر وان روح النبوة انتقل من آدم إلى غيره من الاولياء حتى صار إلى خلفاء الفاطميين) وكتب اوراقاً يشتم فيها اكابر الصحابة وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر بن الخطاب وكل من والاها ولم يجسر القوم على شق عصا طاعته لان بلاد الشام وطرابلس الغرب وما يليها كانت من املاكه وكان له جنود منها طوع امره يخشى الناس شرهم

وكان الحاكم بامر الله — وسمى نفسه بعدئذ الحاكم بامر — شديد الوطأة على اليهود والنصارى فامر الاسرائيليين بلبس الملابس الصفراء وتعليق قطع من الخشب ثقيلة على صدورهم وحتم على النصارى بلبس الملابس الزرقاء ووضع الصلبان الكبيرة في اعناقهم واكثر من اضطهادهم حتى انه سمح للناس بوضع اليد على املاكهم وخرب خمسمائة كنيسة من كنائسهم وضم اوقافها إلى املاك اعوانه فاضطر العدد الوافر منهم ان يعتنق الاسلام فراراً من الظلم ولكنه عاد فرضي عنهم يوماً وامر باطلاق الحرية لاديان فرجع ستة آلاف شخص إلى دينه يوم صدور ذلك الامر . ولم يكن ذا رحمة بالمسلمين فانه شدد الوطأة

ايضاً على كل مسلم من اهل السنة وفتح لهم المكاتب لتعليمهم طرق
العبادة الشيعية فكان اذا لم يقبل الناس عليها يقطع اعناقهم او يوزجهم
في السجن او يعذبهم عذاباً كبيراً حتى خج الناس من هول ظلمه
ولكنهم لم يجسروا على الثورة لما تقدم عن خوفهم من عساكره ولكن
البعض عصوه في طرابلس الغرب وقام من بينهم واحد اسمه الوليد
ابو رقوه فقاد الثائرين واشهر على الحاكم حرباً عواناً وكسر جيشه في
عدة مواقع فسير الحاكم عليه قائده الفضل بن محمد في جيش من
العرب والسوريين ولم يفلح في اول الامر حتى ان ابا رقوه لما رأى
نجاح عمله تقدم إلى البلاد المصرية وفاجأ الجيزة على غير استعداد
من اهليها وحكومتها فاستولى عليها وتهدد القاهرة بالمهجوم وفر الحاكم
بامر الله إلى بلبيس . ولكن القدر لم يساعد هذا القائد على نوال
بغيته فانه ما عثم ان نال الظفر حتى التقى بعساكر الفضل وانكسر في
معركة عظيمة فتقهقر وفر من وجه خصمه والتجأ إلى بلاد البرابرة فعاد
الحاكم إلى مقره ظافراً وارسل إلى زعيم بلاد النوبة يطلب منه
تسليم العادي فسلمه ولما عاد ابو رقوه إلى مصر زجه الحاكم في السجن
زماناً وعذبه طويلاً ثم قطع عنقه ومن ذلك اليوم استتب الامر له
وخاف الناس ان يظهروا تدمرهم منه فاحتملوا ظلمه بالصبر وكان هو قد
احس بان التناهي في الاستبداد جلب عليه ما قاساه في اول هذه
الثورة من الويل والوجل فاعندل في اموره بعض الاعتدال ولكن حله
لم يدم طويلاً لان الطبع غلاب فباد إلى اسوأ مما كان عليه وجار
بالعباد جوراً لم يسمع به الاوائل والاواخر

وكان هذا الطاغية يكره النساء ويشدد عليهن بالاختفاء والتستر فلا يصرح لهن بالسير في السكك من دون نقاب ثم امر بحبسهن في بيوتهن مدة سبع سنين ونبه على عاملي الاحذية بعدم صنعها لهن حتى لا يتمكن من الخروج . وحدث انه كان في احد الايام ماراً امام حمام في مصر وسمع لغطا وصياحا فسأل عن السبب قالوا انه حمام للنساء فوقف على بابه وارسل في الحال وراء البنائين وامرهم ان يسدوا ابواب الحمام واقام الحراس على البناء من خارجه حتى لا تفر احداهن وهكذا امات اربعة امراة جوعاً بلا ذنب ولا سبب . واشتهر في اعطاء الاوامر المتناقضة الغريبة فكان يأمر يوماً بمنع بيع الخمر وكسر آنيتها حتى انها كانت تجري في شوارع مصر جداول ولا يقرب الناس منها ويوماً يأمر بمنع اكل السمك او يشير بغير هذا مما ضاقت صدور الناس بسببه

وفي سنة ٤٠٧ للهجرة جاهر هذا الظالم بما كان ينويه واعلن انه اله فوافقه على ذلك فارسي اسمه حمزة بن علي كان وزيراً له وآخر من اهل الديانة الباطنية اسمه نشتكين الدرزي ودار هذا الاخير في جوامع القاهرة يشتم الاولياء وآل الصحابة ويطش بالوهية الحاكم بامره فقام عليه الناس يوماً في وسط الجامع ونكلوا به وكانوا على وشك قتله لولا ان يتداركه بعض الجند فلما رأى الحاكم تعصب القوم عليه وعلى ما جوره اضمر لم سوء ولكنه لم يقوَ على ابقاء الدرزي في مصر فبعث به إلى بلاد الشام وكانت تابعة له كما مرّ وهناك لقي الدرزي ما لم ينتظره من النجاح وسنعود إلى ذكره . واما الحاكم فانه عزم من

بعد ذلك الحين على انفاذ مآربه في الناس وساعده على ذلك وزيره حمزة فاصدر الاوامر إلى المسلمين ينههم فيها عن الحج إلى مكة وعن ارسال الكسوة اليها وامر بابطال الصلوات الخمس والصوم في رمضان والغى عيد الفطر وعيد الاضحى واطهر في ذلك الحين - سنة ٤٠٨ - ميلاً إلى النصارى واليهود فاطلق لهم الحرية في دينهم وساعدهم على بناء الكنائس وكان يقول لبعض الناس انه لا يليق به ان ينتمي إلى دين واحد من الاديان وهو يعبدُه انكل على السواء . كل هذا وهو يضمّر سوء للذين لم يوافقوا رسله وماجوريه ويهين الاوامر اللازمة لا يصل الاذى اليهم . وبدأ في ذلك الحين بعمل الطرق لاقناع الناس بعلمه واقتداره فكان يستأجر الجواسيس والارصاد بالالوف ويبعث بالنساء العجائز إلى بيوت الناس ليلقين اليه كل امر سمعنه من اهل مصر وكل حادثة رأينها وصار اذا جاءه واحد من الذين حفظ عنهم الحكايات عن عجائزه يقص عليه اخبار بيته ويعلمه بحكايات نفسه فيعجب الرجل ويظن ان في الخليفة قوة خارقة لقراءة الافكار . ولما انتشر هذا الامر وكثر تحدث الناس به واطهر الحاكم بامرهم لمن حوله يوماً بعد يوم انه يعلم اسرارهم ونواياهم ويعرف الذي حدث بينهم وفي بيوتهم جعل البعض منهم يعتقدون ان دعواه صحيحة وانه اله يعرف الغيب . ثم انه امر الناس بتعظيمه ومخاطبته كما تخاطب الالهة فكان اذا جاءه واحد يسجد امامه سجداً ويتول له ما معناه السلام عليك يا ايها الفرد الصمد الذي بيدك الحياة والموت ومنك الغنى والفقر ولم يلد له امر قدر ما كان هذا السلام يلد

له ويطر به . وكثر تحدث الناس في دعواه وقوي انصاره فصاروا
 يجاهرون بالوهيته ولا يخشون قيام الناس عليهم حتى ان بعضهم لما
 زار مكة بقصد الحج وقف امام الكعبة وضربها بسيفه على رأى من
 الحجاج والواقفين وقال لهم يا ايها الناس على م تجهلون وحتى م
 تكفرون انكم تعظمون هذا الحجر الذي لا يضركم ولا ينفعكم وقد نسيت
 القدير الذي في مصر ذلك الذي يحيي ويميت

وكان الحاكم ولعاً بركوب الحمير ولبس الملابس السوداء والتجول
 في انحاء مصر ليلاً ونهاراً . وحدث انه كان يطوف على عادته في
 احدى الليالي فقابلته بعض الناس من اعدائه ووضعوا ورقة في يده
 ظنوا شكوى فلما فضّ ختامها وقرأها وجدها مشحونة بالشتائم
 واللعنات عليه وعلى كل واحد يعاونه على كفره . ولقي في احد الايام
 تمثال امرأة واقفة في السوق بغير نقاب فعلم انهم عملوا ذلك لنكايته
 واهتم من بعد ذلك في ما ياتي له لمقاومة هؤلاء القوم والشروع في ما
 كان ينويه من الشر لم يجمع رؤساء جيشه وكان اكثر العساكر
 والقواد عنده من البرابرة واهل طرابلس وغيرها وامره باحراق مصر
 من اولها الى آخرها وصرح لم ينهب كل ما تصل اليه ايديهم وامتلاك
 البنات والغلمان وعمل كل ما يريدونه من الموبات ففرح عساكره
 الاندال بهذا وشرعوا في انقاذ امره فاضرموا النار في كل انحاء المدينة
 واعملوا السيف في اهلها ثلثة ايام كاملة بليت فيها مصر بما لم نره في
 زمانها السابق وجرى دم القتل في الازقة والطرق واندلع لسان النار
 في بيوت مصر المتلاصقة فلم يبق منها شيئاً وفرّ الذين امكن لهم الفرار

من الناس فكان الذي ينجو من النار وسقوط الابنية عليه يقع في يد
العساكر فيقتلونهُ وينهبون ما معه . كل هذا والخليفة يذهب يوماً بعد
يوم إلى القرافة ليرى بعينه كيف يحلُّ البلاء برعاياهُ وإذا جاء إليه
الناس يسترحمونهُ ويرجونهُ ان ينهي عبيدهُ وعساكرهُ عن فعالم قال
ان لعنة الله عليهم اني لم آمرهم بشيء من هذا انما هم يبطشون ويفتكون
بغير علي . واجتمع في اليوم الرابع مشايخ المسلمين في الجوامع وفي ايديهم
المصاحف فصاحوا من ظلم هذا السلطان واستعانوا بروءة بعض
العساكر من الاتراك فاستمالوهم اليهم وتعاهدوا معهم على الاخاء ومقاومة
هذا الظالم وانقاذ الذين بقوا من يد العساكر السود الذين امرهم
السلطان بقتلهم فارسل العساكر إلى السلاطان بلاغاً بهذا المعنى
وذهب اليه المشايخ فتراموا على اقدامه وقالوا له اننا عبيدك وهذه
مدينتنا تعمل فيها النار واولادنا ونساؤنا يفتك بهم البرابرة الكفار
فاجرنا من هذا العذاب وان كان لنا ذنب فاسمح لنا بالخروج من هذه
البلاد او اذا كان هؤلاء العتاة يقتلوننا ويحرقون منازلنا بلا ذنب ولا
سبب فاسمح لنا ان نعتبرهم ممن عصى امرك ونقوم عليهم مع عساكر
الاتراك فنقتلهم . فاجابهم ان الذي جرى كان بغير امره وفوض
الاتراك بمحاربة العساكر السود وبعث اليهم الامر بالكف عما كانوا
يفعلون على مسمع من الحاضرين ولكنه الحقُّ بامرٍ آخر سري يأمرهم
فيه بمداومة الحرق والقتل فلما لحظ القوم منه ذلك استعدوا لمحاربتهم
وارسلوا اليه بلاغاً بذلك فخاف العاقبة وركب حماره ونزل في الحال
إلى الاسواق فامر العساكر بالامتناع عما كانوا يفعلون ثم اصدر عفواً

عاماً عن كل ساكنٍ في مصر بناءً على طلب المشايخ وخلص الناس من ذلك البلاء الشديد

وكان يحنال بكل حيلة لاقتناع الناس بقدرته وعلمه كما مر من ذلك انه ارسل وراء بعض الاشقياء وعلمهم ان يسرقوا من مخازن مصر في احدى الليالي اشياء معلومة فاطاعوا امره وكان قبل ذلك قد امر الناس بترك بيوتهم ودكاكينهم مفتوحة مدة الليل بدعوى ان السرقة لا تجوز في ايامه وتعهده لكل من يسرق له شيء برده ومعرفة السارق فلما دار الذين استاجرهم للسرقة واخذوا ما اخذوه تقدم اليه اصحاب الحاجات يشكون اليه الامر فقال لهم ان اذهبوا إلى ابي الهول الذي صنعته يخبركم بما تريدون وكان قد صنع تمثالاً من النحاس على صورة ابي الهول ووضع من داخله رجلاً يعرف اسماء السارقين والذين سرقت الاشياء من دكاكينهم فاذا جاء الرجل منهم وقص حكاية اجابه الرجل من داخل الصنم ان اذهب إلى بيت فلان تجد حاجتك وصحت اقاويله فمال الناس الامر واعتقدوا في الخليفة اشكالا والوانا. ثم جيء بالسارقين وكانوا اربعة شقي عدداً فامر الحاكم بامرهم بشنقهم جزاء جنائتهم فشنعوا جميعاً ضحية حيله وعم الامن في المدينة حتى لم يعد الناس يسمعون بجناية او سرقة لارت صاحب النفس الامارة بالسوء صار يعتقد ان قدرة السلطان تكشف فعله ويشنق حتى ان الناس كانوا يتنعون عن النقاط ما يجدونه في الطرق من النقود او الامنة ويظل الشيء في الطريق والناس تمر إلى جانبه ولا تمسه حتى يجيء صاحبه وياخذه. وحدث يوماً ان تاجراً اودع عند صديقه مبلغاً

كبيراً من المال بلا سند ولا شهود ولما طالبه به انكره الرجل عليه
فقص التاجر حكايته على السلطان وطلب اليه الانصاف فامرهُ الحاكم
ان اذهب وقف في الغد امام دكان صاحبك حتى اذا مررت به تجيء
اليّ وتحدثني كأنك صديق قديم لي ففعل الرجل ذلك ورأى الذي
انكر عليه المال انه يحدث السلطان بغير تكلف فخاف العاقبة واسرع
في الحال الى بيته فجاء بالمال المطلوب وسلمهُ الى صاحبه ولما علم الحاكم
بالحكاية امر بشنق الرجل على باب دكانه فشنع والناس يهيجون ويحسبون
كل هذا يدل على ان هذا السلطان تفرد في بعض الامور وكان
عنده ذكاء وقوة في الحيلة وجرأة على الامور ولكنه تفرد ايضاً بالظلم
والتلذذ بسفك الدماء وقتل الابرياء إلى درجة لم ترو عن غيره من
الظالمين . وكان له منظر مهيب وعينان ثقتدان مثل الجمر وصوت
جهوري ووجه يرجف الابدان حتى ان الناس كانوا يتحاشون النظر
إلى وجهه خوف ان يصيبهم من عينه ضرر ويظن البعض ان ذلك
كان من دلائل الجنون او من ازدياد الحدة في ذهنه . ولكن المظالم
التي اتاها عرضته للخطر وكان له اخت اسمها ست الملك يكرها كما
يكره سائر النساء واتهمها يوماً بامور لا تليق حتى انه ارسل وراء
بعض الاطباء وكلفهم ان يذهبوا اليها في معمة وضعت عليهم وعليها
فلما ان سمعت بذلك وعلمت ان ساعة افتضاحها او موتها قربت ارسلت
وراء رجل من اعوانها اسمه ابن دواس كان يكره السلطان لجوره
وظلمه وعرضت عليه قتل اخيها فرضي الرجل بذلك واستعد للفتك
بمولاه في الغد . وكان الحاكم في تلك الايام يركب كل يوم حمارة

ويقصد القرافة فلما خرج في صباح احد الايام سنة ٤١١ هجرية قال لأمه ان ذلك اليوم كان خطيراً لديّ وأنه رأى في الكواكب ان سيمر عليه خطر جسيم فان خلص منه عاش طويلاً وان ظهرت له في القرافة علامة يعرفها كان هلاكه محتملاً فلما صار في المحل المعبود تطلع فيما حوله فرأى العلامة التي كان يخشى عاقبتها وصاح في الذي معه قائلاً انا لله وانا اليه راجعون ظهرت العلامة وودت المنيّة ولم يتم قوله هذا حتى طلع عليه ابن دواس في بعض الرجال فقتلوه واخفوا جثته وهكذا استراح الناس من شر هذا الطاغية

هذه سيرة الحاكم بامرهم معبود الدروز وهو الذي ارسل نشتكين الدرزي على ما قدمنا إلى بلاد الشام ليبشر به الها فجاء هذا الرجل وادي التيم في اطراف لبنان من ناحية الجنوب ولقي هناك قبيلة من العرب كان اجدادهم يميلون إلى الديانات الباطنية ويتظاهرون بالاسلام على كره منهم وعليهم امراء من آل تنوخ فاكرموا وفادته وقبلوا دعوته وكان الدرزي في اول الامر يقر لحمزة بن علي بالسيادة والرئاسة لان هذا الوزير كان من علماء الباطنية ولكنه تظاهر بالاستقلال وحب الرئاسة لما رأى النجاح وبلغ حمزة الامر فعزل الدرزي وحقره في عيون اصحابه الذين قبلوا تعاليمه وارسل واحداً بدله اسمه مقتنى بهاء الدين فاتم عمل الدرزي ووزع على اتباعه كتباً ورسائل من حمزة فيها تعاليم دينهم السرية وخلاصتها عبادة الحاكم بامر الله وتسميته الحاكم بامرهم وعدم الاقرار بصحة القرآن وغير هذا من الامور واطلق على هذه الطائفة اسم الدروز لانهم اتبعوا تعاليم

الدرزي ولم يقدرُوا عَلَى الخلاص من هَذَا الاسم مع انهم صارُوا في آخر الامر يكرهون الدرزي ويحرقونه ويسمون انفسهم بالعقال او الموحدين وقد اشتهر عن الدروز بين عامة الناس والجهلاء انهم يعبدون العجل وقد ذكر مؤرخو الافرنج ذلك في كتبهم من ايام الحروب والصليبية ولا يعلم الناس اصل هذه الخرافة . ولما مات الحاكم بامرِهِ اختفى حمزة خوفاً عَلَى نفسه من الذي خلفهُ ولم يمكن للسلطان بعدئذ ان يحو الذي زرعه حمزة والدرزي فصار الدروز طائفة سرية وتحصنوا في جبال الشام وظلوا عَلَى الاستقلال وهم الى اليوم يعرفون بالميل إِلَى الاستقلال وحب الحرب والتعاقد عَلَى كل عدو او معاند . ولما رأى بهاء الدين ان طائفته في خطر كبير بعد وفاته اوصاهم قبل مفارقة هذه الدنيا بعدم قبول الطالبين في طائفتهم وهكذا قفل الدروز باب الانضمام اليهم وهم إِلَى اليوم طائفة صغيرة يحترمون رؤسائهم ويعتقدون ان في بلاد الصين عدداً لا يحصى من اخوانهم في الدين وان حمزة سيظهر لهم مرة اخرى قادماً من تلك البلاد . وكان الامراء التنوخيون الذين اعتنقوا هَذَا المذهب الجديد اصحاب صولة وسطوة ولهم في الحروب الصليبية فعال تذكر اعانوا بها سلاطين المسلمين عَلَى الافرنج وذلوا في اوائل القرن السادس عشر فعقبهم في السيادة الامراء المعنيون وهم من احدى قبائل العرب ايضا ثم تلاهم في السيادة امراء بيت ارسلان ومشايخ بيت جنبلاط وعماد وغيرهم ممن لا يسعنا ذكرهم في هَذَا الكتاب المختصر ولم يزل بيت ارسلان وبيت جنبلاط عَلَى السيادة بين الدروز إِلَى هذا اليوم

فصل

في منشأ الموارنة

اختلف الناس اخلافاً كبيراً في اصل الطائفة الموارنة فبعضهم يقول انهم بعد قبول النصرانية تبعوا راهباً اسمه مارون كان يسكن في دير على مقربة من حماه في القرن السابع وعلم بان المسيح مشيئة واحدة بدليل ما قاله جاك ده فثري اسقف صور الذي كلفه البابا اونوديوس الثالث في القرن الثاني عشر بكتابة ما يعلم عن المسيحيين في الشرق اذ قال « ويقطن في الجبال الكائنة في بلاد فينيقية على مقربة من مدينة بيلوس (جبيل) قوم يحسنون صناعة الحرب ولم شهرة في الرمي بالسهم وعددهم ليس بقليل واسمهم الموارنة على اسم زعيمهم مارون الهرطوقي الذي علم بمشيئة واحدة وظل نصارى لبنان يصدقون هذا الخطأ الشيطاني الذي ابتدعه مارون مدة خمسمائة سنة تم تغيرت قلوبهم وانضموا إلى الكنيسة الكاثوليكية واقروا بصحة تعاليمها في حضرة الاب اموري بطريرك انطاكية » ولكن زعماء هذه الطائفة يقولون ان مار مارون هو غير هذا الراهب الهرطوقي وظل اهل هذه الطائفة لا يقرون بسيادة البابا في الامور الدينية إلى سنة ١٤٣٨ للميلاد وكان معتمد من اشهر المقاومين للقول بعصمة البابا في اواسط هذا القرن

واشتهر الموارنة في كل الحروب التي حصلت بين الافرنج وسلاطين المسلمين فساعدوا الافرنج مساعدة تذكر ولما انتهت تلك الحروب الهائلة يعود الافرنج إلى بلادهم شدد الخلفاء الوطأة عليهم فرحل قوم منهم إلى قبرص وآخرون إلى مالطة وكريت ولجأ بعضهم إلى حوران وظلوا على هذه الحال حتى امتنع الحكام عن تعقبهم ومضايقتهم وبدأ البابا بالالتفات اليهم . ثم ان ملوك فرانسَا نظروا إلى خدماتهم في القرن السابع عشر وارسل لويس الرابع عشر اليهم منشورا يبسط فيه حمايته عليهم وفعل لويس الخامس عشر فعلة ايضا فعد الموارنة انفسهم من جملة الفرنسيين وهم إلى هذا اليوم يكرمون هذه الدولة ويمجونها مجاً كبيراً ويتظاهرون بالانتماء اليها ولقنصل فرانسَا نفوذ وكلمة في بلادهم

✽ حكام لبنان ✽

ولما انقرض آل معن طلب الدروز ان يحكم بلادهم الامراء الشهابيون وكان آل شهاب من اشهر امراء العرب يتصل نسبهم بقريش والنبي محمد ولهم في حوران سطوة وسيادة من ايام فتح دمشق على يد جدهم خالد المعروف باسم « سيف الله » . واعطاهم السلطان نور الدين الولاية على حاصبيا وراشيا ومعظم اهلهم من الدروز فحكموا بالعدل والانصاف وجمعوا قلوب الناس على ولائهم وهم الذين حاربوا الافرنج واخرجوهم من وادي التيم . وكان الدروز من اول الامر يحكمون انفسهم او يولون عليهم امراء من المسلمين لهم التصرف المطلق في بلادهم ولكنهم يؤدون الجزية للسلطان وحاول الاتراك ان يحكموهم راساً فلم يفلحوا ولما رأى الذين في الاستانة ان الدروز

والنصارى في لبنان يتحدون عليهم كما ارادوا قضاء امر وعلموا ان طائفة
الموارنة تزدد تقدماً ونموً عاماً بعد عام جعلوا همهم امتلاك الطائفتين
بزرع بزور التضامن والعداء بينهما وظلوا على هذه السياسة إلى اليوم
فنجحوا فيها وظهر من نتائجها الحروب الهائلة التي سنأتي على ذكرها في
الفصول القادمة والمذابح الفظيعة وساعد الاتراك على هذه السياسة
اعتراف بعض الامراء الشهابيين دين النصرانية في سنة ١٧٥٦ و تسلط
كهنة الموارنة على عقول هؤلاء الامراء حتى صاروا يحكمون البلاد على
ما يريد الاكليروس فاشتد غيظ الدروز وكانت دسائس الاتراك
وتدابيرهم تزيد في الطين بلة حتى ظهر العداء بين الطائفتين وكثر
التعدي وصارت الحرب من الامور المحتمة

وكان لبنان تابعاً في حكومتهم لوالي عكا التركي فجعل الولاة همهم
قسمة هذا الجبل بعضه على بعض وصاروا يولون هذا الامير اليوم
ويعزلونه في الغد حتى كثرت المنافسة بين امرائه وتعددت احزابه
وهذا هو الذي اراده الاتراك من سياستهم بعينه فانهم كانوا يؤملون
ان يقول الاهالي بعجزهم عن حكم الجبل بانفسهم وعدم قبولهم بامراء
بلادهم ويطالبوا من السلطان ارسال وال تركي عليهم . واشتهر من
بين هؤلاء الولاة بهذه السياسة احمد باشا الجزار والي عكا الذي مات
في اوائل هذا القرن وعرف بظلم يزيد عن ظلم الخاكم بامرهم وقسوة
كان هذا الظالم العاتي ياتي كل حيلة لاثارة الاهالي بعضهم على
بعض ولتحقير امرائهم في اعينهم وله ذكر اسود يذكره كل سوري
بالظلم والقسوة الوحشية اينما سار وكيفما دار

فصل

في احوال جبل لبنان

وكان جبل لبنان على ما تقدم مستقلاً في اموره الداخليّة من يوم فتح الاتراك بلاد الشام في سنة ١٥٢١ على يد السلطان سليم الفاتح ولما كان جبل لبنان في وسط الشام ومركزه الطبيعي يساعد اهله على رد الاعداء والامتناع فيه صار امراؤه عقبة في سبيل هذه الدولة اذا عصاها واحد من الناس فرّ اليه ولطالما حاول الولاة العثمانيون في عكا والشام ان يمدوا سطوتهم الى هذا الجبل فخابت آمالهم ولم يروا طريقة لنوال هذا الغرض غير ايجاد الانقسام والتحزب في لبنان بدل الاتحاد الذي عرف عن اهله فقد كان الدروز والنصارى فيه الى منتصف هذا القرن يعيشون بالولاء والاخاء ولم تحصل بينهم حروب دينيّة مثل التي نكبت بها هذه البلاد التعيّسة من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ حتى ان الاكراد والعرب وغيرهم من طوائف الشام المجاورة لهذا الجبل كانت تستعين بامرائه على الدولة وتلجأ اليه ساعة الحاجة فلم ير الاتراك بدءاً من اضعافه واذلال اهله ولم يخطر ببالهم غير هذه الطريقة التي ذكرناها وهي ان يجعلوا اهل لبنان اعداء بعضهم لبعض ولسوء الحظ نجحت سياستهم وعادت باوخم العواقب كما ستري . ولم تبدأ هذه السياسة بالنجاح الا من بعد رجوع العساكر المصريّة عن

بلاد الشام وعود الاحكام التركية اليها واما قبل تلك الايام فكان امراء لبنان من بيت معن وشهاب وتنوخ لا يحاربون حرباً الا اذا كان الدروز والنصارى فيه يداً بيد ولا يعرفون غير الاحزاب السياسية التي ينضم فيها النصارى الى الدروز وينقسم الدروز على الدروز وهذه غير الحروب الدينية التي اضنت قوام الطائفتين . وحكم الامير بشير شهاب الشهير الذي ظل مولى البلاد حوالي خمسين سنة من سنة ١٧٨٩ الى ١٨٤٠ يشهد بذلك فقد كان هذا الرجل العظيم مسلماً في اول امره ثم اعتنق النصرانية وصار مارونياً ولكن الدروز كانوا ساعده الايمن ولم يستعن بسواهم في حروبه واموره وكان الشيخ بشير جنبلاط وهو اقوى مشايخ الدروز يومئذ واشهرهم اقرب الناس واحبهم اليه يزوره كل يوم ويتفق معه على كل مسألة ولكنهما اختلفا في آخر عيدهما بدسائس الاتراك ولما قتل الشيخ بشير جنبلاط في عكا على يد الجزار المشهور بالظلم وظن اهل لبنان ان ذلك كان بطلب الامير بشير قاموا عليه وشقوا عصا طاعته وكان الدروز والنصارى من جملة العاصين لم يخطر ببال واحد منهم ان يقول ان هذا نصراني وهذا درزي

وعلى ذلك فقد كانت حالة النصارى في جبل لبنان الى عهد تلك المذابح على ما يرام ولم تخل قرية منهم ومن الدروز فكان الدروز يخضعون لمشايخ النصارى والنصارى يخضعون لمشايخ الدروز عن نفس طيبة راضية . ونقدم النصارى في لبنان تقدماً يذكر فبنوا القصور الباذخة والكنائس الكبيرة واقتنوا الارزاق الواسعة وتظاهروا بالنعمة

الكثيرة وظهر منهم الكتّاب والشعراء والاغنياء والفرسان واصحاب السياسة وكان لعقلائهم الكلمة النافذة يسميهم مشايخ الدروز اخواناً لهم ويعيشون معهم على انقى الوداد كل هذا كان في لبنان والمسيحيون في المدن التي يحكمها الاتراك في الحال التي وصفناها في الفصول السابقة وليس بعد هذا دليل على ان الاهالي لم ياتوا كل هذا العداء والجور من عند انفسهم لولا ان يضطروهم الاتراك اليه بدسائسهم المعروفة ومكايدهم الموصوفة

قلنا ان البلاد الشامية لم تر راحةً وهناءً من بعد الفتح التركي حتى من الله عليها بالفرج على يد ابراهيم باشا المصري ابن المغفور له محمد علي باشا والي مصر وكنا نود الاسهاب في هذا الباب ولكن المقام لا يسمح لنا ويكفي ان نقول ان ابراهيم باشا رحمة الله عليه حكم البلاد بالعدل والانصاف والحزم والعزم إلى درجة لم تعرف عن الذين تقدموه من الاتراك . وكان حاكم جبل لبنان الامير بشير شهاب حليفه ومساعداً له فلم يلق من اهل الجبل معارضة تذكر ولما استتب له الامر شرع في تنظيم البلاد واقامة العدل فيها وجعل فاتحة اعماله تحرير النصارى من رق العبودية التي قيدهم بها الاتراك مدة السنين الطوال وابطل الامتياز الذي كان للمسلمين في ملابسهم ومعيشتهم وصير الناس سواء امام المحاكم التي اقامها للفصل في دعاوي الناس وادخل العدد الكبير من اهل الذمة في عداد الموظفين والمامورين فعين منهم الكتّاب والضباط في الجيش والجندرمه والحكام والمعاونين من كل الاصناف ولما هدا روع البلاد وارتفع الظلم عاد إلى المدن

عدد كبير من النصارى الذين هربوا منها إلى جبل لبنان فعاشت تلك المدن بعد الموت وعم الأمن وساد الصلح والاصلاح ودار دولاب التجارة فتقاطر الافرنج إلى مدائن السلم المعروفة بنوع اخص وكان البلاد كانت في الجحيم فانتقلت إلى النعيم وفي حالة النزع فمن الله عليها بالشفاء على يد ذلك البطل الهام . وكان المرحوم محمد باشا شريف والياً على بلاد الشام من قبل الامير محمد علي صاحب مصر فجرى على خطة مولاه من الاصلاح والعدل وارى الاهالي من آيات الانصاف ما لم يسمعوا بمثله في سابق الايام وبنى لنفسه القصور وغرس الحدائق في الشام واقام الآثار التي ورثها اولاده من بعده على ان البلاد التي تعودت الاحكام الفاسدة والاهمال في صوالح العباد والانقياد للغرض بدل الحق رأت في هذا الانتقال السريع امراً غريباً حجب إلى بعض اهلبا الثورة والعصيان . وكان المشايخ الذين جاروا بالعباد في عهد الحكم الاتراك لا يقدرّون على ما تعودوه من آيات الظلم والاستبداد في اهل البلاد مدة حكم الدولة المصرية فلم يرق لهم هذا الحرمان من سلطتهم القديمة . ثم ان بعض المسلمين لما رأوا مع ابراهيم باشا العمال والقواد من الافرنج والمسيحيين من اهل بلادهم ظنوا ان حكومتهم تخالف قواعد دينهم ولم يرضوا عن هذا الانصاف بعد ان كان المسيحيون عبيداً لهم يذلّونهم كيف شاؤوا ويستحلّون دمائهم واموالهم فاظهروا التذمر وبدأوا يحسنون لغيرهم من الناس العود الى حكومة الاتراك وساعدهم على ذلك دسائس الاتراك الذين رأوا الملك يروح من قبضتهم وابراهيم باشا الاسد الغضنفر يتقدم

من بلاد الشام غازياً فاتحاً حتى اوشك ان يصير هو السلطان في المملكة العثمانية . ومن غريب الامر ان اهل البلاد عن بكرة ابيهم بدأوا يشعرون بامرٍ يكرهونه في دولة ابرهيم باشا مع كل ذلك العدل والانصاف ذلك ان الحكومة المصرية كانت تطلب الشبان للانتظام في سلك جيشها من كل الطوائف ولم يكن لها بد من ذلك لقاء ما ارادته من فتح البلاد التركية فهاج الاهالي من جرى ذلك ومانعوا في الامر مما نعة كبرى وقام النصارى على الذين حرروهم من ربطة الاستعباد واتفقوا مع الدروز على محاربة ابرهيم باشا واعوانه لانهم عاشوا الاجيال الطوال تحت حكم الاتراك ولم يؤخذ منهم اولادهم ليحاربوا مع الدولة في الانحاء القاصية فكانوا يؤثرون كل ظلم وجور على هذا الامر . على ان هذا لم يرع البطل ابرهيم باشا فانه شدد الوطأة على المعاندين والمعارضين وانتصر عليهم بقوة سيفه وبدد شملهم في انحاء كثيرة من بلاد الشام وظلّ الدروز مدة طويلة يحاربونه في وادي التيم وحوران بعد ان خلدت البلاد إلى السكون واطاع الناس حكمه واشتهروا بما اظهروه من البسالة في محاربة العساكر المصرية مع انهم كانوا اقل عدداً وانتظاماً من عساكر ابرهيم باشا ولم يكن لديهم من السلاح ما كان في حوزة الجيش المصري . على انهم خضعوا بعد العناد الطويل وبطش بهم ابرهيم باشا في حوران ففروا من وجهه وعاد البعض منهم إلى لبنان فصاروا يقلقون العساكر المصرية بالمناوشات المستمرة حتى اذا رأوا ان هذا العداء لا يفيدهم في شيء سكتوا عن الحرب وهذا روع البلاد وانتظمت الاحوال ولم تر بلاد الشام هناء

وعداً مثل الذي رآته في أيام ابرهيم باشا ولو ظلت البلاد في قبضة الدولة المصرية إلى الآن لكانت في مقدمة البلدان الشرقية الناجحة في العلم والصناعة والتجارة

ولكن الزمان اقسى من الأيرج الشام ولا ينصف أهلها فان انكلترا رأت ان تعيد هذه البلاد المسكينة إلى الاتراك وساعدتهم على ذلك فجاءت عمارة من بواخرهم ومراكب تركيا والنمسا في اوائل عام ١٨٤٠ إلى بيروت لمساعدة الاتراك على اخراج جيش ابرهيم باشا من الشام وردة عن بلاد الاناضول بعد ان وصل إلى ابواب الاستانة وكسر جيوش الاتراك وقلّ جمعهم في كل معركة وفروا من وجهه حتى صار على وشك امتلاك عاصمتهم الاستانة . ودار عمال الاتراك في البلاد ينفثون سم نفاقهم ويمهلون على خراب البلاد بحيلهم ودسائسهم ويرغبون الاهالي في العود إلى قبضة دولتهم فوافقهم على ذلك بعض الجهال المغرورين والعدد العديد من المشايخ الذين كانوا يظلمون الفقراء في ايامهم ولم يتسنّ لهم ذلك مدة الاحكام المصرية وقامت البلاد مع الاتراك والانكليز لمحاربة الجيش المصري فلما رأى محمد علي باشا ان قوته لا تكفي لمحاربة تركيا وانكلترا وان فرنسا التي كانت تعدّه بالمساعدة لم تف بوعدها وتركته ساعة الحاجة مع انها كانت تغريه على معاداة الانكليز ومناوأتهم اضطرّ إلى التسليم بمطالب الدولة الانكليزية والرجوع عن املاك الدولة التركية وعلم ان الاغترار بمواعيد الفرنسيين والاتكال عليهم ساعة الشدة من آيات الجهل المبين فعاد عن بلاد الشام وسواها وعادت الامور إلى ما كانت

عليه وزاد البلاء لاسباب ذكرناها واخرى سوف نذكرها
وكأن الاتراك لما عادوا إلى امتلاك الشام رأوا ان يعوضوا ما
فاتهم في السنوات التسع التي حكم فيها رجال الدولة المصرية فبالغوا
في تحقير المسيحيين وانماء اسباب البغضاء بينهم وبين المسلمين وكانت
الحزازات في الصدور من ايام ابراهيم باشا لانهم ظنوا ان النصارى
تجاوزوا حدود الادب في طلب المساواة بالمسلمين وحسدوهم على تقدمهم
في المراكز الاميرية وفي صناعتهم وتجارتهم واضمروا لهم سوء وساعدوهم
على ذلك تحريض الاتراك لهم سرا وعلنا . واضطر المسيحيون في المدن
إلى العود لما لبسهم وحالتهم القديمة وكثر التعدي عليهم من الرعية
والحكومة وصارت حالتهم شديدة الضنك وانبث العمال الاتراك في
كل ناحية يحرضون الناس على معاداة النصارى كأنما هم عولوا مدة
غيبتهم على اتباع هذه السياسة وابقاء البلاد على الحزب والتعصب
حتى اذا عاد ابراهيم باشا او غيره إلى الشام وعصاهم بعض اهاليها كان
البعض الآخر معهم بداعي الحقد والحسد والتعصب الديني . كل هذا
كان يجري وضباط الانكليز في البلاد لم يبرحوها فكان الذي يشكو
امره اليهم ويعرفهم بمحكايتهم ينصف في الحال ولكن الاهالي لجهلهم
وعدم علمهم بالامور كانوا يظنون ان الانكليز والاتراك سواء ومع ان
رجال الدولة الانكليزية هم الذين ساعدوا الاتراك على العود إلى
امتلاك البلاد فلم يفتأ الاتراك مدة وجود الجيش الانكليزي في
الشام يفهمون الاهالي بكل حيلة انهم انجس الناس وارداهم واكثرهم
ظلمًا وكان الموارنة لسوء حظ البلاد وحظهم يعملون الناس ان هؤلاء

الانكليز كفار ليسوا على دين مارون يجب على ابناء الطائفة المارونية ان يقاوموهم ويضادوهم اينما حلوا حتى انهم لما التجأ بعض مشايخ بيت الخازن الى جناب الاميرال ناير قصد انصافه من الظلم نعموا عليه وجاهر بطيريرتهم بعدوانه وضادوه بكل ما في قوتهم واتفق معهم الاتراك على مضادة الانكليز الذين احسنوا اليهم كل ذلك الاحسان فكافأوا معروفهم بالخيانة وقابلوا مروءتهم بالكفر وردوا جميلهم بالدسائس والاكاذيب لاسباب لا تخفى على اللبيب ولو رزق الله ابناء البلاد عقلاً في تلك الايام لافهموا الدولة الانكليزية ما نابهم من الظلم على يد الاتراك بدل ان يوالوا الاتراك على اخفاء الحقائق عنهم ولكنهم سعوا الى حنقهم بظلمهم وظهر من نتيجة جهلهم بعد ذلك بمدة قصيرة من المذابح والاهوال ما يشيب لهوله الاطفال

وكان سفير الانكليز في الاستانة يومئذ اللورد ستراتفورد دي ردكلف رجلاً حازم الرأي كثير الفطنة محباً للخير شفوفاً على النصارى المظلومين يعرف عن الاتراك كل ما تبهم معرفته فارسل امرأاً الى عمال دولته في بلاد الشام يقول فيها ان دولتهم عاونت جلالة السلطان على امتلاك البلاد التي ضاعت من قبضته لانها تنازع كل نخلاس ياخذ من بلاد السلطان شيئاً ما دامت الدولة حليفها وينهاهم فيه عن التداخل في شؤون البلاد ويعلمهم ان يوم رحيلهم عن الشام قريب ويقول في آخر المنشور انه اذا قدمت لهم شكوى من احد الاهالي فعليهم بعرضها على حاكم البلاد التركي واخطارها بها في الاستانة فكان كلما جاءه خبر مظلة يسعى برفعها في الحال ولو طال مدة وجود

العساكر الانكليزية في بلاد الشام كانت البلاد في خير ونعمة ولكنها
تبعث الجنود المصرية وتركت البلاد والعباد للاتراك يعيشون فساداً
ويظلمون ويبغون

ثم تحولت الانظار الى نوع حكومة لبنان فعاد الاتراك الى نعمتهم
القديمة وطلبوا ان يكون الوالي عليه منهم فعارضتهم الحكومة الانكليزية
في ذلك واضطرتهم الى اعادة الامر الى الامراء الشهابيين ظناً منها
بان ذلك يعود ببعض الخير على النصارى ويمنع دخول المفاسد والمظالم
التركية الى لبنان وكان الامير بشير شهاب الشهير الى ذلك الحين
حاكم لبنان الرسمي فرأى اولياء الامر ان بقاءه على الامارة لا يجوز
لانه كان واولاده في خدمة ابراهيم باشا فطلب اليه ان يسلم نفسه
للسلطان ففعل ونفى الى مالطة ولذلك يعرف باسم الامير بشير المالطي
الى اليوم وعين بدله الامير بشير قاسم شهاب فسرّ النصارى تعيينه
وساء الدروز لان آل شهاب كانوا قد اعتنقوا الدين المسيحي واظهر
امراؤهم في آخر الامر كرهاً للدروز وعزماً على ابطال سلطة مشايخهم
وخصوصاً في آخر ايام الامير بشير المالطي الذي اذاقهم المرّ والاهوال
بعد ان كان صديقهم لا يعمل الا برأي زعيمهم الشيخ بشير جنبلاط .
والامير بشير هذا هو الذي كان السبب في قتل الشيخ بشير جنبلاط
وهو الذي خرب دياره ودك حصونه واخذ امواله وفعل مثل هذا
الفعل ايضاً في مشايخ بيت ابي نكد وبيت العماد وهم من مشايخ الطبقة
الاولى في طائفة الدروز . ولوان الامير الجديد احسن السياسة
لكان خضوع الدروز لاحكامه من الامور السهلة ولكنه اشتهر بالقوة

والنظاظه في معاملته لا كابر الدروز وجعل يهينهم ويشتمهم كما حضروا اليه في امر ويتوعدهم بسلخ املاكهم ونزع كل سلطة منهم ويعاملهم معامله لا تطيقها نفوسهم ولم يتعودوها من قبل ذلك الحين . فهاج من جراء ذلك الدروز هياجاً كبيراً وجعلوا يتشاورون في الامر ويعملون على شق عصا الطاعة لا سيما وقد كثر عليهم الطلب بجمع المال الكثير لسد جوع الحكومة التركية وعملها الذين ما صدقوا ان عادوا إلى امتلاك الشام حتى صاروا يبحثون عن كل وسيلة تمكنهم من اشباع بطونهم واخذلاس اموال الناس وتخطف امتعتهم وحرمانهم من لذة العيش ولم ير الامير الجديد بداً من تلبية طلب الولاة الاتراك وجمع الاموال المطلوبة قياماً بتعهده في جمع الاموال ومحافظة على مركزه لانه كان يعلم ان الذي لا يشبع بطن الاتراك لا يبقى على الحكم زماناً في دولتهم . وبدأ الناس يشعرون بثقل الحمل الذي عاد إلى ظهورهم ويرون الفرق بين حكومة الاتراك وحكومة ابراهيم باشا حتى ان بعضهم جعل يخبر في اعادة السلطة المصرية ولكن ذلك امر ضاع من قبضتهم لم يحافظوا عليه في حينه بل اغتروا بدسائس الاتراك وانقادوا لحيلهم فوقعوا في شر جهالهم وعدم تبصرهم

وفي هذا الحين بدأت الدسائس الدوائية تهيب البلاد للثورة والحرب فبينما كان الاتراك يهيمون الدروز على النصارى والنصارى على الدروز قصد الانتقام من الطائفتين وصيرورة الجبل إلى قبضتهم رأت الدولة الافرنسية ان آملها خابت في بلاد الشام مرتين على يد الانكليز مرة طردت عساكرها منها على عهد نابوليون بوناپارت ومرة

عاد ابراهيم باشا عنها وكانت هي العضد الوحيد له بين دول اوروبا ولهذا رأت ان تعمل على تقوية حزبها وزيادة نفوذها توصلاً الى امتلاك البلاد بقوة هذا الحزب ومساعدته في احد الايام ولما كان الموارنة ينتمون اليها وهم تحت حمايتها كما تقدم صار قناصل فرانساً يروحون ويحيئون الى دار البطريرك الماروني ويخبرونه في ما يريدون وارسلت اليه الدولة الافرنسيّة في ذلك الحين نصف مليون فرنك لينفقه في سبيل غاياته وغاياتها وكان ارسال هذا المال على طريقة عناية فعمل الموارنة يفتخرون بالامر ويتباهون بمساعدة فرانساً لهم ويقولون انهم سوف يسمحون الدروز سحقاً وينزعون كل سلطة من ايديهم وكان الامراء الشهابيون قد صاروا تحت سلطة البطريرك واعوانه وبدأوا بمساعدته على ما كان ينوي من مدّ نفوذه ونفوذ فرانساً ولكنهم لم يعلموا بالدسائس الافرنسيّة الا بعد حين . واصدر بطريرك الموارنة في ذلك الحين منشوراً الى اهل طائفته شدد عزائمهم فيه على المجاهرة بالعدوان اذ امرهم بانتخاب اثنين منهم في كل قرية يكونان مسئولين لدى الحكومة عن كل اعمالها ويقضيان في كل مسائلها فقابله النصارى بالتهليل والتكبير وضرب البنادق وفرحوا لنشره فرحاً زائداً وبالغوا في اظهار السرور والشماتة ومشايخ الدروز امامهم ناظمون على ضياع السلطة منهم يحسبون الحساب لقيام القوم عليهم لان هذه السلطة كانت مخصصة بهم ورثوها عن آباءهم واجدادهم فاشتدّ النفور وبلغ العداء حده وكان ذلك مقدمة المذابح الهائلة والفظائع المنكرة والدسائس الدنيئة والامور الرديئة التي ظلت تعمل في بلاد الشام

حوالي عشرين عاماً وانتهت بانتهاء حوادث سنة ١٨٦٠ التي
سيأتي ذكرها

ولحظ قناصل الاجانب في بيروت ان الدسائس التي ذكرناها
ستؤول إلى الحرب يوماً فحذروا واندروا وبعثوا إلى دولهم بواقعة الحال
ولما سئلت الحكومة التركية عن تلك الامور انكرتها وادعت ان الامن
مستتب وان البلاد في هناء ورخاء لم تر نظيرها وكانت تخشى ان
تعرف الدول مكايدها وسوء ادارتها فتعود إلى مساعدة الدولة المصرية
او غيرها وتسليخ البلاد منها فتجاهلت سر الدسائس التي كان عمالها وعمال
فرانسا يلقونها وبعثت إلى كل حاكم في بلاد الشام ولبنان بنوع اخص
تأمرهم بكتابة التقارير الكاذبة عن راحة الاهلين وسكون البلاد
ونجاحها في ظل الدولة التركية ونقول ان الناس على اختلاف اديانهم
واحوالهم يشكرون الله الذي خلصهم من يد الحكومة المصرية ورحمهم
بعود الدولة التركية وشدت على الحكام باكره الناس على ختم هذه
التقارير وبنوع اخص في بلاد النصارى فدار العساكر في كل صوب
على الناس يضطرونهم بالضرب والحبس والتعذيب والاهانة او بالتعليق
والتمويه والحيلة إلى ختم هذه الاوراق فخنموها وقدمتها تركيا للدول
دليلاً على تعلق الناس بها وحسن ادارتها . وهذه عادة متمكنة في
الاتراك يظلمون الناس ويستحلون دمائهم واعراضهم واموالهم ثم
يدورون على الباقيين منهم ليخنموها لهم على التقارير الكاذبة القائلة
بسرور الناس من عدلهم وسوف نجيء على ذكر هذه التقارير في ما
يلي وننقل بعضها بالحرف الواحد مع الكتب التي صحبتها للحكام حتى

يرى القارئ كيف نتصرف هذه الدولة بالآمنين في ظلها وكيف
تخدع الذين يطالبونها بالعدل من اهلها

قلنا ان القناصل بعثوا بالتقارير إلى دولهم ولم تجد نفعاً لان
الاتراك ابرع الناس في الاخلاق والتمويه وتضليل العقول واخفاء
الحقائق فسدلوا الستار على قبايحهم في الشام واقنعوا اوروبا بصحة تلك
الاسماء والاخنام . الا ان بعض الوكلاء ظلوا يحذرون دولهم من
عاقبة تلك الادارة السيئة وكان في مقدمتهم قنصل دولة روسيا
وقنصل دولة انكلترا وهو يومئذ الكولونل روز البطل الشهير الذي
يرن ذكره في جوانب الشام إلى هذه الايام ومن ضمن ما قاله هذا
الرجل العاقل ما ترجمته بالحرف الواحد « ان سوء الادارة التركية
واجتهاد عمال السلطان في زرع بذور الشقاق والشحناء بغية ايقاع
الطوائف بعضها ببعض واكتساب النفوذ من هذا التنافر صار إلى
درجة يخشى معها من حرب تروح فيها الارواح بلا ثمن . ثم ان
اكليروس الموارنة يظهرون ان في نيتهم امتلاك السيادة في لبنان
ولو ادى ذلك إلى الحرب » وكانما هذا الرجل كان نبى بالامور
السوداء التي قرحت الآماق وطبقت بذكرها الافاق وادت إلى ضياع
الارزاق وقطع الاعناق والعناء الذي حل بالباقيين بعد تلك المذابح
من فقد الاهل والرفاق . امور لا تطاق وشروع نهى عنها الحكيم الخلاق
كل هذا والدروز الذين نكلوا بعدئذ باعدائهم لم يحركوا ساكناً
ولم يظهروا غير حب البقاء على حالهم الاولى فصاروا ينظرون إلى هذه
الامور ويحسبون الحساب للمستقبل ويتهاون للدفاع او للحرب واما

النصارى فاسكرتهم جرأة البطريك ومساعدة الامير بشير لم ولم ينظروا في الغيوم التي كانت تتأبد فوق رؤوسهم . وباليتمهم اقتصروا على معاندة الدروز واكتفوا بذلك ولكنهم حاولوا قتل كل من لم يكن على معتقدهم فاغروا الامير بشيراً على قفل مدارس الانكليز والامير كان في الجبل ومع ان نعمان بك جنبلاط سار إلى بطريكهم ورجاه ان يساعده على ابقاء هذه المدارس لنفع الاولاد من الطائفتين فلم يقبل بغير ما رآه وكان يومئذ مطران بيروت الماروني عند البطريك فقال لنعمان بك انه سوف يبطش بكل درزي ويخضع كل هرطوقي عن قريب لارادته فعاد نعمان بك وهو من اشرف اشراف الدروز وقص الحكاية على اعوانه وذويه فامتلات الصدور غيظاً وحنقاً ولم يعد في امكان الدروز الصبر على كل ذلك العدوان فعمدوا إلى مكاتبة اهل طائفتهم بالامر وطلبوا إلى كل درزي ان يكون على اهبة الحرب اينما كان وهذه عادتهم في الملمات ينضمون إلى امره مشايخهم ويتحدون على اعدائهم وما نجحوا الا بهذا الاتحاد وهذا الانقياد الغريب لرؤساء طائفتهم وما عرف عنهم من البسالة وحب الحرب والمقدرة على احتمال مشاقها واهوالها

وكأن البطريك آلى على نفسه ان يكون السبب في الحرب وسفك الدماء فاصراً في تلك السنة على عدم دفع الاموال الاميرية عن الموارنة حسب العادة وهو يعلم ان غاية الاتراك من حكم البلاد جمع اموالها وبدأ رجال هذه الطائفة يقولون في انفسهم ان ليس للسلطان حق في جمع المال منهم وكان الدروز في ذلك الحين اكثر الناس

ميلاً إلى تلبية مطالب الدولة لانهم خافوا ان تنصر النصارى عليهم مع كثرة عددهم وارادوا ان يستميلوها بهذا الخضوع تخلصاً من سيطرة البطريك عليهم وفراراً من غيظها ففعلوا بذلك فعل الحكماء العاقلين وظهر الفرق بينهم وبين اخصامهم الذين ساكوا مسلك التهور والعداء المفسر . ثم ان الدروز جعلوا يخنمون اعراضاً إلى الباب العالي مآله انهم اكثر الناس ميلاً إلى طاعة السلطان خلافاً لخصامهم وانهم حاربوا مع سلاطين المسلمين في كل الحروب وذكروا ما كان من مقاومتهم لابراهيم باشا في المدة الاخيرة وطلبوا الى الباب العالي في آخر الامر احد امرين اما ان يولي على الجبل واحداً من امرائهم او ان يرسل والياً تركياً عليه من الاستانة وكانوا يعلمون ان الاتراك يبذلون النفس والنفيس في سبيل تحقيق هذه الامنية . وظن الدروز بذلك انهم يستريحون من حكم البطريك والامير بشير قاسم وما حسبوا ان الاتراك مع ما اشتهر عنهم من الميل إلى وضع اليد على الجبل كانوا يؤثرون في تلك الاحوال ان تبقى اسباب الجفاء والمباغضة وان تبطش احدى الطائفتين بالاخري وهي قاعدة نتفج عليهما حتى اذا ضعف الجبل من وراء الحرب الاهلية وظهر للملا عدم كفاءة الحكم اللبنانيين لادارة شؤون جبالهم عمدت إلى تحقيق رغبتها وعينت عليه احد طغاتها

واشتد الكره بين الطائفتين لسبب آخر علتة التعصب الديني ايضاً ذلك ان الموارنة اكتسبوا في ايام الامير بشير الكبير نفوذاً عظيماً حتى انهم داسوا حقوق الروم والبروتستانت وغيرهم من الطوائف

الآخري التي لم توافقهم على مذهبهم . ولما علم بطريقهم ان الانكليز قادمون مع جيوش الاتراك في سنة ١٨٤٠ إلى بلاد الشام اسرع إلى تلبية قنصل فرانسفاعلن ان الانكليز اكفر الكافرين وحرم كل واحد يخلط بهم اقل اختلاط وقال باطفاء عيني كل نصراني يرى بعينه مراكبهم . وكان الامير بشير قاسم مثل سلفه بطاعة الموارنة فلما اقام عساكر الانكليز مدة في لبنان سرى بين الدروز اعتقاد انهم من آل حمزة وكان الباعث على هذا الاعتقاد بعض اكابرهم الذين رأوا ان يحالفوا الانكليز على الموارنة وصار الدروز من ذلك اليوم اصدقاء الانكليز ورجلهم في بلاد الشام وانتهت انكساراً إلى هذا الامر فرضيت عن توددهم وصيرتهم حزبها في البلاد وصار قنصل فرانسفا من ناحية والبطريك من ناحية أخرى يحثون الناس على كره الانكليز وكل من والاهم فكان ذلك باعثاً على زيادة التضامن بين الدروز والموارنة على ما تقدم

واخيراً ظهرت نتائج كل هذه المقدمات وبدأت الحرب . وكان ابتداء القتال في اليوم الرابع عشر من شهر سبتمبر سنة ١٨٤١ ولم تسترح البلاد منه من ذلك اليوم إلى ان مرت عشرون سنة كانت البلاد فيها فوضى والطائفتان في نزاع مستمر . وتحير الخبر ان بعض شبان دير القمر نزلوا إلى الوادي الفاصل بين بلدتهم وبين قرية بعقلين ودخلوا ارضاً لشيوخهم ناصيف بك ابونكد فاصطادوا فيها طيراً وقام لهم الحراس الدروز من اتباع ناصيف بك فاسعواهم ضرباً ولكمما وطردوهم من الارض ولما عاد هؤلاء الشبان إلى دير القمر وآثار الضرب ظاهرة

عليهم هاج ذووهم واصحابهم واسرع نحو ستين رجلاً منهم الى مكان
 الخصام وبدأوا باطلاق النار على الدروز وكان هؤلاء قد احسوا
 بان النصارى بعثوا إلى دير القمر يطالبون المدد ففعلوا فعلهم وجمعوا
 حوالي مائتي رجل وانتشب القتال بين الفريقين فقتل من النصارى
 خمسة رجال وجرح ثمانية وقتل من الدروز ستة عشر رجلاً وجرح ستة
 عشر آخرون وكان الدروز يتجمعون من القرى المجاورة على رجال النصارى
 حتى بلغ عددهم حوالي ستمائة رجل ورجال دير القمر من النصارى
 يتأهبون لمعاونة اخوانهم فحدث من حسن الحظ ان الكولونل روز
 قنصل انكلترا العام وقتئذ كان ماراً في تلك الانحاء وسمع بالامر
 فاسرع من فوره إلى محل القتال واستعجب معه شيخاً من مشايخ
 الدروز حتى اذا وصل القوم ورأى الرصاص يطلق من الجانبين دخل
 بين الصفين مخاطراً بحياته ورفع يده للقوم فعرفوه من الناحيتين وصار
 يصرخ فيهم ان ابطلوا القتال واسمعوا قولي فرضخوا لشارته في الحال
 لانه كان رجلاً مهيباً عظيم القدر معروفاً بالعدل والبأس في جميع
 انحاء البلاد وبطل القتال فتقدم الكولونل روز الى زعماء الطرفين
 واقنعهم بوجوب المصالحة فتصالحوا وعاد كل فريق إلى محله وقد دهل
 الجرح على دغل وكانت هذه اول مواقع الحرب العظيمة التي لم تطفأ
 نارها الا في سنة ١٨٦١

وكأن النصارى آلوا على انفسهم ان يجلبوا على ذاتهم كل اشكال
 البلاء ففعلوا يتعرضون للدروز ويعتدون عليهم في انحاء أخرى من
 البلاد في حين ان البطريك الماروني وعماله كانوا يأتون كل حيلة

للتسلط عَلَى العقول واستلام الاحكام وسحق الدروز وابطال امتيازاتهم
فجعل الدروز يتأهبون للقتال الشديد ودارت المخابرة بين مشايخهم في
كل اطراف البلاد وامتألت المسالك برسلم الداهبين والايين وهذه
عادتهم يتفقون سرًا عَلَى نوع القتال واحواله قبل الشروع فيه بين ان
اعداءهم يقصدون من غير استعداد فياخذونهم عَلَى حين بغتة
ويفاجئونهم بكل بلاء شديد . قلنا ان النصارى اعندوا عَلَى الدروز من
بعد الحادثة الَّتِي ذكرناها ذلك انهم قتلوا ثلاثة من الدروز في جزين
ذهبوا اليها من قبل آل جنبلاط ليجمعوا اجر املاكهم واراضهم منها
وكان الدروز قد تأثروا من قتل الذين وقعوا في المعركة الَّتِي ذكرناها
وبينهم اربعة من بيت عماد وهم عائلة شهيرة تقرب من بيت جنبلاط
في الوجاهة ولها شهرة عظيمة في البسالة فجعلوا يعتدون عَلَى النصارى
ايما وقعوا بهم حتى انهم القوا الرعب في القلوب وارتكبوا اكثر من
اربعين جريمة ما بين قتل ونهب في مدة شهر واحد حتى صار انتشاب
الحرب العمومية من الامور المحتمة ولكن لم يخطر ببال النصارى وقتئذٍ
ان الدروز قضوا ذلك الشهر كله في الاستعداد والاهب وضم قواتهم
بعضها إِلَى بعض من كل الانحاء وهم ساهون لاهون حتى اصبحوا في يوم
١٣ اكتوبرات ١) من سنة ١٨٤١ اوراءوا بلدتهم — دير القمر — محاطة
بالدروز من كل جانب فكثرت القلق وساد الاضطراب ورأى الناس
الموت عَلَى مقربة منهم فكانوا يسمعون اناشيد الدروز ويصرخون من
الخوف ويتوجعون من الاضطراب واولادهم ونساؤهم يبكون بكاءً
يفطر المرائر فتجمعوا بسلاحهم الكامل واقفروا عَلَى المقاتلة من داخل

اسوار البلدة وظلوا فيها اربعة ايام ينتظرون هجوم الدروز عليهم والقلوب
ترتجف من الخوف اذ كانوا يرون اعدائهم يحرقون المزارع والمنازل
المجاورة للبلدة وينهبون كل ما فيها وهم لا يجسرون على الخروج اليهم
لكثرة عددهم وانتظام جيوشهم تحت قيادة المشايخ من بيت ابي نكد
وعماد . وكان الامير بشير قاسم حاكم جبل لبنان في دير القمهر وهو
عدو الدروز يرى بعينه تلك الامور ولا يجسر على قول ولا عمل حتى
زاد الكرب واشتد الضيق واحترقت كل املاك النصارى في خارج
البلدة وقتل كثيرون منهم ممن كان ساكنًا في مزارعها او قادمًا اليها
من سفر وانقطع ورود الماء الى مطاحنها بتدبير مشايخ الدروز فتقدم
وجوه النصارى إلى الامير وسالوه ان يبدي رأيًا او يأتي فعلاً وينع
فتك تلك الجموع بالنصارى اذا امكن له ذلك فارسل الامير محمودا
ابن الامير بشير الكبير يرجوهم ان يرجعوا عن البلدة وان يخبروه
في ما يريدون وهو يخرج اليهم إلى عين السوق اذا شاءوا فلم
يسمعوا له قولاً ونقدموا على المدينة وكان في داخلها اناس منهم من
بيت ابي نكد وهم اصحاب دير القمهر واسيادها من عهد بعيد كانوا
في بيوتهم لا يخرجون منها مع كل ما حدث من الامور إلى ان رأوا
اشارة من معسكر الدروز فصاحوا في الحال جذلاً وهجموا على من
كان معهم في دير القمهر من النصارى مع الذين كانوا كامنين في
بيوتهم من اعوانهم فقتلوا اربعين نفساً واقتوا البلدة بصياحهم وهجومهم
وكان الدروز المحيطين بالبلدة في ذلك الحين يتقدمون عليها ويضرمون
النار في بيوتها فلما رأى النصارى الويل محققاً بهم من داخل بلدتهم

ومن خارجها اضطربوا اضطراباً لا نظير له وصار النساء والاطفال
يركضون هرباً من فتك الدروز بهم والرجال يتجمعون في اواسط
البلدة ليتمكن لهم الدفاع عن انفسهم وقد رأوا المنية بعيونهم وايقنوا ان
الآخرة جاءت فعزموا على الدفاع حتى يقتلوا عن آخرهم وتركوا الدروز
يحرقون وينهبون في البيوت والمخازن المتطرفة فانحصرت قوتهم في
الميدان الكائن في وسط المدينة وبينما هم على وشك الشروع في اطلاق
الرصاص اذ سمعوا بقدوم كبير من بيروت فاطانت خواطرهم وهذا
روعيهم وحمدوا الله على الخلاص من هاتيك الجموع وكان ذلك الكبير
ايوب باشا جاء من قبل الوالي التركي بناء على طلب الكولونل روز
فصل انكثرا الجنرال الذي حضر معه ايضاً بقصد اطفاء نار الفتنة .
وكان هذا الرجل الحازم (الكولونل روز) قد سمع بالحكاية من احد
الفارين في يوم ١٤ اكتوبر (ت ١) سنة ١٨٤١ فقام إلى السر
عسكر والوالي ولم يتركها حتى ارسل معه ايوب باشا هذا وحضرا على
ما تقدم فبطل القتال من ناحيتين

واكن وجود ايوب باشا والكولونل روز في دير القمير لم يفد غير
فائدة وقتية لان الدروز كانوا قد صمموا على القتال إلى ان يفض
بجد السيف كل خلاف وظلّ النصارى في البلدة يرجون ايوب باشا
ان يرجع الدروز عنهم وان يامرهم باعادة مياه المطاحن إلى مجاريها
لان حبسها اضرّ بهم ضرراً كبيراً فامرهم بذلك ولم يطيعوا له امرًا
وظلوا يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى ويحرقون وينهبون
والامير والباشا في دير القمير لا يدرون ماذا يعملون حتى صدر الامر

إلى ايوب باشا بالرجوع إلى بيروت وأرسل مكانه تركي آخر اسمه سليم بك مع قاضي بيروت ومحصلها فلما وصل هؤلاء اصدروا امر السر عسكر سليم باشا إلى الامير بشير بالانسحاب معهم من دير القمر فتراكض النصارى على اقدامهم واعلموهم بالخطر العظيم المحدث بهم فحاول هؤلاء الموظفون ارجاع الدروز عن غيهم ولم يمكن لهم ذلك وكانت فرق الدروز تتوارد على دير القمر من حوران ووادي التيم وكل الانحاء وجيشهم يقوى يوماً بعد يوم والخطب يتفاقم والناس في ضيق شديد من جراء ذلك . وسمع بطريك الموارنة بهذه الامور فقام وقعد وارغى وازبد واقسم انه لياخذن ابني جنسه بالثار ويدود لم الذمار ويحمي الديار وكان مريضاً على سريريه فابى الا ان يقوم لمحاربة الدروز على اكتاف الرجال وبدأ بالاستعداد وجمع الالهة والرجال . واصر مطران زحلة للروم الكاثوليك منشوراً إلى ابناء طائفته يدعوهم فيه إلى الجهاد ويوصيهم بالحرص على نصره الدين ومحاربة الدروز اينما حلوا وينهاهم عن ارتكاب المنكر والتعرض للنساء ولكنه يبيح لهم القتل والحرق والسلب لانه عد ذلك من لوازم الحرب الدينية . والتهبت نيران الثورة في الجبل كله فلم يعد للقوم حديث غير الحرب واشتغلت كل نفس بالاستعداد للهجوم والدفاع

وحصلت مناوشات كثيرة بين الدروز والنصارى في هذه المدة سناتي على ذكرها بالاختصار وكان النصر في اكثرها للدروز ذلك لان النصارى كانوا فرقاً واحزاباً لا تنظم منهم قرية إلى أخرى الا بعد الجهد الجهد ولان الدروز كانوا يدعونهم على غير انتظار منهم

ويأتونهم بقوة تزيد عن قوة القرى التي يفاجئونها بالهجوم . وكانت غاية النصارى الاولى من هذه الحروب الافراج عن دير القمير لانهم سمعوا بمصاب اهلها وكانت هي مدينتهم الكبرى ومركز تجارتهم وحركتهم فجعلوا يهتمون بذلك ويزحفون إلى ناحيتها ولكنهم لم ينجحوا كثيراً لان الدروز كانوا اقوى منهم ولان بعض النصارى من طائفة الروم الارثوذكس كانوا ينضمون إلى الدروز قسراً واضطراً ويحاربون الموارنة . وبعضهم كان يكره الموارنة لتغطرسهم واعتبارهم كل نصراني على غير مذهبهم الماروني هرطوفاً يجوز قتله وسلبه ولطالما قاسى الروم والبروتستانت الاهوال من الموارنة في ايام الامير بشير الاول والثاني فلهذا انضم بعضهم برضاه إلى الدروز والبعض الآخر خوفاً من قوة المشايخ كما تقدم . واخضع الدروز القرى النمرانية كلها في مدة عشرة ايام وحرقوا اديرتها وكنائسها واستولوا على اموالها كما سيجي . كل هذا وجموعهم واقفة حول دير القمير واهلها يستغيثون وليس من يرحم حتى اذا مرَّ على هذا الحال ثلاثة اسابيع طلب مشايخ الدروز الى سليم بك ومن معه من الموظفين ان يأمروا النصارى بتسليم اسلحتهم اليهم وتهددوا البلدة بالدمار وقلع الآثار وسبي الحرائر والابكار اذا لم يجب هذا الطلب بغير ان يضطروا إلى التكرار . فخاف النصارى عاقبة الامر وتراموا على اقدام سليم بك فاضهروا له خوفاً من غدر الاعداء بهم اذا سلموا السلاح ورجوه ان يرسل إلى بيروت بطلب خمسمائة جندي من جنود الحكومة نقيهم شر الغدر فيسلمون لهم السلاح والنفس منهم طيبة فاجابهم هذا التركي ان طلبهم صعب لا يجاب ولم يسمع الناس

إِلَى الْآنَ بِمَثَلِ هَذَا الْجَوَابِ كَيْفَ أَنَّ حُكُومَةَ مَكْلَفَةٍ بِحِفْظِ الْأَمْنِ فِي
بِلَادِهَا تَرَى الْأَهْلِيَّ يَقُومُونَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْعَسَاكِرُ عِنْدَهَا الْوَفَاءُ
مُؤَلَّفَةٌ فَلَا تَرْضَى بِأَرْسَالِ بَعْضِهِمْ لَوَقَايَةِ الَّذِينَ فِي الْخَطَرِ . وَلَكِنْ هَذِهِ
الْأُمُورُ كَانَتْ كُلُّهَا بِأَمْرِهَا وَدَسَائِسُهَا وَسُوفَ يَجِيءُ بَيَانُ ذَلِكَ فِي مَا بَلِي
أَنَّ شَاءَ اللَّهُ . فَلَمَّا رَأَى النَّصَارِيُّ أَنَّ الْمَرْكَزَ حَرَجَ وَأَنَّ الدَّرُوزَ مَصْمُومُونَ
عَلَى اسْتِغْلَامِ اسْلِحَتِهِمْ وَعَرَفُوا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَالِينِ سَيَقْتُلُونَ إِذَا ظَلُّوا عَلَى
الْفَنَادِ طَلَبُوا إِلَى الْمُحَاصِرِينَ أَنْ يَعْطُوهُمْ الْأَمَانَ وَيَتَعَبَّدُوا لَهُمْ بِعَدَمِ
الْإِقْدَامِ عَلَى قَتْلِهِمْ فَيَسْلُمُونَ اسْلِحَتَهُمْ فِي الْحَالِ فَقَبِلَ الدَّرُوزُ بِهَذَا الشَّرْطِ
وَكُتِبَ مُشَايخُهُمْ صُكُوكَ الْأَمَانِ وَهَذِهِ صُورَتُهَا بِحُرُوفِهَا «عَلَيْكُمْ أَمَانُ
اللَّهِ وَرَأْيُ اللَّهِ وَرَأْيُ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَرَأْيُ سَعَادَةِ سَلِيمٍ بَاشَا وَتَمَّ
رَأْيُنَا عَلَى دِمَائِكُمْ وَمَالِكُمْ وَعَرْضِكُمْ» . وَظَهَرَ لِلنَّصَارِيِّ مِنْ نَسَقِ هَذِهِ
الْكِتَابَةِ أَنَّ الدَّرُوزَ يَنْوُونَ غَيْرَ هَذَا الْأَمَانِ وَلَكِنَّهُمْ فَوَضُوا الْأَمْرَ لِلَّهِ
وَسَلَّمُوا اسْلِحَتَهُمْ وَهُمْ فِي هَمٍّ كَبِيرٍ وَقَلَقٍ كَثِيرٍ . وَلَمْ يَمُضِ عَلَى هَذَا زَمَانٌ
طَوِيلٌ حَتَّى أَوْعِزَ الْأَتْرَاكُ إِلَى الْأَمِيرِ بِشِيرَانَ أَنْ يَتْرَكَ الْبَلَدَ وَكَانَ فِيهَا
أَسِيرًا إِلَّا فَائِدَةً مِنْهُ لِأَهْلِيهَا فَرَضِي بِذَلِكَ وَخَرَجَ وَمَعَهُ بَعْضُ أَعْوَانِهِ
فَلَقِيَهُ الدَّرُوزُ فِي الطَّرِيقِ وَأَهَانُوهُ أَهَانَةً كَبِيرًا وَاخَذُوا مِنْهُ سِلَاحَهُ
بِالْعُزْفِ بَعْدَ أَنْ جَرَحُوا أَصَابِعَ يَدَيْهِ وَلَمْ يُسَمِّحُوا لَهُ بِالْمُرُورِ مِنْ بَيْنِهِمْ
حَتَّى اخَذُوا عَمَّتَهُ وَأَكْثَرَ ثِيَابِهِ وَثِيَابَ الَّذِينَ مَعَهُ وَتَرَكَوهُمْ عُرَاةَ حِفَاةٍ
وَاطْلَقَ بَعْضُهُمْ عَلَيْهِ الرِّصَاصَ فَأَخْطَأَهُ وَكَانَ كُلُّ ذَلِكَ بَعْدَ تَعَهُّدِ
الدَّرُوزِ بِعَدَمِ التَّعَرُّضِ لَهُ فِي طَرِيقِهِ وَأَعْطَاهُ الْأَمَانُ بِحُطِّ زَعَائِمِهِمْ وَخَتَمِ
أَكْبَرِ مُشَايخِهِمْ وَلَكِنْ الْقَوْمُ نَسُوا كُلَّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ مَا خَلَا

الاحقاد وما صدقوا ان خرج الامير من دير القمر حتى دخلوها وذبحوا
العدد العديد من اهلها ذبح الغنم حتى ان بعض المشايخ من آل ابي
نكد نكلوا بالذين قضوا العمر في خدمتهم من النصارى ولم يرحموا
كبيراً ولا صغيراً فنفر منهم النصارى نفوراً عظيماً وعولوا من ذلك
اليوم على ان لا يعودوا إلى تحت سيادتهم ولو كفهم ذلك فقد ارواحهم
وقد تم ذلك وسقط بيت ابي نكد العظيم من ذلك اليوم وطردهوا من
دير القمر وهم الآن مثل بقية الدروز مع ما سبق لهم من ايام العز والسود
قلنا ان الدروز قتلوا الذين امنوهم على ارواحهم في ذلك الحين
وداروا على البيوت والمخازن فنهبوها وحرقوها ولم يتركوا على النساء حلية
ولا رعوها لك الامان حرمة ولا اخذتهم على عاجز او طفل شفقة
ووضعوا يدهم على املاك النصارى فصيروها لهم واتواكل موبقة ما خلا
هتك الاعراض فالحق يقال ان هذه الطائفة تراعي العرض وتصونه
في اخرج الاوقات وتوصل اذاها إلى كل نفس وكل شيء ما خلا
النساء وهو فضل ينشرح له الصدر حين قراءة ما تقدم من الفطائع
والاهوال . على ان الذي حدث في دير القمر من المصائب في سنة
١٨٤١ لم يكن بالشيء الذي يذكر في جانب الذي تم فيها سنة ١٨٦٠
وهي سنة الهول والبلاء ولا يقاس بالذي جرى في انحاء سورية في
تلك السنة السوداء ايضاً مما سنشرحه في هذا الكتاب وقد ضاق
الصدر من ذكره قبل ان يجيء القلم على تفصيله

واما الذي حدث في القرى الاخرى اثناء محاصرة الدروز لدير
القمر في شهري سبتمبر واکتوبر من سنة ١٨٤١ فنسرده هنا بالاختصار

الكثير منه الذي حدث في مزرعة الشوف على مقربة من بيروت وهو ان فرقة من الدروز اغارت على القرية فهرب الرجال منهم وكانوا يظنون ان عوائدهم المعلومه تمنعهم من اىصال الاذى إلى النساء فابقوهن فيها وقصدوا جزين لينضموا إلى اهلها فدخل الدروز القرية وحرقوا منازلها ونهبوا ما على النساء فيها واخذوا غلالها ووضعوا يدهم على ارزاقها وانتقلوا منها إلى القرى المجاورة فنهبوا كنيسة وحرقوا ديراً وملكوا كل ما وصلت اليه ايديهم وقتلوا عدة رجال وجرحوا نساء كثيرات . ثم ساروا إلى جزين وكان قد وصل إلى هذه القرية فرقة غير هولاء المهاجرين جاؤوها من جيش دير القمر تحت امره الشيخ سعيد جنبلاط وكان اول فعالة انه ارسل إلى النصارى في القرية يطلب سلاحهم بدعوى انه مفوض من الدولة التركية بذلك فصدقوه وقاموا بامرهم وفي تلك الليلة خان العهد والمروءة وهاجمهم ليلاً فقتل منهم سبعين نفساً وفرّ الباقيون في خوف ورعب عظمين بعد ان نهبت اموالهم وتلفت حاصلاتهم واحرقت منازلهم وتعقبهم هذا الشيخ إلى قرية بكاسين فدير مشموشة فتدين القش فكان في كل بلدة يعد النصارى في اول الامر بالذود عنهم ثم يغدر بهم ويفتك بابر يائهم وساعده على ذلك اناس من المسلمين والمتاوله جاؤا لمساعدته من انحاء صيدا بتخريض الحاكم التركي وكانوا في كل بلدة يقصدون الاديرة والكنائس قبل سواها فينهبونها ويحرقونها ثم يدورون على المنازل فياخذون ما فيها ويحرقونها وكان في جملة القتلى عدد كبير من الرهبان والنساء والاطفال وفعلوا مثل ذلك في عين الجوزة وجرنابا وجرجوع وعبرا والديه وعين

تراز وشرتون والعقوب وبلاد الشحار والجرد وغيرها من القرى في
اقليم جزين واقليم التفاح وكلها قصتها واحدة من الخيانة والفدرثم
القتل والحرق والسلب وما يتبعها من آيات التوحش وفظائع
الحرب الاهلية

وكان الامير بشير قبل خروجه من دير القمر قد رأى ان الدروز
احاطوا به وبيلدته احاطة السوار بالمعصم وصاروا كلهم من اعدائه
فارسل إلى القرى التي يكثر فيها النصارى في السواحل يامرهم بارسال
جيش منهم لمساعدته على الدروز واجتمع فريق كبير منهم في بعدا
والحدث وغيرها من القرى المجاورة لبيروت فيأما بامرهم فاحس بهم
الدروز وجاؤوا لمحاربتهم فكسروهم بعد القتال الشديد بمساعدة عسكر
الأتراك الذي كان واقفاً على مقربة من المتحاربين بدعوى انه يحافظ
على الامن وكان هؤلاء الأتراك اذا رأوا نصرايياً فاراً للاتجاه بهم
او ماراً على مقربة منهم يرمونه بالرصاص فيقتلونه حتى انهم لما فرت
النساء إلى ناحيتهم وكان الدروز قد تركوهن بدون ان يتعرضوا لهن
اتوا مع اولئك الفارئات الخائفات الامور البهيمية المنكرة وقتلوهن
واخذوا ثيابهن عن ابدانهن وعذبوا الاطفال تعذيباً حتى صاح النساء
في الدروز ان خذونا انتم واقتلونا ولا تسلمونا هؤلاء الأتراك . كل
ذلك ورجال هذه الدولة يقولون انهم ارسلوا هؤلاء العساكر ليحافظوا
على الامن ويمنعوا الاعداء وهذه عادتهم في كل حرب للنصارى مع
بقية الطوائف فيفتكون بهم وينصرون الاعداء عليهم وهم الذين يحرضون
الاعداء على قتالهم ويقولون بعد كل هذا ان جيوشهم المظفرة ذهبت

لتحافظ على الامن وتمنع الاعتداء ولم تكن هذه عادة الحكومات في رعيته ولا شيمة الحكام في الذين اقامهم الله للمحافظة على دمائهم واعراضهم واموالهم ولا سمع مثل هذا الغدر وهذا الجور عن سلاطين المسلمين وحكامهم في غير ايام الدولة التركية

ولما مرَّ الامير بشير وهو قادم من دير القمر على الحالة التي وصفناها رأى اعوانه يقتلون ويعذبون والعساكر يفعلون ذلك على مرأى من ضباطهم فهاله الامر ولكنه فطن إلى نفسه وادرك سرَّ الحكاية ففاض الدمع من عينيه على ما رأى من مصاب الامهات والاخوات اللائي كنَّ يندبن القتل وينحن على الاقارب والاحباء وتقطرت مرارته اذ سمع صراخ الاطفال وعويلهم ورأى الدم يسيل من جوانب الاولاد البنات والعاجزين وهم ينتحبون ويطلبون الرحمة من الله ومن عساكر الاتراك وهؤلاء الوحوش الضارية يضحكون لبواهم ويسرون بتعذيبهم وقتلهم فصار الامير المسكين يبكي مع الاطفال والنساء بكاءً مرّاً وجاء إلى قائد تلك العساكر التركية فرجاه باسم الله والسلطان ان يرحم اولئك الابرياء المساكين ويامر عساكره بالامتناع عن قتلهم وتعذيبهم اكتفاءً بالذي فعله الدروز من قبلهم فضحك ذلك الوحش الدنيء من فعل الامير وهزأً بشفتيه وامره ان يسير في الحال إلى بيروت فصار والحرقه ملء الفؤاد

وكان الدروز بعد هذا النصر ينوون ان يتقدموا على كسروان ويفتكوا بالموارنة وبطريقهم فرأى الشيخ نعمان جنبلاط (اخو الشيخ سعيد الذي ذكرناه وابن الشيخ بشير) ان العداء زاد عن الحد ومنع

قومه عما ينوون فعادوا بامرهم ورأى البطريق ان طنطنته لم تفد
ومساعيه لم تنجح وعلم ان الدروز فتكوا بقومه وملكوا البلاد فخاف العاقبة
واراد الفرار بنفسه فخبر في ذلك قبطان احدى البواخر الانكليزية
ورجاه ان يحميه من الدروز وفاته انه كان قبل ذلك بايام قليلة
يحرم كل من يحول نظره إلى مراكب الانكليز ويحلل قتل كل من
والاهم ويعدهم اكفر الكافرين

وسمع قناصل الدول بهذه المجازر فتحققت مخاوفهم وصدق ظنهم في
الاتراك لان معظمهم كانوا يعلمون ان الحكام جعلوا همهم تدبير مكيده
لاضعاف النصارى وتقليل جموعهم في بلاد الشام وجاؤا إلى السر
عسكر سليم باشا الذي كان يدبر تلك الحركات وهو الذي قال بعدئذ
على مسمع من بعض وكلاء الدول ان القلاقل تمت بامرهم وعلمه « وانه
كان يعلم ان نية الدروز الهجوم على دير القمر ونحاصرتها قبل وقوع
الامر باسبوعين » فظهر لهم الاستغراب والنفور من هذه الفظائع وقام
معهم في الحال إلى نواحي بعبداء فاجتمع هناك بالدروز وزجرهم وامرهم
بالتزام السكنينة ولكن القوم كانوا يعرفون القصد من ذلك وعندهم
تعليمات سرية بالذبح والنهب فظهروا الخضوع وما عثم الباشا والقناصل
ان عادوا إلى منازلهم حتى رجع الثائرون إلى اسوار مما كانوا عليه
وانقسموا فرقتين ذهبت احدهما إلى المتن والاخرى إلى البقاع فاما
فرقة المتن فقصدت قرية حمانا وخرج اهلها لطلب الامان من زعماء
الدروز فامنوهم ثم نقضوا العهد على عادتهم ونهبوا البلدة وفرضوا على
النصارى مالا طائلاً وحرقوا الكنيسة ودمروا المنازل وانتقلوا منها إلى

قرية فالوغه وحاصروها وصدف ان حضر في اثناء محاصرتها محمد اغا تفكجي باشي فنادى بالامان عن لسان سليم باشا وطلب سلاح النصارى فسلوه بلا معارضة ثم اجاز للدروز الفتك على ما تقدم فقتلوا بعض الرجال ولم يبقوا على شيء في القرية وكان من جملة المقتولين اثنان من الكهنة وبعض نساء الامراء الشهابيين . كل ذلك مجبور نائب الدولة التركية ورضاه بعد ان حرم النصارى سلاحهم بطرق الغش والخداع وكان هؤلاء اللئام في كل هذه الحوادث ياتون كل حيلة لاختد سلاح النصارى حتى يسهل عليهم الفتك بهم والتصرف بارواحهم وفعلوا مثل ذلك في بكاسين وبزبدین وقرنايل وبوارج وعين طوره والقعقور والعباديه ورأس المتن وقرى كثيرة غير هذه

❀ شبلي العريان ❀

واما الذي حدث في البقاع بامر والي دمشق نجيب باشا فاقل ما يقال فيه انه اشد هولاً مما حدث في قرى المتن ذلك ان هذا الباشا كان اخبث الاتراك الذين حكموا الشام في ايام نكباتها واكثرهم لؤماً وتعصباً ومع ان السر عسكر سليم باشا اشتهر بالذي قد مناه من حب الفتك بالنصارى فقد كان افضل من نجيب باشا وارحم كما سترى في قصته التالية . وكان بين الدروز في تلك الايام بطل شهير له مقام كبير اسمه شبلي العريان اصله من راشيا الوادي عرف بالجرأة الغريبة في حروب الدروز مع ابرهيم باشا وظهر منه الميل الشديد إلى الفتك بكل عدو او معاند فعينه نجيب باشا حاكماً على حاصبيا وراشياً

مقدمةً للفتك بالنصارى وذبجهم عن آخرهم لانه كان ينوي ان يفعل ذلك في ولايته ولا يبقى في طول البلاد وعرضها نصرانياً والله يعلم ما الذي جناه هؤلاء المساكين وقد كانوا اذل من بيضة البلد واطوع الناس للحكومة التركية . فكان اول اعمال شبلي العريان في حاصبيا انه نزع السلاح من النصارى بدعوى ان الامن في البلاد يقضي بذلك ولم يتعرض للدروز مع ان نصارى هاتيك الانحاء من الروم الارثوذكس لا علاقة لهم بالموارنة الذين كانوا السبب في هذه الحروب ولم يظهر منهم غير كل ادب وتعقل ولكن الدروز والأتراك كانوا ينظرون اليهم بعين الحسد ويطمعون في امتلاك اموالهم لان القوم اكبوا على صناعتهم وتجارتهم فعمرت بيوتهم واتسعت ارزاقهم وكان هذا هو الذنب الكبير عند الاتراك الذين يسوءهم ان تنمو احدى الطوائف الخاضعة لهم لانهم يخافون ان تقوم عليهم وتطردهم من البلاد يوماً فهم ابدًا يرقبون هذه الطوائف ويأتون كل حيلة لاضعاف الذين تظهر عليهم دلائل النهوض والقوة ولهم شهرة في كره النصارى من رعيتهم بنوع اخص لانهم اكثر الناس ميلاً إلى التقدم واوفرهم ذكاء واستعداداً للنمو والاستقلال متى احسوا بالقوة الكامنة فيهم ومن غريب الامر ان سليم باشا الذي مر ذكره كان يظهر الاستغراب والنفور من هذه الفطائع اذا حدثت القناصل في شأنها ويرسل نوابه إلى كل ناحية لیساعدوا الدروز على الفتك بالنصارى باسم هذه الحكومة التي اقامها الله لتنصف في الناس وتؤمنهم بكلمى ارواحهم واموالهم فبين كان يتظاهر بحب العدل وقع الثورة ارسل

خمسة جمال محملة رصاصاً وباروداً إلى الموارنة وكان ارسالها اليهم علناً على رؤوس الاشهاد ثم ارسل مثاها في اليوم التالي إلى الدروز في المتن حتى يداوموا القتال وثبت هذا كله من الاوراق الرسمية . بهذا هذا تحكم الدولة التركية في بلادها

✽ القتال في سغبين وزحلة ✽

قلنا ان شبلي العريان التابع لولاية دمشق اخذ من النصارى سلاحهم بناء على اوامر رسمية وردت اليه من الوالي نجيب باشا ثم اتبع ذلك بالقاء اكبرهم في السجن وتغريمهم المال الكثير وتعذيب بعضهم عذاباً امارتهم وغير هذا من الفظائع . ثم انه وزع السلاح الذي اخذه من النصارى على الدروز واعطاهم المؤونة والذخيرة وكان على وشك الفتك بهم فصدر له الامر بان يقوم في الحال إلى البقاع لمعاونة سعيد جنبلاط وغيره ممن كان يفتك باهل هاتيك الربوع وكان هذا الطاغية (سعيد جنبلاط) قد رحل عن جبل لبنان بعد ان فتك باهل بنكث العهود واخلاف الوعود والخيانة والدناءة والظلم الوحشي وانتقض على قرية سغبين بمن معه فقتل منها في ليلة واحدة مائتين وعشرة انفس بريئة ولما علم ان شبلي العريان قادم لمعاونته قام لاستقباله وبدأ الاثنان يستعدان للهجوم على زحلة وهي اكبر المدن الجبلية في بلاد الشام ولاهبا شهرة في شدة البأس والاقدام . ولما علم القناصل بان الشرزاد والبلاء عم لم يبق لهم صبر على هذه الاهوال وعلموا انهم اذا لم يسرعوا إلى خلاص زحلة من الجيش الزاحف عليها

كان خرابها عظيماً لان الذين كانوا فيها لم يقلوا يومئذٍ عن ١٥ الف
نفسٍ من اهلها واللاجئين اليها وكلهم من النصارى فظهر سليم باشا
المروءة والشهامة على عادته وارسل في الحال رجالاً من قبله يأمر
الدروز بالرجوع عن هذه المدينة وعاد القناصل إلى التصديق ولكن
بعضهم لم يصدق بعد كل الذي رآه من آيات الخيانة والخداع فكتبوا
إلى دولهم يقولون ان لم تبقى في اليد حيلة وان الحكومة تحرض الدروز
والمسلمين على قتل النصارى في كل الانحاء وانهم تأكدوا من مصادر
لا ريب في صحتها ان الولاة كانوا يفعلون ذلك بامر الباب العالي
وقال قنصل روسيا وقنصل فرانس في تقاريرهما الرسمية انه اذا لم تبادر
الدول في الحال إلى التداخل بطريقة اقوى وافعل من الكلام صار
النصارى في خطر الذبح في كل بلاد الشام . ومن غريب الاتفاق
انهم عثروا يومئذٍ على كتاب رسمي من نجيب باشا إلى سليم باشا
يقول له فيه ان (لا نتعبوا سرهم في القلاقل الحاصلة في بلاد الشام
لانها انما تجري بامر الباب العالي) فيا للعجب !!!

وكان في زمرة المهاجرين لمدينة زحلة خمسمائة تركي من عساكر
الحكومة المنظمة جاء بهم شبلي العريان من حاصبيا تحت امرته فانضموا
إلى دروزه ودروز سعيد جنابلاط وغيرها وزحفوا عليها ولما جاءهم
الامر بالرجوع عنها وقفوا بضعة ايام فظن الناس انهم اطاعوا الامر
ولكن وقوفهم هذا لم يكن الا لانتظار فرقة من الجيش السلطاني
المظفر جاءت تحت قيادة رشيد باشا ليحافظ على الامن ! فحالما وصل
هذا الجيش تقدم الدروز باشارة قائده إلى زحلة وتبعهم عساكر

السلطان ليسدوا على الفارين من النصارى الطرق ويتقدموا لاعانة الدروز حين اللزوم ولم يسمع إلى الآن بخيانة اعظم من هذه الخيانة تصدر عن حكومة تنشر الخطوط والاوامر وتدعي حب الانسانية والعدل وتسمي نفسها الاسماء الفخيمة وبعد ان تعد وتؤكد بالمحافظة على ارواح رعاياها ترسل جنودها لفتك بهم مع الثائرين وهم ما ثاروا الا بامرها ولا ذبحوا الا بسيفها ولو ان الدروز تأخروا عن طاعتها وامتنعوا عن معاونتها على ذبح النصارى لاستعانت بالنصارى على ذبح الدروز حيا لله من هذه الحكومة وهذه الاحكام

على ان اهل زحلة اظهروا الحزم والبسالة إلى حد لم يخطر ببال اولئك الظالمين الذين جاؤا ليدبحوهم ذبح الانعام ولما وصل اولئك العتاة ابوابها ارسلوا يؤمنون الناس فيها على ارواحهم ويطلبون سلاحهم على ما تقدم واعان الله اهل زحلة فسد رأيهم واراهم عاقبة هذا التسليم واوضح لهم خيانة الاتراك والدروز فلم يرضوا بتسليم اسلحتهم وبدأوا بالقتال فاظهروا قوة واقداماً غريبين رد اولئك الانذال الخائنين على اعقابهم خاسرين فسلم النصارى في زحلة من الذبح والهوان وسلمت اموالهم من النهب ولو ان النصارى انضموا بعضهم إلى بعض وقاوموا اهل الفساد مثل اهل زحلة لفتكوا بهم وفلوا جموعهم وخلصوا من تلك النكبات الهائلة التي رزئوا بها في ذلك العام المشؤم. ولما لقي الانذال الفشل في زحلة هجموا على القرى المجاورة لها ودمروها عن آخرها وكانوا يقتلون كل نصراني يقع في ايديهم بلا اثم ولا ذنب وعمت رذائلهم وكثرت قبائحهم حتى اصبح القسم الجنوبي من جبل

لبنان ناراً متقدة من اقصائه إلى اقصائه وتاه النصارى في القفار والجبال فلجأوا إلى الحراج والكهوف او عمدوا إلى بعض القرى التي لم تصلها يد الدروز وكان معظم هؤلاء المساكين حفاة عراة يقاسون الهول والمر ويتوهمون ان القيامة قامت وان النصارى انقرضوا واخفقوا عن وجه هذه الارض ولم يبقَ عليها غير المسلمين والمتاوله والدروز ولو شئنا وصف احوال الارامل والايتام المساكين الذين هجروا المنازل وحرموا الرقاد وصار نصيبهم الذل والهوان لفطرنا المرائر وادمينا القلوب ولكننا نعرض عن وصف تلك الاهوال والمصائب توفيراً لعناء الحسرة والبكاء على القارئ النبيل فليس في الارض بشري من غير الاتراك يقرأ عن هذه المنكرات ولا يتوجع ويتفجع

✽ نتيجة الحرب ✽

وكان من نتيجة هذه الحروب والمذابح ان النفوس الامارة بالسوء هبت إلى شرب الدماء في كل انحاء البلاد وكان الاتراك يزدون النار وقوداً ويشيرون على النصارى كل من كان لهم مبغضاً وعدواً لدوداً والظلم من شيمة النفوس الغدارة اذا ما حرّكها التعصب الديني وقواها حب الغنمة والانتقام فثارت ثائرة المسلمين في كل المدن وقاموا يريدون ذبح جيرانهم فاحس النصارى بعظم البلاء والضيق واتوا كل حيلة للخلاص من الموت الذي كان يتهددهم به المسلمون والمتاوله ولكنهم لم يسلّموا من الاذى والاهانة الكبرى الا لما سمع الظالمون بان الدول الاوربية قد ارسلت اساطيلها إلى مين الشام وراها المسلمون فخافوا شر

مدافعها ورجعوا عما كانوا ينوون من الامور المنكرة
كل هذا ونجيب باشا والي الشام يدسُ الدسائس ويهيج المسلمين
على النصارى حتى صارت المذابح التي ينويها الاشرار من الامور
المخيمة لولا ان يشدد وكلاء الدول وفي مقدمتهم الجنرال وود قنصل
انكلترا في دمشق بوجوب الانتباه وميانة حياة النصارى . وكان
هذا الرجل العاقل - القنصل وود - يعلم انه اذا لم يفرغ الجهد في
ملافاة الامر قبل وقوعه حصل في كل بلاد الشام مثل ما حصل في
جبل لبنان فاجتمع بعلماء المسلمين وعقلائهم وباحثهم في الامر وبين لهم
العواقب السيئة التي تنتج عن فعلهم وكان بينهم اناس من اصحاب
العقل والانسانية سمعوا رأيه وساعدوه على الوالي التركي فذهبوا اليه
واوقفوه عن المسير إلى الحج وكان هذا الطاغية ينوي ان يغيب في
الحجاز بعد الذي دسه من الدسائس والذي دبره من الحيل حتى
تحصل المذابح في غيابه ويكون له عذر امام الاوروبيين على عدم
منعها . فلما ذهب اليه العلماء وفي مقدمتهم القنصل وود وحذروه من
عواقب هذا البغي وهذه الخيانة رأى الحق في جانبهم فعدل عن
مرافقة المحمل إلى مكة وبقي في ولايته يعطي الاوامر بمنع الاعضاء
وابطال الدسائس والمحافظة على الارواح وبهذا وقف سير المجازر
وانتهت حوادث سنة ١٨٤١ المشؤومة

وكان الدروز إلى ذلك الحين يتخفون للعود إلى القتل والذبح
وينتظرون قيام المسلمين في الشام على النصارى حسب الوعد حتى يعيدوا
الكرّة على جيرانهم في لبنان فلما علموا ان نجيب باشا اضطر إلى المنادة

بالامان وسكت عما كان ينويه سكتوا هم ايضاً لانهم لم يقوموا لهذه
الفعال الا بتخريض الاتراك وهذا روع البلاد وبطلت الحرب التي
كانت علتها طمع بطريك الموارنة في مد نفوذه وتعصبه على كل من
خالفه في مذهبه واوقد نارها الدروز الذين رأوا خيراً واسطة للدفاع
عن استقلالهم ولقهر الاعداء واذلالهم وشدد وطأتها الاتراك بدسائسهم
ومكرهم وعدائهم للطائفتين ولو لم يقم الدروز يومئذ على النصارى باغراء
الحكام لاغرى الاتراك النصارى ان يقوموا على الدروز ويذبحوهم كما
سترى في الفصول القادمة وكما رأيت في الذي تقدم من هذا الكتاب
وقد نتج عن هذه الحرب الاهلية خسارة ثلاثة آلاف رجل من
النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن وحوالي اربعمائة
رجل من الدروز ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة ومساعدة
الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح لكثر عدد المقتولين وزاد
عن هذا القدر . واما الخسائر المالية فلم تحصى ولم تقدر في ذلك الحين
ولطالما طلب النصارى بعد هذه الاهوال تعويضاً عما اصابهم من
الخسارة ورد املاكهم التي اغتصبها الدروز اليهم فكان الاتراك
يتظاهرون بالميل إلى مساعدتهم ويعرضون عن اجابة الطلب كما سيحيى .
وقد اوقدت هذه الحرب في الصدور ناراً لم تطفأ الا بعد الهياج مراراً
ونال الاتراك غايتهم من اهل الجبل ومن المسيحيين اجمع بزرعهم
الاحقاد في القلوب واتموا بدم الرجال ما كانوا ينوونه من انماء العداء
المرو والتعصب المستمر حتى لا نتحد هذه الطوائف عليهم ولا نقوى على
مناوأتهم وطردهم من البلاد

✽ عمر باشا ✽

وقررت الحكومة بعد هذه الحوادث عزل حاكم لبنان وهو الامير بشير قاسم شهاب الذي ذكرناه بدعوى عدم اهليته والحق يقال انه اظهر من سوء الادارة وعدم الاهلية ما جلب على بلاده كل هذه المصائب واستحق العزل من اجله وارسل اسيراً إلى الاستانة وهي مدفن الاحياء فلم يسمع عنه شيء بعد ذهابه . وفي ١٥ يناير من سنة ١٨٤٢ عين عمر باشا والياً تركياً على لبنان وهذه هي الامنية التي كان الاتراك يتفانون في سبيل تحقيقها ووصل بعده من الاستانة تركي آخر اسمه مصطفى باشا هو الشيطان الرحيم بعينه كانت مهمته في الظاهر البحث عن اسباب الثورة الاخيرة (وما سببها الا رداءة الحكومة التركية) وتقديم آرائه في الذي يجب عمله لمنع وقوع امثالها في المستقبل . واما في الباطن فكانت مهمته تنفيذ الاوامر التي اعطيت اليه سرّاً في الاستانة لاثارة الضغائن وانماء الاحقاد وابقاء اسباب العدوان والفساد حتى لا يستريح الجبل من هذه الشرور ولا يقوى على طرد الاتراك وحتى تبقى الطوائف كلها في نزاع مستمر يضطرها إلى طلب رحمة الحكومة التركية والاتجاء إلى عدلها المشهور فعمل مصطفى باشا هذا بالذي جاء من اجله وزاد كره المسلمين للنصارى بمساعيه زيادة هائلة . ثم ان هذا الشيطان الخبيث جمع رؤساء الدروز ورؤساء النصارى ووضح لهم كذباً وزوراً ان الحكومة تريد ان تنفعهم في امورهم وتمنع القلاقل من بينهم وسألهم ان يقدموا آراءهم في حكومة

لبنان وحاكمه على حسب ما يرون بدون خوف ولا حذر ولكنه اوعز إلى كل فريق منهم سرّاً ألا يكتب في تقريره إلا ان يكون والي لبنان مسلماً تركياً وان يمتدحوا خطة عمر باشا ويفضلوا الاحكام التركية على احكام امرائهم من آل شهاب وغيرهم. وطلب الى النصارى ان يكتبوا تقريراً عمماً حصل لهم وما نالهم من الخسارة ففرحوا بذلك فرحاً عظيماً ورفعوا صوتهم ينادون بالنصر للسلطان ومصطفى باشا وقالوا ان الحكومة ستقتص من الذين قتلوا اقاربهم وتعيد اليهم اموالهم وتعوض عليهم خسارتهم وما عثموا ان كتبوا هذا التقرير وذكروا فيه اسماء بعض المشايخ من الدروز الذين اشتهروا بالفتك والخيانة حتى اشتهر امر هذا التقرير بين الدروز اذ اطعمهم مصطفى باشا عليه وكثرت الاحقاد وصار الدروز يقولون بعضهم لبعض ان النصارى يريدون في تقريرهم ان تشنق الحكومة كل مشايخنا وابطالنا ويطلبون اليها ان تعطيهم ارزاقنا واموالنا وتعاضم البلاء وزاد العداء إلى حدٍ هائل بسبب هذا التقرير مع ان النصارى ما كتبوا فيه إلا الذي امرهم مصطفى باشا بتقريره وذكروا اسماء الذين اشتهروا بالذبح والنهب ولم يطلبوا شقاً ولا قصاصاً ولا رجوا هذا التركي الغاشم في امر غير ارجاع املاكهم واموالهم التي سلبت منهم ولكن الحكومة التركية التي ساعدت الدروز على نهب تلك الاموال وحرّضتهم على قتل اولئك الرجال لم تكن انترضى بالاقتصاص منهم على سماع امرها وما فكرت يوماً واحداً في التعويض على رعاياها الذين سلمتهم للذبح والنهب

✽ التقارير الكاذبة ✽

واما التقارير الَّتِي اوعز مصطفى باشا إلى الناس بكتابتها فأعطيت صورُ منها إلى الطائفتين وكُذِّبَها ذم في امراء آل شهاب وعدم مقدرتهم على الحكم في لبنان وتفضيل حكومة الاتراك والوالي التركي وكانت الحكام يأتون كل حيلة لارغام الناس على ختم هذه الاوراق الكاذبة ويستعملون الارهاب والتليق والعذاب والمنح وكل وسيلة أخرى تنيلهم المرغوب وهذا نصُّ كتابٍ ارسله علي بك خزينه دار مصطفى باشا في ٣ جماد آخر سنة ١٢٥٨ هجرية إلى احد حكام المتأولة في هذا الشأن ننقله هنا بالحرف الواحد ليرى الناس كيف يحكم الاتراك رعاياهم

« جناب افتخار الاماجد الكرام اخينا المكرم حمد البيك حفظة

الله تعالى

غلب ابلاغ التحية والسؤال عن خاطركم بكل خير وعافية المبدي لختكم انه بحسب الاعتماد على صداقتكم واستقامتكم الاكيده والآن توجه لكم تحرير من عربي كاتبي الخواجا جبرائيل العوره فبوصوله ليدكم تعتمدوا مآله وتظهروا همتمكم المعهودة باتمام العمل طبق تعريفكم وتهتموا بنجازه وارسال الجواب لطرفنا بالجبل بحيث مراسلكم يلحقنا اينما كنا ان كان في المتن او في زحلة او في بلاد جبيل وحسب عهدنا الوثيق بصداقتكم باقرب وقت نتمموا المصلحة طبق التعريف ودمتم »

محل الختم

وهذه صورة تحرير جبرائيل العوره إلى الحاكم المذكور وهو المشار إليه في الكتاب الذي مرَّ

« سني الهمم سلطانم »

« غب تقديم الدعا بدوام بقاءكم نعرض الآن واصل طيه فرخين ورق كبير على بياض وصورة عرض محضر إلى حد الورق البياض فيه الكتابة وعلامة محلات الاسماء والخطوم فالقصد بذلك ان بحال وصوله تحرروا العرض محضر وتنهضوا الغيرة التامة بتخيمه من مشايخ المتأولة جميعهم ومن مشايخ القرايا الاسلام والنصارى في مقاطعة تبنين وساحل معركة وهونين وساحل قانا ومرج عيون والشقيف وجباع غير ان لا تدعوا احد من مشايخ العشائر ومشايخ القرايا اسلام ونصارى الا وتختموه وبالخصوص تجتهدوا على تكثير اسماء النصارى والذي ما له ختم تدعوه بالخاضر يعمل ختم ويختتم واتخذوا كل الفنون والنباهة المعهودة منكم لما به البولتكه والتنازل لكايين من كان بحيث لا تخلوا احد من وضع اسمه وختمه وهذه تعد لجنابكم عند دولتها (مصطفى باشا وعلي بك) من اعظم الخدمات المقبولة وتحوزوا الرضى الوافر فوق ما توملونه وهذا وقت اكتساب الفرصة » (نعل الختم)

وهذه صورة العرض الذي كان يريد الاتراك من الناس ختمه على الصورة الموضحة في ما تقدم

« انه كما مشهور وصار مشاهد وتحقق بالعيان من وجود ادارة الدولة العالية في حكومة لبنان فقد حصلت اهالي الجبل المذكور عموماً على غاية الامنية والراحة والرفادية والعدل والانصاف بنوع انهم من

حينما تخلصوا من ادارة الامير بشير الشهابي واولاده واقاربه خصوصاً
الامير امين والامير بشير القاسم وابناء عمهم وانسابهم واعوانهم
واتباعهم الذين املوا الجبل المذكور وجواراته نظير بلادنا وغيرها
من البلاد المجاورة لهم من التعديات والمظالم المتنوعة فقد خرجت الاهالي
والسكان بوجود ادارة الدولة العلية من العتم إلى النور ومن دهر الظلم
والجور إلى ساحة العدل والامان . فنظرًا إلى عدالة الدولة العلية
وانصافها الذي عم العالم باسره فبمقتضى عدالتها وانصافها المرحمة بحق
عبيدها ورعاياها بدوامهم في ادارة احكامها وعدم اعادة احكام
الشهابيون بوجه الاطلاق . بل ولا واحد من اهالي الجبل لا اسلام
ولا عيسويون عملاً برضاة الباري تعالى جل جلاله لرحمة عبيدها
ودوام استخلاصهم لعقبتهم من احكام الشهابيون ومظالمهم المتنوعة واتباعاً
للحديث الشريف كلهم راعي وكل مسئول عن رعيته وحيث انوجدنا
نحن من المجاورين للجبل ولنا الاطلاع التام على احواله واخذنا وعطانا
مع الجبل وفي الجبل المذكور كثير فان ذات ادارة احكام الدولة
العية في جبل لبنان يعمننا من الامان والراحة . وان لا سمح الله تعالى
تغير ذلك بضده فنحصل على الاتعاب والمشقات لاجل ذلك بسطنا
الان عرض عبوديتنا هذه نسترحم بها من الاحسان الملوكانية والمراحم
الشاهزية النظر لعبيد ورعايا الدولة العلية بعين المراحم والاشفاق وابقاء
احكام الدولة العلية في جبل لبنان وعدم النظر والالتفات إلى حركات
المفسدين الذين يسعون بسلب راحة وامنية عموم الاهالي والفقراء
ويدبرون عر ضحالات التزوير بالتماس ارجاع احكام الشهابيون لان

ذلك موافق غاياتهم الرديّة ومغاير انصاف وعدالة الدولة العليّة وحاشاها ان تهمل دوام راحة رعاياها وعبيدها وتنظر لتزوير ونفاق هؤلاء والامر لمن له الامر افندم»

✽ السياسة التركيّة ✽

بمثل هذه الحيل الدنيئة والتدابير الساقطة كان الاتراك يحاولون تضليل اوروبا والتمويه على العقول واخفاء امر المظالم والمجازر الهائلة التي امروا الدروز بها. وقد بذل هؤلاء الحكام ما في وسعهم لارضاء النصارى فرشوا بعض مشايخهم وقربوا آخرين وارهبوا آخرين حتى تمكنوا من نوال مساعدتهم فنسي هؤلاء المساكين الذي جرى لهم على يد الاتراك وختموا لهم ما يريدون فاخذت الحكومة التركيّة هذه التقارير سلاحاً ترد به حجة اوروبا في التداخل وتظهر منها استتباب الامن ورضى جميع الاهالي عن حكومتهم الفاسدة. والذي يقرأ هذا العرض الذي نقلنا صورته يرى كيف تبعد الحكومة التركيّة عما تصف به نفسها من آيات العدل والانصاف والعجب انها نجحت بمثل هذه السياسة وهي تعود اليها آونة بعد اخرى فقد انتهت في بلاد الشام عام ١٨٦٠ حين حصلت المذابح الهائلة التي سنأتي على ذكرها وفي بلغاريا سنة ١٨٧٦ وفي ارمينيا سنة ١٨٩٤ والله يعلم متى يعود الدور إلى سورية ولبنان ويبلى الناس بالذي لا يطاق اذا ظلت هذه البلاد المسكينة في قبضة هذه الدولة الظالمة. والغريب في الامر ان الحكام جعلوا يسجنون ويعذبون كل واحد لم يختم لهم الاوراق التي طلبوها

برضاهُ وذلك بعد نوالهم المرغوب من الذين ظلمهم وشدَّ دوا الوطأة على بعض اصحاب النفوس الالبيَّة حتى اماتوهم في السجن من الجوع والعذاب والاهانة وكانوا كلما لحظوا من احد الناس ميلاً إلى احدى الدول الاورويَّة يتعمدون بالاذى بنوع خاص و يذيقونه البلاء بالفحيلة مع انهم ما عادوا إلى امتلاك الشام الا بمساعدة دول اوروبا ومساعدتها فقابلوا جميلها بالكفران ونعمتها باللؤم وهذا شأنهم إلى اليوم يتدللون لاوروبا و يلتجئون اليها عند الحاجة واذا لحظوا من احد رعاياهم ميلاً إلى واحدة منها نكلوا به واذاقوه مرَّة العذاب ليروه بطشهم وقوتهم وهم يعاملون كل من خضع لهم بالقسوة الوحشيَّة والارهاب لانهم يقولون على مسمع من كل سامع ان هذا لازم لحياتهم الجنسيَّة ولسيادتهم الحربيَّة والسياسيَّة . ولما كانت اكثر البلدان التي يحكمونها آهلة بالمسيحيين والمسلمين فهم يتخذون المسلمين آلة لانفاذ ما ربههم فاذا انسوا منهم اتحاداً مع جيرانهم اتوا الحيل المعروفة للتفريق بينهم وكانوا يومئذ ياتون واسطة يعمدون اليها في كل حين هي انهم اذاعوا بين الملا ان اوروبا عازمة على مهاجمة مملكتهم وامتلاكها وسحق الاسلام وتحقه واعطاء السيادة في الشام وسواها الى النصارى بدل المسلمين فهيجوا تخاوف اهل الاسلام وحقدهم وجعلوا الجهال والرعا من بينهم ينوون الايقاع بالنصارى حالما تناسبهم الاوقات وتساعدهم الظروف

وعلى ذلك يتضح ان هذه الدولة لا تقصد لرعاياها على اختلاف اديانهم غير العدا والشر وتريد اضعافهم وغل ايديهم عن القيام عليها وهي تكره النصارى بنوع اخص لانهم ليسوا على دينها المعروف

ولأنهم أكثر اهل الطوائف ميلاً إلى التقدم والنمو ولأن الدول الأوروبية تسأل عنهم اذا مالت هذه الدولة عليهم إلى حدٍ يزيد عن المعتاد . ولهذا فليس في صدور العارفين اليوم ريب في ان كل ما تعد به هذه الدولة من الاصلاح والتحسين تمويه وتضليل لا تقصد اجراءه ولا تأمر به من عند نفسها وهي ما اقدمت على امر حميد من يوم وجودها إلا قسراً واضطراراً . وقد اتخذت خطة الخداع والروغ والمماطلة والكذب والمحاولة والوعد والتسويق والغدر والخيانة وكل ما يشبه هذه الاوصاف الدنيئة شعاراً لها في هذه الامور فهي اذا اصدرت امراً بالاصلاح حتى تسكت اوروبا عنها او عزت الى عاملها الاشرار سرّاً بالأى ينفذوا امرها او بان يقيموا ما امكن من العراقيل في سبيل اتمامه حتى اذا مضى الوقت وخمدت الافكار لم يبقَ في وجهها مطالب بالاصلاح وظلت البلاد على حالها من الخلل الذي لا يعيش الاتراك بدونه . وهم يستعملون الدين واسطة للدسائس وابقاء الظلم والتعصب في مثل هذه الاحوال فيوعزون إلى جهلاء المسلمين بمعارضة الاصلاحات ويفهمونهم انها ترفع شأن النصارى ويحرضونهم على المعارضة والتظاهر بالثورة ويقولون لاوروبا حينئذ ان حبههم للبلاد ورغبتهم في انتشار الامن ومصالحة الرعية قضت عليهم بالتاخر في تنفيذ هذه اللوائح التي يعود عنها الخير ولطالما قال الاتراك في كتاباتهم الرسمية وجاهر اصحاب الشأن فيهم « انهم لا يقدرّون على استرجاع مقامهم الاول وسطوتهم الا ان يعودوا إلى التعصب »

✽ عود القلاقل ✽

قلنا ان عمر باشا تعين حاكماً تركياً على جبل لبنان ونال الاتراك بتعيينه امرأ طاملاً تاقت نفوسهم اليه ولكنه لم يفلح في مهمته ووجد ان الذي يحكم في جبل لبنان وهو من غير اهله لا يلقي منهم الخضوع الذي ينتظره الحاكم من المحكوم ذلك لان الاهالي كانوا يكرهونه ويكرهون جنس دولته فلم يؤدوا له تجلةً ولا اطاعوا له امرأ الا قسراً وقهراً ولان الدروز كانوا قد ثملوا بجمرة النصر وذاقوا حلاوة السيادة والنهب والسلب فلم يعد في امكانهم الخضوع للحاكم التركي وهو مثل افراد هذا النوع لا يقدر على العيش بدون الامارة الكثيرة والتظاهر بالابهة والفخامة . وكان هذا التركي كلما تداخل في امر او قضى في مشكلة بين الناس يرى من تصدي مشايخ الدروز له ما لا يسره لانهم كانوا يعتقدون ان النصر صيرهم اصحاب البلاد وارباب الامر على النصارى فلم يطيقوا تحكّمه في الناس الذين كانوا يعدونهم من رعاياهم . وحاول عمر باشا ان يكسر شوكة الدروز ويجعل اكبرهم طوع امره فبدأوا يتذمرون ويتلملون وجعل البعض منهم يقولون على رؤوس الاشهاد انهم لا يطيقون الخضوع لحاكم كانوا هم السبب في تعيينه وان الدولة التركية هي التي حرضتهم على الحركات الاخيرة ووعدتهم بالسيادة والملك فلا يصح بعد هذا ان تنقلب عليهم وتحاول نزع هذه السلطة منهم . ثم ان بعض مشايخهم جاهرُوا في ذلك الحين بان الدولة التركية اخذت منهم اكثر من نصف الذي سلبوه ونهبوه وانهم ما تمكنوا من

نوال مساعدتها لم على النصارى الا بعد ان دفعوا لها مبلغاً هائلاً من المال لا يقل عن ثلثماية الف ليرا عثمانية. وقال الشيخ شبلي العريان — وهو يومئذ من اشهر ابطال الدروز واكبر زعمائهم — انه لم يبق في طول البلاد السورية وعرضها موظف تركي حتى نال من الرشوة واعطي من المسلوب والمنهوب ما اغناه وان الصدر الاعظم بنفسه اخذ من طائفة الدروز مالاً طائلاً حتى مال معهم وامر اعوانه بمساعدتهم فما دام الاتراك اخذوا حقهم من هذا الاتفاق فالدروز يصرون على اخذ الذي قاموا وقتلوا النصارى من اجله وهو السيادة التامة والتحكم في البلاد بدل ان يصيروا هم والنصارى سواء تحت تحكم الوالي التركي ثم بدأ البعض منهم يتوعدون الحكومة بافشاء السر ونشر المعاهدة السرية التي كانت بينهم وبين الحكومة التركية على الفتك بالنصارى اذا ظلت هذه الحكومة على معاندتهم والتعرض لهم او اذا اصررت على رد ما نهبوه من النصارى اليهم . كل هذا ننقله عن التقارير الرسمية التي بعث بها وكلاء الدول المسيحية إلى وزاراتهم وليس فيه شيء من المبالغة والتحويل

ورأى عمر باشا ان مقامه في بيت الدين (هي عاصمة لبنان على مقربة من دير القمر اهم مدائنه) صار مخفوفاً بالاحطار والمكاره وان تنوده تقلص وسلطته ضاعت فبعث الى السر عسكر يطلب منه المدد ويرجوه ارسال الجنود لاعانتهم على الدروز فاجب السر عسكر ان يجيبه إلى هذا الطلب وعيره بخيانة الدين في ميله على الدروز الذين نصررا الحكومة على المسيحيين كأن الدروز من اهل دينه وهم اول القائلين

باللعنات على ما يعتقد به كما يتضح مما كتبناه عن اصلهم وتاريخهم ولكنه الغرض يعمي صاحبه فاعمى السر عسكر في ذلك الحين وعلم الدروز بالحكاية فزادت جرأتهم وعظمت قوتهم ورأى عمر باشا انه لا يفيد غير الحزم فاستدعى خمسة من مشايخ الدروز للعشاء في سرايه واوصى خدامه واعوانه بالقبض عليهم وتكبييلهم بالقيود حالما يروا ان الامر ممكن ففعلوا ذلك وارسل هؤلاء المشايخ في ليلة القبض عليهم إلى صيدا ليسجنوا فيها وظن عمر باشا ان مثل هذا الحزم يخيف اهل لبنان ويجعلهم في قبضة يده ولكن آماله خابت فان الدروز هاجوا وماجوا وبدأوا يستعدون للقتال والمخاربة وجاهروا بعبادة الدولة التركية وبرز بعضهم الاوامر المكتوبة التي صدرت اليه تأمره بالقيام على النصارى وافشوا الاسرار التي كتبناها في هذا الكتاب . الا ان قوتهم لم تكن كافية حينئذ للهجوم على الوالي ومن معه من الحرس سيما وان السياسة التركية نجحت مرة أخرى في استمالة النصارى الذين كانوا إلى ذلك الحين يكون قتلاهم ولا يفقهون ان الحكومة هي التي قتلتهم فعرضوا خدماتهم على هذا التركي وبدأوا يتحفزون للانتقام من الدروز على ما بدا منهم في العام الماضي . ثم ان الاتراك قسموا الدروز على انفسهم اذ عينوا لهم مشايخ غير الذين سجنوهم واستمالوا فريقاً منهم بالعطايا والرتب والهدايا . وانتهاز الاتراك هذه الفرصة فداروا على الدروز والنصارى يطلبون اليهم ختم اعراض مثل الاولى يشكرون فيها احكام الدولة التركية ويرجون ان يكون الوالي عليهم في كل الاحوال تركياً وبدأوا يعدون البعض ويملقون البعض الآخر

على عادتهم حتى وصلوا رجلاً من اكابر الموارنة هو البطل الشهير يوسف بك كرم ورجوه الختم فامتنع فهددوه فقام عليهم وطردهم من بلدته وجامر بالعصيان وقام معه ابطال كثيرون من اهل تلك الناحية فخافت الحكومة عاقبة الامر وتركتهم

ولما رأى الدروز ان فريقاً كبيراً من الموارنة قام على الاتراك وكانوا هم يميلون إلى تحاربتهم لما تقدم بدأوا يخابرون اكابر الموارنة في الاتفاق على هذه الدولة ومال النصارى معهم مبدئياً إلى قبول هذا الرأي لان كل واحد تحت حكم الاتراك يكرههم ويئس من جورهم واجتمع نواب الطائفتين فوضع الدروز لجيرانهم النصارى انهم ما قاموا لمقاتلتهم وقتلهم الا بأمر الحكومة وانهم لو لم يدعنوا لارادتها لكانوا في خطر قيام النصارى عليهم بمساعدة الاتراك فاخثاروا اهون الشرين وبرزوا الادلة الواضحة على صدق قولهم فلم يرتب النصارى فيها . ثم تعهد الدروز بالرضوخ لاحكام الامراء الشهابيين وهم من النصارى واشترطوا على الموارنة ان يكونوا هم البادئين في الحرب فخاف الموارنة ان يكون في الامر دسيسة وتساهلوا في كل امر على شرط ان يبدأ الدروز بالعدوان وكانت كل طائفة تخاف من الاخرى بعد كل تلك الضغائن التي زرعها الاتراك وتلك الحروب التي لم يمر عليها الحال فلم يمكن الاتفاق وعاد الفريقان بالخيبة إلى مواضعهم فلقوا الاتراك على استعداد تام لاجباط مساعيتهم ذلك انهم تملقوا الموارنة ونقرّبوا منهم وخلعوا على بعضهم الخلع وجاؤا للبطريك بارادة سنية تجعل تحت حماية السلطان الخاصة وترد إلى طائفته كل ما فقد منها في

الحرب الاخيرة ففرح النصارى على قلة ادراكهم بهذه الامور وابطلوا كل مخابرة مع الدروز في شأن الاتفاق على هذه الدولة . ثم ان الاتراك افهموا الدروز بالاوامر الصريحة ان كل مجافاة الحكومة لهم كان بسبب امتناعهم عن رد ما نهبوه من النصارى الذين كانوا يلحون بطلبه يوماً بعد يوم فزاد بهذا التصريح الحقد بين الطائفتين وحوّل اكثر كره الدروز من الاتراك إلى النصارى لانهم صدقوا هذه الاشاعة التركية ولم ينكرها النصارى لان كل واحد كان يميل إلى ارجاع ما فقد منه إليه وظنوا ان الحكومة مخلصة في سعيها . والعجب ان الناس في ذلك الزمان كانوا يرون غدر الحكومة وخيانتها بعيونهم كل يوم ثم يعودون إلى تصديقها والاركان اليها ولكنه القدر اذا حلّ يعمي البصر

على ان الدروز الذين اشتهروا بحب الاستقلال لم يصبروا على جور عمر باشا مع كل ما اتاه هو واخوانه من المساعي الخبيثة فقاموا في شهر نوفمبر سنة ١٨٤٢ تحت قيادة بطليم الشهير شبلي العربان واحاطوا بيت الدين احاطة السوار بالمعصم فقطعوا الماء عنها وتهددوها بالخراب ان لم تجب مطالبهم في الحال وهي ان يعزل عمر باشا في الحال وان يفرج عن المشايخ الذين كبلهم بالقيود ظلماً وغدرًا وان يعفى الدروز من القرعة وان لا يتعرض الحكام لهم في حمل السلاح وان يثبت مشايخهم في مراكزهم وتعاد اليهم السلطة التي كانت الاتراك يحاولون نزعها منهم . فاجتهد عمر باشا ومن معه من الاتراك ان يفلوا تلك الجموع بقوة الحيلة والدسائس على عاداتهم وبدأوا يقولون لهم عن

النصارى كيت وكيت فاجابهم شبلي العريان في الحال ان الدروز ما قاموا على النصارى الا بامرهم وان الاموال التي وضعوا يدهم عليها لا تزيد عما اخذوا الاتراك على سبيل الرشوة وان الصدر الاعظم كان من اول الذين اكلوا المال منهم . فرأى الاتراك ان الحيلة لم تعد تنفع في هؤلاء القوم وعمدوا إلى القوة فارسلوا فرقة من الجنود اكثرهم من الاتراك والارنؤوط وشهرتهم في اللؤم تغني عن الشرح وكان مع هؤلاء العساكر مدافع اتوا بها من مدينة صيدا فلما وصلوا بيت الدين بدأوا بمحاربة الدروز من وراء وكان عمر باشا ومن معه من الحرس ومن خيالة الموارنة الذين اغتروا باكاذيبهم يقاتلونهم من الامام فانهزم الدروز وركنوا إلى الفرار ورأى شبلي العريان ان بسالته الفائقة لا تفيد عند وجود المدافع فتأخر وفر مع بني قومه الابطال ولجأ اكثر الدروز إلى بلاد حوران على عادتهم في ايام الشدائد والملمات واما شبلي العريان فانه سلم نفسه إلى والي دمشق وقابله هذا التركي بالاكرام والاحترام وسعى له في الوظائف الكبرى فنالها ولهذا يتهمه بعض الناس بالخيانة ويقولون انه رشي من الاتراك وعمل على احباط مساعي قومه حتى نال منهم هذا الرضى واعطي تلك الوظائف الكبيرة ولما وصلت هذه الاخبار إلى الاستانة ورأى الاتراك ان الوالي التركي يدعو اهل لبنان إلى الثورة بدل الخضوع التام وان اهل هذا الجبل لا يرضون بحكم واحد الا اذا كان من امرائهم عدلوا عن منيتهم التي اتوا كل هذه الامور من اجل تحقيقها واجلوا امر تعيين الوالي من الاتراك فاصدر الباب العالي امراً يجعل الجبل تحت حكم

اثنين من امرائه واحد من النصارى وواحد من الدروز
وفي اول يوم من سنة ١٨٤٣ تعين الامير حيدر ابي الميع قائمقاماً
على النصارى والامير احمد ارسلان قائمقاماً على الدروز في جبل لبنان
وانتهى بذلك الاشكال وظنّ الناس ان قد امتنع القيل والقال
على ان هذه التسوية لم تعد بالفائدة المقصودة لان الطائفتين
كانتا مختلطتين في انحاء الجبل ولم يسكن الدروز في ناحية والنصارى
في ناحية أخرى فلم يمكن للحاكمين ان يقوموا بالواجب عليهما اذ كيف
يمكن لامير النصارى ان يحكم بعض الافراد الذين كانوا في قرى
الدروز ولا يستاء الحاكم الدرزي الذي كانت مشاكلكم تقع في بلاده
وكان بعدهم من جملة رعاياه . ولم تخل بلدة من النصارى الذين كانوا
عمالاً ومزارعين لمشايخ الدروز يعيشون في اراضيهم ويدفعون لهم مالاً
معلومًا اجرتها كل سنة وكان هؤلاء المشايخ يعتبرون انفسهم رؤساء
بالارث على اولئك المزارعين فلم يمكن لهم السكوت عن استقلال عمالهم
عنهم وانحيازهم إلى امير نصراني لا دخل له في قراهم ومصالحهم وهذا
هو الذي كان علة الحرب الاولى التي اتينا على ذكرها لو يذكر القراء
ما كان من بطريق الموارنة وتعيينه اثنين من النصارى في كل قرية
للنظر في امور ابناء طائفتهم بالرغم عن مشايخ الدروز الذين كانوا
يعتبرون الحكم على هؤلاء القوم من حقوقهم الشرعية المقدسة نالوها اباً
عن جدّ ولم يهن عليهم ضياعها . ثم ان الموارنة الذين كانوا بحسب
هذا التقسيم الاخير وفي حكم الامير الدرزي وفي بلاده جعلوا
يتذمرون بدون موجب ويقولون ان تحكم الدروز لا يطاق وانهم

يفضلون الموت على الخضوع لامراء الدروز ويحركون الناس على الفتنة باغراء اساقفتهم وعمال بطريركهم وظهر في الحال ان جراثيم العداء وحب القتال كانت كامنة في الطرفين لا ينقصها الا النار فتلهب وتعيد الجبل إلى ما كان عليه . واما النصارى من غير الطائفة المارونية فكانوا يرضخون لحكم الامير الدرزي وعماله بدون تدمير اينما كانوا ويؤثرون حكم الدروز على حكم الاكبيروس ولذلك كانوا يساعدونهم اذا لزم الحال ولا بدع اذا نفر الدروز من حكم الاكبيروس الماروني بعد ان رأوا بقية الطوائف النصرانية تنفر منه ايضاً وتخاف الاضطهاد اذا علت كلمته وثبتت امرته . ورأى الاتراك ان اوفق الطرق لابقاء سيادتهم انماء العداء بين الطوائف واقامة امة على امة وكان ما كان بحيلهم ودسائسهم

ولما كثرت الشكوى من النظام الاخير بدأ رؤساء الطائفتين والحكام يتخابرون ويرتأون الآراء الكثيرة للتوفيق بين مصلحة الطرفين فكان الحكام الاتراك يرتأون الامور التي لا تمكن ويعارضون في كل رأي حميد ويختلفون له العراقيل فلما رأى القوم ان المخبرات لم تجد نفعاً عولوا مرة أخرى على الحرب والقتال وقال بطريرك الموارنة على مسمع من الجمهور « اما ان يسود الدروز علينا او نسود عليهم فلنبداً بالاستعداد لان الذي يضرب الضربة الاولى يصير اقرب إلى الفوز من خصمه » وهو قول صحيح علمه البطريرك بالرأي ولكن الدروز سبقوه إلى فعله وكانوا هم الغائمين . وعلى ذلك عاد جبل لبنان إلى حاله الاول وكان الموارنة هم المعتدين اذ قتلوا مكارياً من الدروز على

مقربة من نهر الكلب وبدأ الدروز يقتلون كل نصراي يعثرون به
ثم هبت الطائفتان للحرب على عادتها وبدأت الجماهير تنتظم جيوشاً
من الطرفين وتستعد لحرب عظيمة . وليس يعلم غير الله مقدار الفرح
الذي شعر به الاتراك من قيام اهل لبنان للحرب مرة أخرى فهم ابدأ
يسرون بهلاك الالم التي يحكمونها واضعافها ولطالما قال ولائهم على
مسمع من الناس عند بلوغ هذه الحوادث اليه اللهم اهلك الكافرين
بالكافرين وبناء عليه ارسلا إلى مشايخ الدروز يظهرون لهم الحب
والوداد على ما تعودت الناس منهم في هذه الاحوال ويشددون عليهم
بعدم التسليم للنصارى في شيء مما يطلبونه واوعزوا في الوقت نفسه إلى
رؤساء النصارى بالتقدم على الدروز ونحاربتهم مظهرين لهم الرضى
عن هذا الصنيع ما دام الحق في جانبهم . ولا يظن احد المبالغة في
هذا الكلام فقد اثبت قناصل الدول في تقاريرهم الرسمية ان الحكومة
التركية هي التي امرت الموارنة بالهجوم على الدروز وافتتاح القتال في
ذلك الحين

ولما بدأ العداء والقتال انحصرت الآمال في رجال دير القمر
وكانوا جمعاً غفيراً يمكن لهم ارسال النفي مقاتل إلى ساحة الوغى مسلحين
باحسن انواع السلاح التي يمكن لعامة الناس يومئذٍ مشتراها واشترط
اهل هذه المدينة على انفسهم وسواهم من ابناء طائفتهم الا تكون لهم
علاقة بالدروز من بعد ذلك اليوم ولم يسمحوا لاحد النصارى ان
يخلط بهم او يقتلونه قتلاً حتى انهم قتلوا خورياً من رؤساء دينهم
لانه لم يمتنع عن الاخلاط بالجنابلاط وخاف بقية الناس العاقبة

فجعلوا يجنبون الدروز في كل قرية ويضادونهم في كل امر. كل هذا والدروز صابرون إلى ان نتم معداتهم وتأتي الجماهير من وادي التيم وحوران لمساعدتهم لانهم لا يقدمون على الحرب الا اذا اجتمعت كل قواتهم ووثقوا بالظفر والنصر. وجاءت في تلك الاثناء اموال وافرة إلى بطريك الموارنة اعانة للذين نكبوا في الحرب الاخيرة فبدل ان يعطيها هذا الرئيس إلى الذين نهبت اموالهم وقتلت رجالهم وزعوا على نفسه وعمله يستعملوها آلة لاضرام نار الحرب الثانية وامرهم ان يدفعوا لكل محارب ينضم اليهم اربعة غروش في النهار ففعلوا ذلك واجتمع لديهم خلق كثير. ثم اتى الاكليروس الماروني كل حيلة لاقناع الناس ان تلك الحرب دينية وانه يجب على كل نصراني ان يقوم لمحاربة الدروز والمساعدة على اقتلاع آثارهم وطردهم من جبل لبنان وباليتمهم تعاونوا مع حلفائهم القدماء (الدروز) على مقاتلة الذين حرضوهم على هذه الامور وزرعوا بزور العدوان بينهم وطرد الاتراك من تلك البلاد التي ملأوها ظلماً وفساداً

وبدأت جماهير الدروز تفد على المختارة من كل انحاء بلاد الشام وتجتمع حول سراي سعيد بك جنبلاط لان هذا البيت كان كما قد منا شهر بيوت الدروز ولرئيسه صولة كبيرة فقد اشتهر الشيخ بشير جنبلاط إلى حد انه صير امراء الجبل وفي جملةهم الامير بشير الشهير آلة في يده فكانوا هم يحكمون بالاسم وهو يحكم بالفعل في جبل لبنان وعرف بالثروة الهائلة والدراية التامة ولم يزل بيت جنبلاط اغني بيوت لبنان إلى هذا اليوم. وورث المال والشرف سعيد بك جنبلاط عن

ابيه الشيخ بشير بعد ان امات احد اخوته واضطراً الآخر إلى التظاهر بالجنون والبله وحب الاعتزال مدة حياته . وكان سعيد بك يستقبل جماهير الدروز ويضيفهم ويقدم لهم الطعام وخليولهم العلف مدة تجمرهم في المختارة إلى ان تم الاستعداد وصار الدروز في مركز يمكنهم من مقاومة اعدائهم والفتك بهم كما فعلوا في السنة السابقة . واما النصارى فكان مركز استعدادهم في دير القمر وزحلة وعبيه تحت قيادة الامراء الشهابيين وكان الامير بشير الكبير إلى ذلك الحين حياً في مالطه فجعلوا يقسمون بانهم لا يرجعون عن الحرب حتى يفنى الدروز عن آخرهم ويعود الامير بشير إلى الحكم على الجبل . ثم ان الدروز صاروا يتظاهرون بحب المسالمة ويشكون النصارى إلى الحكومة وطلبوا اليها ان ترسل بعض عساكرها لتقيهم هجمات الموارنة . وكان الاتراك ينتظرون هذه الفرصة بذهاب الصبر فأرسلوا في الحال فرقا من جيشهم إلى الاماكن التي اجتمع فيها الدروز لتكون على استعداد لمساعدتهم والفتك بالنصارى كما فعلت في العام الماضي واعمى الله قلوب المسيحيين فنسوا الذي رأوه من الاهوال وعادوا إلى مهاجمة الدروز والاتكال على مواعيد الحكومة والوقوع في حبائلها وشراكمها

وبدأت الحرب في اليوم الثاني عشر من شهر ابريل سنة ١٨٤٥ اذ هجم الموارنة على كافة القرى التي اجتمع فيها الدروز ما خلا المختارة وصاروا ينشدون الاناشيد الحربية ويأتون الفطائع وهم يحسبون انهم قد تغلبوا على الدروز واخذوا بالثار منهم . وكان النصارى في قائمات الشوف — وهي في اول لبنان من ناحية بيروت — تحت قيادة

المطران الذي سار في طليعة المقاتلين و صليب النصرانية في يده فعلت الحكومة بحركاتهم واذنت لهم اذناً رسمياً بالمهجوم على الدروز ومحاربتهم ففعلوا ذلك وفازوا في اول الامر فوزاً مبيناً وقتلوا جماعة من الدروز وهجموا على القرى التي لهم في الشوف فدمروها ونهبوها وكانت عدتها اربع عشرة قرية . ولما اسكرتهم خمرة النصر تقدموا على اعظم مواقع الدروز وهي المخنارة مقر آل جنبلاط يريدون بلوغ المراد من اعدائهم فلما وصلوها رأوا جيوش الدروز فيها آمنة مطمئنة ومعها فرقة من جيش الاتراك نقابلهم الدروز وعساكر السلطان باطلاق البنادق ومدافع الحكومة وكسروهم شرّ كسرة فاضطروا إلى الفرار وترك الديار الاعداء واما في عبيه حيث اجتمع خلق كثير من النصارى تحت قيادة امرائهم من آل شهاب فجاء الدروز وحاصروا البلدة حصاراً شديداً وبطشوا بالنصارى فقلوا جموعهم وقتلوا العدد الوافر من رجالهم وحاصروا الامراء ومن بقي معهم داخل القرية . كل هذا وعساكر الاتراك واقفون يتفرجون على القتال ويضحكون من جهل النصارى وعمه قلوبهم فقد كانوا يردونهم عن الدروز ولا يردون الدروز عنهم وفعلوا ذلك في كل المواقع الماضية وما فتأوا يعتقدون الصدق في حكامهم الاتراك ويركنون اليهم ويتكلمون على تدبيرهم ولا غرو فهذا جزاء الجاهلين والمغرورين في كل بلاد . ولما طال الحصار على عبيه وسمع وكلاء الدول بهذه المصائب لم يبق للكولونل روز وكيل دولة الانكليز صبر على هذه الاحوال فسار بنفسه إلى تلك القرية ليرى في منع القتال وخلاص الامراء والباقيين من اعوانهم في حوزة الاتراك والدروز فلما

وصلها حاول قائد العساكر التركية ان يمنعهُ من الدخول فزجرهُ الكولونل وشهر الرقولقر في وجهه وقال انه سيدخل عبيه رضي الاتراك بالامر او لم يرضوا وانه اذا قتل او جرح جرّاً إلى بلاد الشام جيشاً من الانكليز يضني قوام المملكة التركية ويفني قواتها فخاف التركي على عادة قومه لا يدعون لغير القسوة والتهديد وسمح له ان يدخل القرية ففعل ذلك وخابر مشايخ الدروز والامراء ولم يمكن له ان يخلص النصارى المأسورين الا بعد ان رضي هؤلاء باعتبار انفسهم اسرى الحكومة التركية فسار بهم الكولونل روز بنفسه إلى بيروت بعد ان اخذ على الدروز المواثيق بعدم التعرض للنصارى في تلك الناحية وبعد المناوشات والمعارك الصغيرة في اكثر انحاء الجبل ارسل سعيد بك جنبلاط امراً إلى اخوانه الدروز ينهاهم فيه عن الحرب وكان ذلك بتوسط الكولونل روز وبعد التعب الكثير . ورأى غبطة البطريق ان الحرب عادت بالكسر والفشل على جنوده واعوانه فسكت واسكت عماله وعادت بذلك البلاد الى السكون بعد ان ظلت تتحارب وتنتاوش حوالي خمسة اعوام . ثم بدأ السفراء والباب العالي يفكرون في طريقة لمنع تكرار هذه الحوادث في جبل لبنان واصلاح حال حكومته وهذه عاداتهم لا يهتمون لصلاح البلاد التي يظلمها الاتراك الا متى تفاقم الخطب وعم الضرر وقتل الرجال ونهبت الاموال . فقرّ قرارهم بعد التعب الكثير على التعويل على نظام القائمقامين واحد للدروز وواحد للنصارى ولكنهم اعطوا امراء الدروز ومشايخهم حق السيادة على النصارى الذين في دائرة حكم الامير الدرزي على شرط

ان يكون لهؤلاء النصارى وكيل من طائفتهم يعاون الشيخ الدرزي على الحكم وسمي هذا النظام باسم شكيب افندي لانه هو الذي سنه في اوخر سنة ١٨٤٥ وكان هذا الرجل من ادباء الاتراك واصحاب الذمة والفضل فيهم

واما مدينة دير القمر فلما كانت واقعة في وسط بلاد الدروز وكل اهلها من النصارى فقد جعل الاتراك يغرون اهلها على عدم التسليم بحكم مشايخ الدروز عليهم وكانوا هم يكرهون اولئك المشايخ لانهم فتكوا بهم واذاقوهم المرّة في السنوات الخمس التي مرّت بدل ان يقوهم ويحموهم من بقيّة الدروز لانهم كانوا عمالاً لهم يزرعون لهم الارض ويقدمون لهم الاموال ويخدمونهم بالاخلاص والصدقة فنفروا من مشايخ ابي نكد واقسموا الا يبق درزي في بلدتهم ولا يحكمهم واحد من الدروز وبعثوا إلى الوالي يرجونه تعيين حاكم تركي عليهم فأجاب الوالي سوءهم وهو يرقص طرباً . وهكذا تمّ طرد الدروز من اعظم مدائن لبنان وتفرّغ اهل دير القمر للصناعة والتجارة فربحوا الاموال الوفرة وبنوا القصور الباذخة وزينوا صدور نسائهم بالآلي والجاواهر الباهرة ولاحت عليهم لوائح النعمة والثروة فطمعوا في الدروز وحقد الدروز عليهم فصاروا يتربصون الفرص الايقاع بهم ونهب اموالهم . وسوف يجيء في الفصل القادم تفصيل الاسباب التي دعت إلى عود القتال وحصول المذابح في سنة

الاهوال

فصل

في الحوادث التي أدت الى مجازر سنة ١٨٦٠

قلنا في الفصل السابق ان مبدأ الحاكمين نقرر نهائياً بعد حوادث سنة ١٨٤٥ ولما كانت بلاد الموارنة خاصة بهم لا يسكنها الدروز صار قائمقام النصارى لا سيادة له الا على ابناء حنسه ولكن قائمقام الدروز كان يحكم القرى الاخرى من جبل لبنان وفيها الدروز والنصارى مختلطين من عهد نشأة الطائفة الدرزية . ولذلك عظم شأن الدروز وتمكنت سيادتهم وصار معاونون الذين تعينوا من النصارى لمساعدة حكام الدروز كلاً شيء يهضمون ولا يأمرهم ويرون استبداد الدروز في بني طائفتهم ولا يقدرهم على اصلاح الامور . واشتدت جرأة الدروز الى حد انهم صاروا ينازعون النصارى في كل املاكهم ويضع كل واحد منهم يده على املاك جاره وجعل بعض مشايخهم يغزون القرى التي يسكنها النصارى حيناً بعد حين فيسوقون الانعام والخيرات بين يديهم ويسومون الرجال عذاباً مرّاً ولا حرج عليهم في ما يفعلون ورأى الاتراك ان كل حيلهم لم تنفع وان الجبل ظل لا هله ولم يملكوه فعادوا الى نغمتهم الاولى واخاروا الامير بشير ابي المم آل لاس الدسائس لانه كان مارونياً فدار هذا الامير واعوانه يكتبون

العرائض في حق القائمقام النصراني و يعرفون مساعيه مع انه كان
حكيمًا عادلاً ويعملون على نكايته ويتعرّضون لعماله وجباة الاموال في
الطرق ويتخطفون الحاصلات والماشية من اهل القرى فشكاهم الحاكم
إلى الوالي وطلب اليه المدد العسكري مراراً وتكراراً فلم يلق طلبه
قبولاً ولم يرض الاتراك بنزع الاعنداء وقع الثورة لان العيش لا يلد
لهم ولبنان هادئ مستريح من عناء الحروب الا اذا كان حكامه من
الاتراك واهله افقر الناس واذلم بين يدي هؤلاء الحكام

وتمادى الدروز في اظهار القوة والافتخار بالنصر ولم تردهم الحكومة
عن العنف والجور واذلال اعدائهم وكان اشهرهم في هذه الامور
سعيد بك جنبالاط فان هذا العميد تطرّف وافرط في ظلم النصاري
الذين كانوا في قبضته وصير نفسه اغني اهل الشام بما كان ينهبه يوماً
بعد يوم من املاكهم حتى انه استيخدم اناساً لحفر الاخنام كانوا لا
يبرحون بيته ومهنتهم الوحيدة حفر اخنام للذين يريد سعيد بك
اغصاب اموالهم واطيانهم وكتابة الاوراق المزورة ببيع تلك الاطيان
اليه وانتقالها إلى يده وتسجيلها في محاكم الجبل ولو ان احد هؤلاء
المظلومين عارضه في امر لما لقي غير الذل والعذاب الكثير فقد كان
هذا الطاغية يرشي والي بيروت فيعرض التركي عن سماع الذين
يشكون اليه فعاله واذا عاد المشتكي إلى بيته وجد رجال سعيد بك
بانتظاره فيوسعونه ضرباً مبرحاً وقد يعدمونه الحياة ولا يجسر اقاربه
على المطالبة بدمه وقد زاد في قحة هذا الظالم تقرب فصل الانكليز
منه وموادته وكان الانكليز يرون ان الموارنة اعوان فرنسا يعاونونها

على مدّ نفوذها وبلوغ مرامها فأروا ان يستميلوا الدروز اليهم و يجعلوهم
 حزبا لهم وكان سعيد بك جنبلاط اعلاهم مقاماً واكثرهم وجاهة وهم
 اشهر الناس في اتباع رأي اكابرهم فأظهروا له ما تقدم من الملائنة
 حتى صيروه واهل طائفته من حزبههم وكانوا اذا سمعوا عنه امراً
 يعرضون ويؤثرون بقاء طائفة الدروز على ولائهم على اعانة ضعيف
 من الناس ظلمه سعيد بك او احد اعوانه . ولهذا استخفّ الدروز
 بالنصارى وعمّ الاعتقاد بينهم ان الانكليز حلفاء الدروز واقاربهم
 وثبت هذا الاعتقاد عندهم من تصرف بطريك الموارنة وقسمهم
 لانهم كانوا يعتبرون الانكليز هراطقة وكفاراً مثل الدروز ويحرمون
 القرب منهم او الاختلاط بهم فظنّ الدروز ان الانكليز اقرب اليهم
 منهم إلى الموارنة وزادت جرأتهم واستخفافهم بنصارى لبنان وهكذا
 عادت الاحقاد وكان السبب فيها هذه المرة ايضاً دسائس الاتراك
 وبساطة الموارنة وحب الدروز للحرب والغنيمة

ومع كل هذا الضغط وهذه الاسباب لم يتأخر النصارى في جبل
 لبنان وضواحيه عن النمو والارتقاء وكانت اشهر مدائن النصارى في
 لبنان دير القهر وزحلة . وفي جنوبيه من بلاد الشام حاصبيا وراشيا
 وسنأتي على طرف من تاريخ هذه المدائن عند ذكر المذابح التي
 حصلت في كلٍ منها ولكن يكفي ان يقال هنا ان دير القهر كانت في
 ما سبق من الزمان من املاك الدروز والذين فيها من النصارى اجراء
 لمشايع بيت معن ومن عقبهم من اهل هذه الطائفة وآخر الذين تولوا
 امورها بيت ابي نكد من مشاهير الدروز فاستقلت منهم وطردهم منها

كما تقدم واثري النصارى فيها حتى لم تعد ترى ذكراً للدروز فيها إلا إذا كانوا من الخطابين والخدامين وكان النصارى يفتخرون بقوتهم وثروتهم وبشؤون بذلك طمع الدروز وحقدهم في كل حين . وكان أحد آل أبي نكد وهو الشيخ بشير أبي نكد من أعظم أعيان الدروز فأراد يوماً أن يبني له قصرًا في ضواحي دير القمر ومناعه النصارى في ذلك ممانعة كبرى حتى أنهم ابلغوه أنهم يخربون له ما يبنيه يوماً بعد يوم إذا هو أراد القرب من بلدتهم بعد أن طردت طائفته منها فاضطر إلى الرجوع عن عزمه ولكنه اضمر الشر للنصارى وقال عبارة تروى عنه إلى هذا اليوم كانت نبوءة بمستقبل الحوادث وهي « أني سوف ابني أساس بيتي برؤوس هؤلاء النصارى وعظامهم » وقد أتم ذلك بالفعل من بعد مجازر سنة ١٨٦٠

وأما زحلة فتمت في تلك المدة غموا هائلًا أوجب قلق الدروز وحسابهم لأنها كانت أمنع مراكز النصارى لا بدخاها غيرهم وصار عدد سكانها ١٢ ألف نسمة لا يقل عدد المحاربين منهم عن ثلاثة آلاف بطل وأكثرهم من طائفة الروم الكاثوليك . واتسعت تجارة أهل زحلة وامتد نفوذهم إلى حد أنهم صيروا البقاع في قبضتهم ومنعوا عنه تعدي الدروز وغزوات مشايخهم فاشتد الغيظ بالدروز واشتد الميل فيهم إلى الانتقام . وكثرت المخابرة بين زحلة ودير القمر في شأن الاتحاد على الدروز وحماية النصارى حين اللزوم فحفظ الدروز كل هذا وزاد ميلهم إلى الضرب والحرب وأما حاصبيا فكان عدد النصارى فيها لا يقل عن ٦ آلاف

نسمة أكثرهم من الروم الارثوذكس وبينهم حوالي ١٥٠٠ نسمة من الدروز . هؤلاء أيضاً اشتدَّ العداء بينهم لما تقدم من امور الحرب واخيانة وكان حکام هذه المدينة من آل شهاب الذين حافظوا على الاسلام فراوا من الدروز ميلاً إلى الاستقلال عن سلطتهم وتعرضاً كثيراً لأوامرهم وصاروا يستعينون بالنصارى عليهم وبدأ الفريقان يستعدان لاعادة الكرّ والفرّ . ومثل هذا يقال في راشيا وما يليها

لهذا بعض الشيء عن المدر الَّتِي حصلت فيها المجازر غير دمشق الشام وسنذكر تاريخها بالاختصار . واما بقية الاسباب الَّتِي حركت الناس على العود إلى القتال فأشهرها دسائس الحكومة التركية وقد اسهبنا في وصفها في الفصول الماضية وكان الدروز قد طمعوا في الحكومة وجأهروا بعصيان اوامرها لانهم راوا انها تعينهم على النصارى وقت الحرب واتفق معهم سرّاً وتزلف لرجالهم حتى يقوموا على جيرانهم فانتزعت كل مهابة لها من قلوبهم وصار مشايخهم المكلفون بجمع الاموال الاميرية يجمعونها ويأكلونها واكابرهم لا يدفعون المال المطلوب منهم إلى القائم وكما طالبهم الوالي بالمال حاولوه وماطلوه حتى لم يعد له سلطة عليهم . ولما انتشبت الحرب بين روسيا والدولة التركية نظاهر الدروز على عادتهم بحب الانتصار للمسلمين وعرض مشايخهم على الدولة ان تنظم جيشاً من ابطالهم لمحاربة الروس ففرحت الحكومة التركية بهذا الامر وارسلت لهم مائة وخمسين الف ليرا عثانية لتنفق على هذا الجيش فأخذ المشايخ المال وجمعوا الرجال ولكنهم ظلوا في مواضعهم لا يأتون غير الكلام حتى انتهت الحرب وغنم المشايخ

كل هذا القدر الطائل ولطالما سألتهم الحكومة بعدئذٍ تقديم الحساب ورد الذي لم ينفق من هذا المبلغ فلا قدموا حساباً ولا ردوا جواباً وزادت قحتهم وجراتهم وزاد ميلهم إلى الاستبداد واغتنام الغنائم في الحرب حتى كثرت جنایاتهم وزاد تعديهم عن كل حد وقتل اشقيائهم سبعمائة نفس من النصارى بلا ذنب ولا اثم في عشر سنين ولم تطالب الحكومة بدم هؤلاء القتلى مع ان البلاد لم تكن يومئذٍ في حالة الحرب وهذا هو عدل الحكومة التركية فانها اغضت عن كل قبائح الدروز ومنكراتهم حتى لا تحرم مساعدتهم حين اللزوم وتبقيهم آله في يدها يذبحون رعاياها الآمنين في ظلها كما رأيت منهم ميلاً إلى التقدم والارتقاء

وكانت نتيجة حرب القرم شوئماً وشرّاً على بلاد الشام واهلها ذلك ان الاتراك أنقوا من عود بلادهم اليهم على يد الافرنج وخافوا ان يعرف الناس ضعفهم واحسان اوربا اليهم فجعلوا يظلمون ويجهرون ويطشون بكل من عرفوا عنه الميل إلى الافرنج حتى لا يمتد نفوذهم في بلاد الشام ولا تضع الديار من قبضتهم . وكان قناصل فرانساء اسوء الحظ يكثرون من المراقبة والتشديد والضغط على الحكام الاتراك من بعد تلك الحرب ويظهرون القوة والاقتدار ويغيظون الحكومة التركية في كل امر حتى ان قنصلهم في بيروت كان يحتم على المسلمين بالوقوف له كما يقفون للوالي عند مرور عربته بهم فاذا لم يقفوا له نزل من العربة وجعل يجلدهم بسوطه جلدًا ويشتم اعزّ الامور عندهم ويكثر من احتقارهم . وكان الموارنة اعوانا لقناصل الفرنسيين يعاونونهم

على مدّ نفوذهم ومجاهرون بالانتفاء إلى الدولة الفرنسية حتى أنهم كانوا يملأون الجبل زينة كلما زارهُ أحد قناصل هذه الدولة وجعلوا يقدمون لَهُ قضاياهم ويحكمونه في أمورهم بدل عمال السلطان وصار الموسيوده لسبس قنصل فرانس وقتئذٍ في بيروت يستدعي اكابر المسلمين والدروز والنصارى إلى بيته فيأمر فيهم وينهي ويحكم في قضاياهم على ما يريد ويهوى ويظهر للناس بكل واسطة انه مراقب على حكومة السلطان وان قوة الدولة صارت كلها إلى قبضته ولطالما التى اناساً في السجن وافرّج عن اناس ونقل الارزاق من رجل إلى خصمه وحمى اصغر الخادمين في بيته من الحكم ولو انه ارتكب اعظم الجرائم

واتى اموراً مثل هذه هيئت مخاوف الاتراك والمسلمين عموماً اذ ظنّ الناس ان البلاد صارت إلى قبضة الافرنج واضطراً الاتراك من جرّاء فعالة هذه إلى الاهتمام أكثر من ذي قبل في تدبير المكائد ودس الدسائس وعمل الطرق اللازمة لخراب الجبل واعادة اموره وامور الشام كلها إلى ايديهم

وتشكّلت لجان من المسلمين في بيروت وصيدا ودمشق وحلب واكثر مدائن الشام كان الناس فيها يشكون من ضياع السلطة من يد الدولة الاسلامية وصيرورتها إلى يد الافرنج حتى انهم عزموا على اعادة مجد الاسلام وعزه مهما كلفهم ذلك وعوّلوا على قلب الحكومة التركية اذا كانت هي السبب في وصول الاسلام إلى تلك الدرجة المنخفضة

وظلّ أعضاء هذه الجمعيات يحرّضون المسلمين على القيام واكليروس الموارنة وقناصل فرانسوا يظهرون مياهم إلى اذلال المسلمين والدروز والاستبداد بالامور حتى سرى روح التعصب الشديد في كل البلاد وجعل الناس يتأهبون في كل مكان لتخلص من سيطرة الافرنج وانفة الموارنة و يعدون النفس بذبح النصارى عن بكرة ابيهم والاستئثار باملاك البلاد بعد انقراضهم

وحدث لسوء الحظ ان قائمقام النصارى في جبل لبنان مات في سنة ١٨٥٧ فأسرع الاتراك إلى تعيين جاسوسهم وآلّتهم العمياء مكانه وهو الامير بشير ابي الميع الذي سبق ذكره وكان هذا الامير من اول المحرّكين على قلاقل سنة ١٨٦٠ عملاً بالاوامر السرية التي كانت ترد اليه من الاتراك ولا ينقه معناها

ومات بطريك الموارنة ايضاً في تلك المدة فعقبه آخر لم يعرف آخره التهور مثل الذي سبقه فأعاد الكرة على الدروز وشدد على اعوانه بمقاومتهم ومضادتهم واهاج في صدر قومه حب الحرب واستئصال شافة الدروز لانهم كانوا اعداء دينهم واضطهد كل نصراني من غير طائفته حتى انه ساعد قومه على اغتصاب كنائس الارثوذكس وتدمير مدارس البروتستانت ولما علم ان البعض يلجأون إلى قناصل انكترا من ظلمه وفي مقدمتهم بعض المشايخ من بيت الخازن شدّد الوطأة عليهم واعر بقتل واحد من هذه العائلة الشهيرة مع ذويه ونهب امواله

وعمّ الاعتداء في سنة ١٨٥٨ و ١٨٥٩ بمساعي القائم الجديد

ودسائس الاتراك وجهل البطريق وكان الذين ينتفعون من تداخل انكلترا قد فقدوا ثقتهم برجالها لان القنصل في بيروت لم ينه سعيد بك جن بلاط عن قبائح ولان اللورد ستراتفورد ده رد كلف الذي كان سفيراً لانكلترا في الاستانة ويجب خير المسيحيين في بلاد الشام توفي في تلك الاثناء وخلفه سنير ضعيف الرأي ميال إلى عدم التداخل فلم يساعد الذين ظلموا من بيت الخازن بسبب نقرتهم من دولته مع انهم اكثروا من الشكوى اليه ولا سار على خطة سلفه في الدفاع عن المظلومين

وعلى ذلك وقعت بلاد الشام مرة أخرى في الفوضى وحاول عقلاء المسيحيين جهدهم ان يحركوا خورشيد باشا والي بيروت على ردع الذين كانوا يعيشون في الارض فساداً فما لقوا منه غير الاعراض والاصرار على الاضرار بالجليل واهله وبدأوا يستعدون للقتال وقلوبهم يحدتهم انهم كانوا على مقربة من الاهوال

وكان والي الشام في تلك الايام واسمه احمد باشا من اشد الاتراك كرهاً للعرب والمسيحيين واكثرهم ميلاً إلى ذبح الذين على غير رأيه وهو الذي اعطته الدولة التركية الحكم المطلق في ولايته فجعلته مشيراً للعساكر الشاهانية ووالياً مستبداً حتى يمكن له ان يقرض النصارى عن آخرهم

وقد كانت معظم الحوادث الَّتِي حدثت في سنة ١٨٦٠ بامر هذا الطاغية الظالم واخصها مذابح حاصبياً وراشياً والبقاع ودمشق الشام وهو الذي كانت الاوامر السريّة من الباب العالي بيده يوم

١٣٢ الحوادث التي أدت إلى مجازر سنة ١٨٦٠

جاءت لجنة التحقيق بعد المذايح فامر فؤاد باشا باعدامه قبل ان يتمكن
من ابراز تلك الاوامر . وكان خورشيد باشا والي بيروت
مثله في الرداءة وحب الانتقام من الابرياء
وسوف نشرح فعلهما في الفصل
القادم

حوادث
۱۸۶۰

فصل

في مذابح سنة ١٨٦٠

❖ حادثة بيت مري الاولى ❖

لما تهيات اسباب الحرب على ما ذكرنا في الفصل السابق واستعدت الافكار للقتال اذ لم يبقَ بدٌّ منه كثر الاعداء والقتل في انحاء الجبل وكثر تشكي النصارى إلى القائمقام وإلى الوالي التركي في شأن تلك الحوادث ولم تهتم الحكومة لايقاف سير تلك الحركة الهائلة فاصاب معظم الضرر النصارى والامراء الشهابيين المسلمين الذين كانوا حكاماً على وادي التيم . وحدث ان درزيًا قتل في انحاء حاصبيا واتهم اهل القتيل اعوان الامير الشهابي بقتله وطلبوا مالا طائلاً من الامير على سبيل الدية فانكر الامير طلبهم فاغار الدروز على حاشيته في نواحي الحولة وسلبوها واكثر وا من التعدي على اهل القرى فرأى الامير — وكان الامير سعد الدين شهاب هو الحاكم على حاصبيا يومئذ — ان سلطته ضاعت والتجأ من اجل ذلك إلى دمشق . وكثر بعد ذلك ربط الطرق في كل انحاء لبنان فقتل النصارى

رجالاً من جماعة سعيد بك جنبلاط وقتل الدروز نحو خمسة عشر رجالاً من النصارى في اقل من شهرين حتى عمّ الاضطراب وصارت البلاد الى حال يشبه الفوضى حتى اذا كان يوم ٣٠ اغسطس من سنة ١٨٥٩ حدثت حادثة بيت مري الاولى وهي اول حوادث هذه الحرب الهائلة وكانت مقدمة لما سيحي من الاهوال

واما بيت مري فقرية من قرى المتن في جبل لبنان على مسافة ٦ اميال من بيروت الى جهة الشرق وسكانها نصارى ودروز. ففي اليوم الذي ذكرناه تشاجر درزي ومسيحي من اولاد القرية وكأَنَّ الولد الدرزي قوي على النصراني واوسعه ضرباً فجاء ابوه وبعض اقاربه الى ابي الدرزي ووبخوه على ما بدا من ابنه ولما عادوا عنه دار الرجل على ابناء طائفته في القرية يحرضهم على مقاتلة النصارى وارسل اناساً الى الدروز في القرى المجاورة لقريته فما صدق هؤلاء ان سمعوا النداء حتى تجمعوا وهجموا على النصارى في قرية بيت مري مع دروزها فهبَّ النصارى لمقاتلتهم واطهروا بسالة فوق المعتاد وطردهم على كثرة عددهم. ثم وصلت نجدات اخرى الى الدروز فاعادوا الكرة على القرية وعادوا عنها خاسرين بعد ان قتل من الجانبين عدد كبير وكان قتلى الدروز يزيدون عن قتلى النصارى ٢٨ قتيلاً واذ لم يكن من منصف اتسعت دائرة الشر والعدوان فذهب المدعو يوسف عبد الملك وهو احد مشايخ الدروز برجاله وسلب ثلاث قرى للنصارى مجاورة لبيت مري واحرقها عن آخرها غير مبالٍ بشر ما فعل. ولما علم خورشيد باشا والي بيروت حينئذ بما جرى ورأى بان هذه الاعمال المنكرة ستؤول

إلى اضرام نار الثورة الاهلية في جميع انحاء لبنان وان قناصل الدول
العظمى في بيروت تلاحظ كل هذه الحركات ذهب بنفسه لتلك الجهة
مظهراً رغبة شديدة في اخماد الشر وايجاد الراحة وانصاف المظلوم من
ظالمه فاوقف سفره الحركات العدائية الجارية وسكن الامور واوجد
الامن الا انه امتنع عن مقاصة المذنبين وقصر عن تحصيل حقوق
النصارى فكان سفره وسيلة لازدياد جراءة الدروز واخمارهم متابعة
الشر والعداء . ولما رجع الى بيروت عاد الدروز لاستئناف الشر
بعد ان علموا بان لارادع لهم ولا مسئولية عليهم فاخذوا ينكلون
بالنصارى اينما صادفهم طمعاً باموالهم ومقتنياتهم وشفاء لداء الحقد المزمع
الكامن في صدورهم فقطعوا الطرق وعاثوا وسلبوا ونهبوا وقتلوا غير
مبالين بالعواقب . وقد اوجبت اعمال الدروز هذه على النصارى ان
يقابلوهم بمثلاً دفاعاً عن انفسهم وصيانة لحقوقهم وهكذا قتلوا هم ايضاً
بعضاً من الدروز فكان الويل كل يوم يزداد عن امسه حتى باتت
تلك الجهة مسرحاً للتعديات المستمرة ولسوء الحظ لم تهتم حكومة بيروت
بالامر اهتماماً صادراً عن نية سليمة . فان خورشيد باشا المار ذكره
لما رأى امتداد الثورة بعد رجوعه المرة الاولى وانها وصلت الى قرية
الحازمية التي تبعد ساعة عن بيروت واخذت تمتد منها للجهات المجاورة
اظهر لقناصل الدول العظمى في بيروت تصميمه على الذهاب الى تلك
الجهة لاخماد الفتنة وتسكين الثورة ونجاسة كل با يستحق وسافر
مصحوباً ببعض العساكر . الا انه عوضاً على ان يدخل الامور من
ابوابها ويجري التحقيقات اللازمة ويقاص من يستحق القصاص وينصف

المظلوم من ظالمه اتي ما اتاه في المرة الاولى فلم تكن نتيجة سفره الا ان سكنت الامور وقتياً والفضل بسكونها للطبيعة حيث دخل فصل الشتاء ببرده وثلوجه فبردت معه حركات العدوان

✽ الاستعداد للحرب ✽

وقد تشجع النصارى وثقوت قلوبهم من بعد هذه المعركة لانهم حسبوا انه اذا كان نصارى بيت مري على قلة عددهم وعدم اشتهارهم بالبسالة قدروا على طرد كل اولئك الدروز والانتصار عليهم فلا بد ان نتم العظام على يد اهل زحلة ودير القمر وحاصبيا وجزین وغيرها من القرى المشهورة بكثرة النصارى فيها وبسالتهم . وزيادة على ذلك ان كسروان من اوله الى آخره كان أهلاً بالموارنة وهم الذين كان قسمهم يحرّضون على القتال و يعدون النصارى بالنصر . ثم ان نهوض الدروز لمحاصرة بيت مري والتظاهر بالعداء والمناداة بالحرب لغير علة توجب هذه الامور ومجيء اهل القرى المجاورة لاعانة اخوانهم في بيت مري في اقل من نصف نهار اظهر للنصارى ان الدروز كانوا متواطئين على الايقاع بهم مستعدين للهجوم عليهم حالما تجيء الفرصة المناسبة . ولما هدأت الاحوال بعد تلك المعركة ولم تجاز الحكومة الدروز الذين بدأوا بالعدوان ولا ارجعت للنصارى الذين احرقت قراهم شيئاً من الذين اضاعوه مع كثرة الحاحهم في طلبه ظهر للملأ ان الحكومة ما اوقفت سير القتال الا لانها تنوي تأجيله الى وقت آخر لا لانها كانت تحب السلام وعرف القناصل وقتئذ ان الحكومة تقدر على قمع

ثورة الثائرين ورد اهل لبنان عن بكرة ابيهم إلى طاعتها والرضوخ
لاوامرها اذا هي استعملت الحزم واخلصت في العمل ومن هذا يظهر
ان الدروز ما قاموا في السنة التالية الا بامرها وسوف يتضح ذلك بأجلى
بيان عند ذكر المذابح

وتحرك المسلمون في المدن على عاداتهم يريدون التمسك بالنصارى
بعد حادثة بيت مري واشتد نفور الدروز من جيرانهم وكثرت
خيالاتهم . ومن غرائب الامور ان بعض مشايخ هذه الطائفة نزلوا إلى
مدينة بيروت في الشتاء وقضوا كل ذلك الفصل فيها ولم تسبق لهم
عادة بذلك وكانوا في تلك المدة مجتمعون كل ليلة في بيت الوالي
خورشيد باشا وغيره من الحكام ويتشاورون ويكتبون إلى اهل
طائفهم الكتب الكثيرة فلم يبق ريب في انهم كانوا يتداولون مع
الحكومة في طريقة قتل المسيحيين عن بكرة ابيهم في كل انحاء الشام .
ولم يرجع هؤلاء المشايخ إلى مواطنهم الا في اوائل الربيع من سنة
الاهوال اي سنة ١٨٦٠

وفي شهر ابريل من تلك السنة وردت على خورشيد باشا تعليمات
من الاستانة لم يعلم الناس فخواها ولكن الخبر ملا بيروت في الحال بان
السلطان قد اصدر فرمانا باعدام النصارى وقتلهم عن آخرهم وارسل
خورشيد باشا الكتب والرسل إلى سعيد بك جنبلات في المخنارة عقيب
وصول تلك التعليمات فحالمًا قراها سعيد بك ارسل رجاله يدورون على
قرى لبنان وبدأت جماهير الدروز تقد الى المخنارة من ذلك اليوم فلم
يبق ريب في ان تلك الكتابة التي جاءت خورشيد باشا من

الاستانة كانت تصرح له باعدام النصارى واهمل على استئصالهم من البلاد . ثم جعل اشقياء الدروز يقتلون كل من وقع في ايديهم من النصارى فخاف هؤلاء المساكين على ارواحهم وهرب العدد الوافر من كل القرى الصغيرة الى جزين ودير القمر وزحلة حيث كانوا يأمنون على ارواحهم نظراً لقوة النصارى في تلك القرى . ثم قصد بعض الدروز دير عميق على مقربة من دير القمر وقتلوا رئيسه وهو يصلي لربه ونهبوا ما فيه من الادوات الثمينة فاشتد غيظ النصارى وجعلوا يتأهبون للقتال في القرى الكبرى التي ذكرناها حتى ان اغنياءهم كانوا يجودون على فقرائهم بالمال ويعطونهم الاسلحة والذخائر استعداداً للحرب ولكنهم لم يمدوا الى الدروز يداً

✽ معركة عين دارا ✽

ولما لم يبق ريب في ان الدروز ينوون اعادة الكرة على النصارى تقدم اهل زحلة وعدتهم ثلاثة آلاف بطل على قرية للدروز اسمها عين دارا فقابلهم فيها ستمائة درزي من اهلها وحاربوهم فيها النهار بطوله وردوهم خاسرين مع انهم لم يزيدوا عن خمس النصارى في عدد الرجال . وتشجع الدروز بهذا الانتصار فجمعوا على قرى كثيرة من المتن وهو الذي حدث فيه معركة بيت مري التي مر ذكرها وقد رزى هذا القسم من لبنان بالاهوال اكثر من غيره واحرق الدروز فيه ستين قرية للنصارى واعملوا السيف في اهلها ونهبوا كل ما وصلت اليه ايديهم فيها . وظهر من معركة عين دارا هذه ان الدروز يفوقون

النصارى في امور الحرب قدر ما يفوقهم النصارى في كثرة العدد فقد كان النصارى يسيرون بلا قائد ولا نظام وحدث في معركة عين دارا ان بعضهم كان يضرب النار على البعض الآخر والدروز يهاجمونهم على قواعد معلومة ويعملون بأمر رئيس واحد في حين ان النصارى كانوا كلهم رؤوسا لا يخضع الواحد منهم لغيره وهذا هو السبب في فشلهم . ومن حسن حظ الدروز ان اكابرهم اشجع واعقل من قواد النصارى وهم اميل إلى الحرب ولهم كلمة نافذة في من دونهم من اهل طائفتهم واما النصارى فاكابرهم رؤساء الدين او التجار الذين يخافون من اسم الحرب وان كانوا يحرّضون الناس عليها وليس بينهم واحد يصلح للقيادة والرئاسة واما عامة النصارى وعامة الدروز في جبل لبنان ففي درجة واحدة من البسالة

✽ دروز حوران ✽

ولما كان مشايخ الدروز يعلمون بمصير الامور وقد نواوا بامر الحكومة قتل كل النصارى ورأى سعيد بك جنبلاط ان قوة الدروز في لبنان لا تكفي لهذه الغاية اذا تأخر عساكر الاتراك عن المساعدة اللازمة ارسل إلى زعيم الدروز في حوران وهو يومئذ اسماعيل الاطرش كتابا يقول فيه ان النصارى قد فتكوا بالدروز وقاموا عليهم في كل بلدة فنكوا بالرجال وسلبوا النساء ونهبوا الاموال وقتلوا العاهزين والاطفال وان طائفة الدروز صارت على وشك الانقراض وهي ترجو من اخواتها في حوران الاسراع إلى انقاذها من يد الاعداء . ثم انه

امر بحرق هذا الكتاب من اطرافه الاربعة علامة الخطر الشديد
 وبعث به مع رجل يعتمدُه وافهمُه ان يقول ما يوافق مضمون ذلك
 الكتاب حتى ينهض همة الدروز في حوران المجيء واعانتهم على النصارى
 في الحال وقد أثر ذلك الكتاب التأثير المطلوب فان اسماعيل
 الاطرش قرأه على مسمع من رجاله واعوانه فصاحوا بالويل والثبور
 ونادوا بالحرب وعظائم الامور واقسموا انهم لا يستريحون حتى يأخذوا
 لبني امتهم بالثار و يقلعوا من النصارى الآثار . ومن غريب الامر
 ان ثلثة آلاف بطل من ابطال الدروز اجتمعوا حول بيت اسماعيل
 الاطرش بعد وصول ذلك النبأ بيومين وحال اجتماعهم قاموا لنصرة
 اخوانهم في جبل لبنان ونقدموه ينشدون الاناشيد الحربية
 وقد جعلوا وجهتهم وادي التيم حتى يقتلوا اهلها
 ويتقدموا منها على دير القمر وزحلة
 وهذا بيان مذبة حاصبيا
 التي قصدها هؤلاء
 الرجال

فصل

في حاصبياً ومذابجها

نرى اتماماً للفائدة ان نأتي على طرف من وصف حاصبياً وتاريخها
قبل التقدم الى ذكر المذبحة فنقول :

حاصبياً مدينة وادي التيم وهي واقعة على نحو ٤٦ ميلاً من شرقي
دمشق في عرض ٣٣° ٢٥' شمالاً وطول ٤٠° ٣٥' شرقاً تقريباً. وتاريخها
غامض لا يعرف منه الا القليل من يوم فتحها الامراء الشهابيون
وكان هو لاء الامراء يسكنون مدينة شهباء بحوران في القرن الثاني
عشر بعد المسيح فلما شق صلاح الدين الايوبي وزير مصر عصا الطاعة
للسلطان نور الدين الخليفة بدمشق خاف الشهابيون ان تقع نكبات
الحرب عليهم فجمع اميرهم منقذ سائر الامراء وكبار قومه و اشار عليهم
بالرحيل فراراً من مطالب السلطان نور الدين وتخلصاً من محاربة
صديقهم صلاح الدين . فاجابة الامراء والكبراء الى ذلك ورحلوا
بعيالهم ومواشيهم واموالهم حتى جاؤوا ونزلوا على جسر بنات يعقوب .
فلما علم السلطان نور الدين برحيلهم بعث اليهم رسالاً يسألم عن سبب
رحيلهم ويحثهم على الرجوع الى اوطانهم . فعاد الرسل واخبروه ان
الشهابيين عقدوا النية على الرحيل وعدم الاوبة الى حوران فكتب
الى اميرهم منقذ رسالة حوت ارق العبارات والطف المعاني ووعدوه

انكم لئن عدتم الى وطنكم فاني لادفع عنكم كل خير واغمركم بكل فضل
وخير وحمل الرسل الخلع السنيّة والهدايا الفاخرة وبعثهم بها إلى
الشهابيين . فاجابه الامير منقذ اننا حيث كنّا فنحن عبيد شوكتكم
نستظل بظل حمايتكم ولا نسير الا بأمركم غير انّا نستأذن جلالكم
بالرحيل من حوران فانها لا تقوم بمرعى انعامنا وقوت عيالنا . فاذن لهم
السلطان نور الدين فعبروا الجسر وتوجهوا نحو وادي التيم وفي مقدمتهم
ثنا عشر اميراً والف فارس شاكو السلاح وكانت عدد القبيلة نحو
خمسة عشر ألفاً فنزلوا في يبداء الظاهر الاحمر

وكانت حاصبياً يومئذٍ بيد الافرنج معززة بالحصون والابطال
وكان الكونت اورا حاكماً عليها فلما سمع بقدوم الشهابيين استنجد بقاعة
الثقيف فانجذته بفرقة من الجنود فضمها إلى حامية المدينة وخرج
نحاربهم في مرج عيون . وقام العرب ايضاً لقتاله وصبروا عليه حتى
عبر بجنوده نهر حاصبياً وقد استحققوا بالعرب لقلة عددهم فحملوا عليه
حملة واحدة وهو يصف جيشه للقتال فتقهقر مشاة الافرنج مذعورين
وكان جل الاعتماد عليهم اذ كانت فرسانهم دونهم تحنكاً وانتظاماً فلما
رأى هؤلاء ما كان من المشاة لم يخرجوا من مراكزهم . وفي اليوم
التالي عبر احد الافرنج النهر وقصد العرب يطلب المبارزة فخرج الامير
نجم ابن الامير منقذ لمبارزته . ولما دار بينهما الكرّ والفرّ والطعن
والضرب ابتدره الافرنجي بضربة فاس فقطع رمحاً نصفين . فلما رأى
الامير نجم ذلك وعلم ان ضرب السيف لا يقطع في قرنه الغائص في
الزرد والشولاذ وثب على متن جواده وتعلق به فسقطا كلاهما على

الارض يتصارعان . وكان الافرنجي متقللاً بالسلاح والحديد ولكنه لم يبال بذلك لضخم هامته وعظم قوته . فلما شعر الامير نجم بذلك احنال عليه فاستلَّ خنجره (خنجر الافرنجي) من منطقته وضربه به فقتله . وكان العرب قد اجتمعوا خفية في زيتون المخاضة اثناء هذه المبارزة التي جرت في سهل الخان حيث تقام اليوم السوق المعروفة بسوق الخان . فلما رأوا ما كان عبرت فرسانهم على جسر النهر وخاضت نياقهم نخاضته . وكان العدو نازلاً في تلك النواحي فارسل عليهم سهامه كالمنظر الوابل وقتل منهم خلقاً كثيراً واجبر ركاب النياق على ان يقفوا للمدافعة . واما الفرسان وكانوا نحو الالف فصعد بهم الامراء في طريق العرضية تحت السهام حتى احدثوا بأسوار حاصبياً فكوموا هناك الحجارة والاختشاب لتقيهم من النيران التي يرميهم بها حامية المدينة من الحصون . فلما رأى الافرنج ذلك تفرقوا ايدي سبا وصعد الركب وعددهم الف وخمسمائة رجل حتى انضموا إلى الفرسان فسلموا النياق لمن يحرسها وانتظموا كالجند المشاة

وفي اليوم الثالث حاربوا العدو بالسهام حتى دنا الظلام فنضدوا الخطب على ابواب المدينة وتهددوا اهلها بحرقها ان ابوا التسليم . فخاف الكونت اورا سوء العاقبة وحسب ان قومه يمدونه بالرجال ويفرجون عنه الكرب بعد زمان قصير فسلمهم المدينة على ان كل افرنجي يسلمهم سلاحه وبيارح المدينة سالماً واما هو فاصطفى خمسمائة بطل من قومه وحاصر بهم في قلعة المدينة (لعلي السراي) فشدد العرب عليه الحصار ونصبوا المنجنيق على ابواب القلعة واقاموا الحجارة الكبيرة في

ثلاثة اماكن بجانب جدرانها حتى صارت على مساواة الحصون واستمرّوا في الحصار عشرة ايام واورا وقومه يأبون التسليم آمين ان يأتيهم المدد حتى فتح العرب القلعة عنوة وقتلوا كل من كان فيها بمجد السيف حنة ١١٧١ للمسيح وبعث الامير منقذ برؤوسهم الى السلطان نور الدين يبشره بذلك النصر العظيم فارسل نور الدين الخلع السنية والهدايا الفاخرة له ولامراء عائلته وكبار قومه . وولاه على حاصبيا وما جاورها وظلت حاصبيا تحت حكم الشهابيين إلى عهد قريب

مذبجة حاصبيا سنة ١٨٦٠

وحاصبيا الآن قصبة وادي التيم ومركز الحكومة وهي واقعة على قاعدة جبل الشيخ الغربية وبالقرب منها النهر الحاصباني المنسوب اليها وحولها كثير من الحدائق والبساتين ذات الازهار والمناظر الجمجة وعلى شواطئها كثير من شجر الدفلاء والدلب والخور ويكثر في حاصبيا الكرم والزيتون والتين وتوت الحرير وبالقرب منها معادن الحجر المشهورة والحديد وعلى بعد نصف ساعة منها إلى جبة النهر خان قديم يظن بأنه من ابنية الصليبيين وفي كل اسبوع يوم الثلاثاء يصير فيه سوق يأتيها الناس بفضائهم من الجهات المجاورة فيروج سوق البيع والشراء ويتجر اهل حاصبيا مع وادي التيم ومرج عيون وفي حاصبيا سوق تحوي على نحو مئتي دكان ومنظر ابنيتها حسن وبأهلها ذكاء وجمال وبأس ونشاط على الاعمال وفيها كثيرون من الامراء الشهابيين الذين حافظوا على الاسلام

وفي هذه المدينة دور اهمها السراي التي جرت فيها المذبحة الوحشية كما سيأتي وهي دار متسعة جداً تحوي على القاعات الفسيحة والقصور الشاهقة و بناؤها كان على طرز دور دمشق من حيث الترتيب والانتظام وقد كان عدد سكان اهالي حاصبيا في سنة ١٨٦٠ نحو ستة آلاف نسمة اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارثوذكس والباقيون دروز ومسلمون وبها جوامع وكنائس وللدروز بالقرب منها معابد مشهورة يسمونها بخلوات البياضة فيها بعض من اهل التقشف والزهد منهم ٠ وقد كان بها سنة ١٨٦٠ نحو ٢٥ اميراً من آل شهاب المسلمين وكان الشهابيون حكامها وحكام البلاد المجاورة لها وقد تسرفوا في كل ايام ولايتهم عليها بالحسنى مع النصارى وغيرهم ولذلك كانت الناس يحبونهم الا الدروز لاسباب ذكرناها

ونقدمت تلك المذابج الدموية الهائلة اعمال مريعة اقل منها جرماً واتساعاً وكان النصارى يشكون من ذلك ويوصلون شكائهم إلى آذان احمد باشا في دمشق بواسطة البطريركخانات واخصها بطريركخانة الروم الارثوذكس التي كانوا يرسلونها كل يوم بما هو واقع عليهم من التعديات والخطر وهي مع غيرها تعرض ذلك على احمد باشا والي الشام وهو رجل اشتهر بالخباثت وسيأتي ذكره وتطلب منه تلافي الامور وكف العداء فكان يعدها باجراء ما يجب من هذا القبيل ويظهر لها التطمين ويدعي انه ساع في حسم الشر وكف العداء عن المسيحيين وكان عند ما يخلو بأصحابه ويدور الحديث بينهم على الحوادث الجارية الخطرة يقول ربنا اهلك الكافرين بالكافرين واجعلنا بسلام منهم ٠

ومن الحوادث التي سبقت مذبحه حاصبيا الكبرى في اثناء هياج الدروز واستعدادهم للثورة ان شقياً من دروز لبنان وجد قاطعاً الطريق على اطراف قضاء حاصبيا وقد افسد الحال على المارة في تلك النواحي حتى صار المرور خطراً فارسلت فرقة من العساكر الكف شره فظفرت به وقتلته فكان قتله امراً عظيماً على طائفته زاد عنفها على الامراء والنصارى . ثم حدث ان ثلاثة من امراء الشهابيين كانوا يحمل يسمى تل القاضي فسطا عليهم عشرون فارساً من دروز حاصبيا ولبنان ومجدل شمس وسلبوهم خيولهم وسلاحهم وجرحوا احدهم جرحاً بليغاً في وجهه لامتناعه عن تسليم سلاحه وبعد تفاقم شر الجماعة وازدياده حضر رجل يسمى حسن الطويل من دروز لبنان يصحبه خمسون فارساً إلى النهر الحاصباني وكن في تلك النواحي لقتل من يجده من النصارى فعلم الناس بامرهم فمتنعوا عن المخاطرة بانفسهم فازداد نقداً ففقدت لذلك امنية الطرقات وباتت السبل مقطوعة بالكيّة واذ لم يتمكن هذا السقي ومن معه مما قصدوه هجم ليلاً على قرية الخوش من قضاء راشيا الوادي وسكانها من النصارى فقتل ثمانية اشخاص منهم والباقي لجأوا إلى الفرار فنهب القرية واحرقها بالنار عن آخرها فتسبب عن عمله هذا ازدياد خوف النصارى وقلقهم وظلت الحالة تؤذن بالخطر الشديد الى ان جاء يوم الجمعة في ١٢ ايار (مايو) شرقي حينما كان اهالي حاصبيا والقرى المجاورة مجتمعين في سوق حاصبيا للبيع والشراء فحضر للسوق رجل درزي يسمى علي طيفور من اهالي قرية شويّا وصاح بقومه بقصد تهيجهم قائلاً هنا مثنا خيال من دروز حوران قد حضروا لمرج شويّا

« فكل غزوة تلحق بقطيعها » وكان الخبر كاذباً ولكن تسبب عنه ارفضاض السوق ومن ثم أخذ الدروز يستعدون للقتال وينقلون حريمهم واولادهم ومتاعهم إلى قرية شويّا الواقعة على مسير نصف ساعة من حاصبيا لانهم جعلوها نقطة مركزية لحركاتهم الحربية وانضم اليهم فيها اكثر من الف مقاتل من دروز مجدل شمس واقليم البلان وبلاد راشيا حتى زاد مجموعهم على الزين وخمسائة مقاتل . واما نصارى القرى التابعة لحاصبيا فلما رأوا من الدروز هذه الاعمال تواردوا بعيالهم ومتاعهم إلى حاصبيا واستعدوا لمقاتلة اعدائهم عند ما يبدأ القتال

وفي غلس السبت الواقع في ١٩ ايار (مايو) شرقي سنة ١٨٦٠ ارسل الدروز شراذماً منهم نهبوا واحرقوا قرى النصارى وخذوا بالاعنداء عليهم فقتل النصارى في ذلك اليوم وهم يحامون عن ديارهم بضعة اشخاص من الدروز على اطراف حاصبيا

وفي صباح الاحد الواقع في ٢٠ مايو شرقي خرج الدروز من قرية شويّا فرقاً فرقاً بالبيارق والحداء (الاغاني الحربية) ثم تجمعوا شطرين وهجموا على اطراف حاصبيا من الجنوب والشمال الشرقي حيث كانت جموع النصارى متهيئة لدفع قوات المهاجمين واشتبك الحرب بين الجانبين نحواً من ساعة فوق وقع الفشل في صف النصارى الجنوبي ونهقر رجاله فتبعهم الدروز يصلونهم ناراً حامية فأدخلوهم البلدة ودخلوا وراءهم واخذوا يحرقون بيوت النصارى . اما صف النصارى الذي كان يقاتل في الجهة الاخرى فانتصر على اعدائه غير انه لما رأى الحريق في البلدة وعلم بما اصاب الصف الآخر ترك مراكزه وعاد إلى

البلدة وكان الدروز قد تمكنوا منها ودخل النصارى جميعاً إلى سراي
الامراء الشهابيين حيث كان العسكر فأخذ الدروز حين ذاك يطلقون
الرصاص على السراي فقابلهم الامراء والنصارى بالمثل وحي وطيس
الحرب حتى بلغت الساعة الحادية عشرة نهاراً فتقهقر الدروز تاركين
عدداً من القتلى وهكذا انتهى القتال بذلك اليوم بخسارة نحو من
اربعين شخصاً من الجانبين . وكانت عساكر السلطان واقفة تشهد
القتال ولا تبدي حراكاً

وفي اليوم التالي وهو الاثنين في ٢١ مايو سنة ١٨٦٠ اعاد الدروز
وانتشروا قبالة السراي واطلقوا طاقاً اشارة اتفقوا عليها مع قائد العساكر
التركية لافتتاح الحرب فرام النصارى مقابلتهم بالمثل فمنعهم عثمان بك
فأما العساكر وقال بما ان قتلاهم وقتلهم متساوون عدداً فأنا اصلح
بينكم وبينهم وخرج من السراي واجتمع بأعيان الدروز برهة في خلوة
البياضة المشرفة على حاصبيا وعاد إلى السراي . وعقب ذلك الاجتماع
ازدادت جراءة الدروز وقتلهم فأخذوا يهبون كما يجدونه في بيوت
النصارى عموماً ويحرقون ما كان باقياً منها حتى لم يبقوا على شيء وأعين
عثمان بك ورجاله تنظر ولسانه يكرر التطمين . اما الامراء الشهابيون
فالتجأوا إلى بعض بيوت الدروز وقاية لارواحهم وبقى النصارى بنسائهم
واولادهم مخوفين بالمكارة والرعب والجوع الا عائلة غبريل بقيت
خارج السراي لان كبيرها المرحوم ميخائيل غبريل منع عائلته من
دخولها والتجأ بها إلى دار السيدة نائفة جنبلاط شقيقة سعيد بك جنبلاط
البناني المار ذكره

ومما هو خليق^١ بالذكر هنا ان الامر والنهي صار كله إلى يد الست نائفة في النحاء حاصبيا حتى صارت هي المحكمة المطلقة في الاموال والارواح . وكان الامراء الشهابيون من زمان بعيد يطلبون إلى احمد باشا والي الشام ان يساعدهم على حفظ الامن في البلاد ويرسل اليهم قوة عسكرية لهذا الغرض فلم يجب طلبهم الا في هذه الاثناء اذ ارسل اليهم قائما^٢ عسكريا هو عثمان بك ومعه خمسمائة جندي من الاتراك وكان ارسلهم لقتل النصارى لا لحفظ الامن كما ترى . ولما احسوا الخطر بالنصارى جمعوا خمسمائة ليرا عثمانية وقدموها هدية إلى عثمان بك ليرضى عنهم ويخلص في حمايتهم لانهم يعلمون ان التركي لا يعمل الا بالرشوة فأخذ هذا اللعين المال منهم ووعدهم بما يريدون وخان العهد شأن غيره من بني قومه الغادرين . واغرب من هذا ان سعيد بك جن بلاط جاء حاصبيا بنفسه في هذه المرة وتحدث مليا مع عثمان بك والاغا التركي الذي ارسل للمحافظة (كذا) على راشيا ومنع الاعتداء فيها وعاد إلى المختارة بعد ان اتفق على كينية ذبح النصارى بالخيانة والغدر شأن الجبناء الاندال الساقطين فوافقه معتمد السلطان على ما اراد . وبعد انصراف سعيد بك ألح بعض النصارى على عثمان بك بضمان ارواحهم فأعطاهم كتابا رسميا بختمه يضمن لهم فيه المحافظة على ارواحهم واموالهم وحملهم على الطمانينة باسم السلطان . ثم ان هذا الضابط التركي منع الناس من ادخال الطعام إلى النصارى الذين أصبوا سجناء في السراي فلم يدخل اليهم الا الخبز والماء حتى لا يذوق اولئك المساكين لذة ويبقى افرادهم على قيد الحياة ليقتلهم الدروز قتلا

وكانت هذه الاخبار قد وصلت دمشق فثار البطارقة والقناصل واعيان النصارى وبعض اصحاب الذمة من المسلمين وتوجهوا كلهم في ساعة واحدة إلى احمد باشا الوالي يد المونة المهمل على وقاية النصارى فتعلل واعتذر بقاءه العساكر في البلاد وشدة الاضطراب اليها تجمع الثورة في البقاع وحوران وما لم يمكن لهم اقناعه بارسال الجنود الكافية لرد الثائرين ووقاية الارواح في حاصبيا رجوه ان يأمر عثمان بك ومن معه بنقل النصارى عن بكرة ابيهم إلى دمشق الشام فلم يقدر على الامتناع واصدر الامر بذلك وارسله في الحال مع احد ياورائه ولكنه اتبعه بامر آخر يالغيه . ووصل الامر المذكور يوم وصول نجدات الدروز إلى حاصبيا تحت أمره كنج العباد وعلي حمادة كما سترى فقرأه عثمان بك لجماعة السجناء ففرحوا فرحاً لا يوصف وبدأوا بالدعاء للسلطان والوالي وعثمان بك وهنأوا بعضهم البعض ونسوا كل مصائبهم الماضية وهم يظنون انهم سيصيرون في دمشق في اليوم التالي فينجون من الخطر ويسلمون ولكن الامر لم ينفذ ووقع بالنصارى الذي حسبته لهم العارفون

وقد كان عدد الدروز يتزايد يومياً مما يرد اليهم من الجهات المجاورة قصد الغنمة والفتك فيزدادون بذلك شدة وقوة و يوم الجمعة في ٢٥ مايو طلب الدروز من عثمان بك المار ذكره تسليمهم جميع أسلحة النصارى ليؤمنوهم على ارواحهم او انهم يدخلون السراي عنوة فيقتلونهم عن آخرهم فلبى عثمان بك طلب الدروز وطلب من النصارى اسلحتهم جميعاً ليسلمها لاعدائهم فتردد اولئك المنكودو الحظ لتصورهم بالامر

مكيدة وبكوا لديه قائلين ان أخذ سلاحنا شرك هلاكنا فاعفنا منه
 حماك الله اما ذلك القاضي فلم يقبل لهم عذراً واجبرهم على تسليم اسلحتهم
 مطمئناً لهم متعهداً بحمايتهم حتى تمكن غشه منهم وفاز بمقاصده . ولما
 استلم الدروز أسلحة النصارى فرقوها بينهم وأعين النصارى تنظر
 وقالو بهم تذرهم بحلول القضاء وتوأنهم من اجل سقوطهم في ذلك
 الشرك الوخيم

ولحظ بعض العقلاء ان القصد ذبح النصارى عن آخرهم في
 السراي وفي مقدمتهم ميخائيل غبريل فقبلوا اقدام الست نائفة ورجوها
 ان تقصص من المعتدين وتعفو عن الابرياء المساكين فكانت تقول لهم
 ان لا بد من ذبح الجميع لان اخي سعيد بك يامر بقتل كل نصراني
 عمره من سبعة إلى سبعة وسبعين وان الحكومة هي التي تريد قتل
 النصارى عن آخرهم

وفي يوم الاثنين رابع شهر حزيران (يونيو) شرقي الذي هو اليوم
 الثامن من بدء هذه الحادثة توفي كنج ابو صالح في قرية شويأ وهو
 شيخ قرية مجدل شمس المتقدم ذكرها على أثر جرح أصابه في اثناء
 القتال فعظم أمر موته على قومه فاجتمع سوادهم واحتفلوا له بأتم عظيم
 في تلك القرية كان مداره التهييج وطلب الانتقام وفي ذلك النهار
 (الاثنين) ذاته حضر علي بك حماده من اعيان دروز لبنان مصحوباً
 ببني درزي شاكى السلاح وعقبه وفد الشيخ كنج العماد اللبناني (وقد
 كان وقتئذ محافظاً من جانب الحكومة على بقاع العزيز) يصحبه نحواً
 من ستين فارساً مدججين بالاسلحة ومائة وخمسون شخصاً من نصارى قرية

حاصداً

القرعون أحضرهم معه مظهرًا

إلى دمشق الشام حماية لهم

وبعد ورود هاتين التجديتين

نقوم من قرية شويًا بهيجان عظيم

السراي ورأى النصارى قرب

وخاف عثمان بك أن يلتزم

أطمينهم وأطلق مدفعين في

بهذين المدفعين فسكت

وفي الساعة التاسعة من

جمادة وكبح عماد المذكور

بيت قيس وخلافهم وأمر

وطلبوا من عثمان بك القائم

وصهره الأمير جهجاه واحد عشر

ليقتلهم فلبى طلبهم على الفور

مبتدئًا من النصارى وكان

بتقطيعه أربابًا وأول من قتل

يومئذ أكثر النصارى وجاهة

شهاب قيل أنهم قطعوه أكثر

الفضيع والفعل المنكر

وبينما كان القائم مشتغلًا

لسلطانه ورعيته هجمت جماهير الدروز

ودخلوها من ابوابها دون ان يمانعهم العسكر اقل ممانعة وبعضهم تسلق
 جدرانها واحشدوا في ساحتها الداخلية التي كانت غاصة بالجانب
 الاكبر من النصارى رجالاً ونساءً واطفالاً فازدحم هؤلاء المساكن في
 الجهة الشرقية من ساحة السراي وطير الموت حائم فوق رؤوسهم وكأني
 بهم وحالتهم هذه لحما على وضم وقد اصطفت الدروز في داخل السراي
 صفوفاً مرتبة كالعساكر المنظمة لتفتك بفريسة ليس لها من وسائل
 الدفاع شيئاً وما الفتك بها وهي على هذه الحالة الا اهانته للفتاك واظهار
 لجبانته . ولما انتظمت صفوف الدروز صعد علي بك حماده المذكور إلى
 شرفة في أعلى جدران السراي وجلس على كرسي وأشار إلى صفوف
 قومه بإشارة فهموها فأطلقوا الرصاص على النصارى المزدحمين في الجهة
 الشرقية من الساحة كما مرّ فتساقط هؤلاء المساكن موتى سقط ورق
 الاشجار وعيون اعدائهم تشخص بهذه المناظر المريعة بدون ان تنأثر
 قلوبهم او ترق لرجال ونساء واطفال أخذوا غيلة ومكرًا وخديعة وبعد
 هذا الطلق صاح علي بك بقومه ان يكفوا عن اطلاق الرصاص حذر
 اصابة بعضهم بعضاً وان يكملوا مذبحتهم الهائلة بالسلاح الابيض فسمعوا
 قوله وسلوا سيوفهم وخناجرهم ومديهم وانقضوا على فريستهم انقضا
 الكواسر مغنين متنافسين بأعمالهم البربرية التي تشيب لهولها الولدان
 ونقص عمر من ذكرها الابدان وكانوا كلما ازداد اولئك المساكن نواحاً
 واسترحاماً واستغاثة ازدادوا قساوة وفظاعة وخشونة وظلوا بأعمالهم حتى
 جاءوا على قتل جميع من كان بساحة السراي ونغارها السفلى من
 الرجال مصحبين معهم رجال القرعون وهم الذين أتى بهم من البقاع .

وقد تغطت ساحة السراي بجثث القتلى وخرجت دماؤهم من جدرانها
وصار في ارضها بركة يسبح بها المقتولون ما بين مقطوع الراس ومبتور
الرجل ومكسور اليد ومشقوق البطن ومطعون الصدر ومصاب الظهر .
منظر تنفطر له الاكباد وتمزق من هولاء القلوب . ولما اكمل هذا
العمل في اولئك المساكن امام والدته ترى هلاك ولدها وزوجة عذاب
زوجها وولد حنف ابيه واخت مصاب اخيها اخذ الدروز يدوسون
اولئك القتلى بنعالهم ويبحثون بينهم عمن به رمق من الحياة فيكلمون عليه .
ولما انهوا هذا العمل المريع صعدوا إلى أعلى السراي حيث كان الامير
سعد الدين والامراء والعساكر وبعض النصارى مع اكثر النساء
وهناك استأنفوا عملهم فبدأوا اولاً بالامير سعد الدين ولم يمهله ليصلي
ركعتين لله قبل موته فقطعوا رأسه وطرحوه من أعلى السراي إلى
خارجها قائلين خذوا يا ايها المسلمون راس اميركم وادفنوه وارسل راس
هذا الامير إلى سعيد بك جن بلاط في الخنارة ثم قتلوا صهره الامير
جهجاه واربعة آخرين من الامراء الشهابيين احدثهم اعمى وأطرش
وقصدوا ان يأثوا على قتل بقية الامراء الا ان هؤلاء لما رأوا ما حل
بالامير سعد الدين ومن قتل معه من الامراء دفعهم هول المنيّة وحب
الحياة إلى الدخول بين نساء العساكر واحتوائهم بهن فانكزاً عنهم
الدروز خوف سوء العقبى . ثم اعملوا سيوفهم بمن كان باقياً من النصارى
وافنؤهم عن آخرهم ولم ينج منهم الا الذين رموا بأنفسهم من اعالي
جدران القلعة ومن غلبت حيانتهم على جراحهم الكثيرة البليغة وقد
نهبوا جميع ما في السراي من متاع ومصاغ وملابس النساء ايضاً

ومن الحرب حوادث هذه المذبحة الفظيعة ان عثمان بك التركي
الذي لم يهد بشرفه وحرف حكومته ان بقي رعية السلطان من القتل كان
قدماً إلى كرمي على باب السراي ورجاله من حوله وهو يرى تلك
اللاهوال ويقفه ضاحكاً مسروراً وكان العساكر يردون كل مسكين
يقصد الباب طلباً للحياة ويرسونه إلى حاصي فيقتلونه في الحال ووقع
واحد من هؤلاء المساكين تحت قدمي عثمان بك فوضع رجله على جثته
وفي على هذا الحال إلى ان انتهى الوحوش من فعلهم المريع الهائل .
وبعد ان تم شغلهم بهذا الدور الوحشي المريع على مرأى من عثمان
بك ومن معه من الضباط والعسكر توجه عثمان بك إلى السيدة نائفة
المذكورة وطلب اليها ان تأتي السراي وتنقذ العساكر (لانه رأى
النارين طامعين بهم) ومن بقي من النساء والاطفال وبقية قليلة جداً
من الرجال فترددت عن اجابة طلبه ولكنه اعاد عليها الالتماس وساعدته
عائلة غبريل الموجودة بدارها فوضيت وحضرت إلى السراي في نحو
الساعة الاولى من بعد غروب شمس ذلك اليوم المشوم (الذي هو يوم
الاثنين في ٤ حزيران (يونيو) شرقي سنة ١٨٦٠) وطلبت من قومها
الاكتفاء بما فعلوا فانكفأوا عن القتل فأخرجت العسكر ومن بقي ب قيد
الحياة من النصاري واتت بهم إلى دارها وفي تلك الليلة نفسها احرق
الدروز السراي المذكورة عن آخرها . وكانت هذه الفاجرة المتوحشة
حين حضورها إلى السراي تبسم وتضحك وهي رجلاها الدروز على ما
اقرأ من العظام وهم ما اتموا غير الغدر والخيانة شيمة الجبناء الاندال
وكان في اثناء هذه الحوادث قد لجأ بعض النصاري من اهالي

حاصبياً وضواحيها إلى السواحل فقتل الدروز أكثرهم في أراضي مرج عيون حيث كانوا لهم بالمرصاد

أما العسكر والامراء وباقي النصارى الذين يبالغون نيف وأربعمئة نسمة فبقوا في ساحة دار الست نائمة المذكورة وكانت الدار تحاطة بدائرة من الدروز يهددون الذين داخلها بالقتل والعذاب وبعد ستة أيام من حادثة السراي ورد امر للعسكر بالذهاب إلى دمشق فذهب وصحبه علي بك حماده لقرية الديماس (تبعد عن دمشق ست ساعات) وودعه ورجع إلى حاصبياً

ويوم الثلاثاء في ١٢ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠ الذي هو اليوم الثامن لمذبحة السراي الهائلة اجتمع وجوه الدروز عموماً بدار الست نائمة وافروا على اعدام اللاجئين بدارها من الامراء والنصارى وانتخبوا ثلاثمائة من رجالهم لانتفاذ ذلك وقد حفظوا الامر سرّاً بينهم بيد انه لم يخف على المقضي عليهم حيث علموا به وباتوا بخوف يترصدون حلول الساعة . وفي اليوم التالي (الاربعاء) في ١٣ حزيران (يونيو) عند الساعة العاشرة عريّة عذمت الست نائمة على ترك الدار والتوجه الى خلوة البياضة لينفذ القرار بغياها فتعلق الامراء والنصارى بأذيالها واخذوا ينوحون لديها ويتمنون شفقتها عليهم وبقاؤها في الدار حفظاً لحياتهم . وبينما هم على هذه الحال وفد اليها من اخيها سعيد بك رسول بتحرير منه يحرّضها به على وقاية حياة جميع من كان باقياً من النصارى بدارها ويلقي عليها مسؤولية اقل ضرر يصيبهم ويأمرها ان تأتي اليه بجميع من عندها بنسائهم واولادهم . وكان ذلك خداعاً منه

يقصد به التخلص من المسؤولية حين اللزوم ولم يصدر هذا الامر الا بعد علمه بذبح النصارى على حسب تعليماته المنكرة فأبلغت هذا التحرير عموم الدروز فأطاعوه ومن ثم اخذت جميع من عندها وتوجهت بهم الى قرية المخنارة محل اقامة اخيها المذكور فبقوا هناك بضعة ايام ثم ذهبوا الى السواحل البحرية عراة حفاة طلبا للرزق وسدا للعازة فذاقوا مرارة العيش وشدة واستمروا يتعيشون من فضل المحسنين الوطنيين والاجانب حتى زالت الثورة . وقد اسفرت هذه الحادثة المشومة عن القتلى الآتي يانهم :

قتلى نفس حاصبيا وغيرها من المسيحيين

شبان	٥٥٩
اطفال لم يتجاوز سنهم الخامسة ٢٠ ونساء ١٠	٠٣٠
من اهالي قرية الكفير	٠٥٥
من اهالي راشيا الفخار	٠١٣
من اهالي قرية ابو قمحة	٠٠٨
من قرية ميمس (كاهن)	٠٠١
من قرى اخرى	٠٠٧
الرجال الذين اتى بهم من القرعون كما مر	٠٥٠
من الشام ندرا طوا ابن شقيقة المطران جراسيموس فرح	٠٠١
مجموع قتلى النصارى	٧٢٤
وعدد قتلى الدروز	٤٠

فصل

في راشيا الوادي ومذابجها

هي قسبة قضاء باسمها في وادي التيم في الجهة الشمالية الغربية من جبل الشيخ تبعد نحو ١٢ ساعة عن دمشق إلى الجنوب الغربي واقعة على جانبي رابية في وسط وادي التيم تجاه اعلى قم جبل الشيخ ولذلك سميت براشيا الوادي تمييزاً لها عن راشيا الفخار . وارتفاعها عن سطح البحر نحو خمسة آلاف قدم وهوؤها جيد جداً موافق للصحة غير ان ماءها قليل ومناظرها جميلة وعلى الخصوص من اعلى الرابية فان الناظر يشرف منها على ارض طويلة حوله من الجبال والاودية . ومن القرية يسر النفس منظر قم جبل الشيخ المكسوة بالثلوج . واهلها اقوياء اشداء صحاح البنية يعمرون طويلاً جودة هوائها وتعودهم الاعمال البدنية قيل ان بعضهم يعمر فوق المائة وقيل يشكون مرضاً . وعدد اهلها جميعاً اكثر من ٤٥٠٠ اكثرهم نصارى من طائفة الروم الارثوذكس وبعضهم بروتستانت . واما تجارة راشيا فمقتصرة على القسم الشمالي من وادي التيم واقليم البلان لكن كثيراً منها يرسل إلى حوران وغيرها ولها تجارة ايضا مع بيروت والشام واكثر محصولاتها من الحمص والتبغ والقمح والشعير وارضها وما جاورها من القرى وعرة ولكنها مخصبة وهي قليلة

الفاكهة والخضرة لقلة مياهها فيأتيها ذلك من سوق وادي بردى واما الكرم فيها فكثير وعنبها فخير لذيذ . واما تاريخها فليس بقديم على ما يظهر وليس بها من الآثار ما يدل على قدميتها الا اسمها السرياني ويظن انها لم تعرف تاريخياً قبل الصليبيين وهو لاء بنوا بها مركزاً حربياً لمقاتلة العرب الذين قدموا وادي التيم من شهباء حوران فسموا الشهابيين وذلك على عهد صلاح الدين الايوبي اي في القرن السادس للهجرة . وهذا المركز هو برج موجود في القلعة التي بناها الشهابيون عند ما اخذوا المكان عنوة من الصليبيين وجعلوها مركزاً لحكمهم وداراً لسكنهم . وقيل انهم كانوا قبل بناء القلعة يأتون البرج المذكور ويصطادون الطير قرب عين ماء هناك وبذلك كثر الريش عندها جداً فسمي البرج برج الريش . قيل ومن ذلك اسم القرية ولذلك النسبة اليها ريشاني . وبعد بناء القلعة وتمكن الشهابيين هناك اخذ العمران يزداد إلى ان كبرت القرية وجمعت كثيراً من السكان وكانت فيها منازل قدماء بني الاطرش . وقيل كان بها منشأة الدعوة الدرزية في وادي التيم . واشتهرت بها من الدروز عائلة بني العريان التي طار ذكر كبيرها شلي باشا العريان وقد مر ذكره

مذبحة راشيا الوادي

كان الدروز والنصارى في راشيا الوادي على وفاق بعضهم مع بعض اكثر من غيرهم الا ان مقاصد الدروز في سنة ١٨٦٠ ونوايا الحكومة غيرت الاحوال في تلك الايام وجعلت غاية الدروز دماء

النصارى واموالهم وقد كان نصارى راشيا الوادي في تلك الايام كغيرهم لا يظنون بان الامور تبلغ تلك الشدة والفظاعة لاسيما انهم رأوا حكومة احمد باشا في دمشق قد بعثت إلى مدينتهم عدداً كبيراً من العساكر المنظمة وانزلتهم القلعة او سراي الامراء الشهابيين الا انه لما رأى الراشانيون استفحال الامور كل يوم عن امسه في لبنان وامتداد الاعنداء إلى وادي التيم ونهبهم قريتي الظهر الاحمر والحوش واحراقهما وزحفهم على حاصبياً بدون معارض زال اطمئنانهم وواجسوا شراً وباتوا باضطراب كمن يتقلب على جمر الغضاء خوفاً ورعباً حيث علموا بان الدروز لا بد من ان يقصدوهم فأخذوا من ثمَّ يعقدون الاجتماعات للنظر في الوسائل التي تنقذهم من الويل المحدث بهم وبعد مداولات كثيرة لم يتفقوا على رأي حميد وما ذلك الا لتأثير سطوة الدروز بهم واتفقوا على السعي وراء السلام والسلامة وقرروا ان يذهب كبراؤهم وقسوسهم وشيوخهم إلى عقلاء الدروز ويعرضون عليهم بذل الغالي والنفيس استرضاء لخواطرهم وكفاً لهم عن الشر فان نالوا بذلك السلامة والامان كان المرام والا فيدافعون عن انفسهم ما امكن وقد كانت هذا الرأي من انحس الآراء واشأمها واشدها شراً على النصارى لانه ازال من خواطر الدروز ما كان بهم من هيبة النصارى وخوف بأسهم . وفي يوم الاثنين الواقع في ٢١ ايار شرقي (مايو) سنة ١٨٦٠ ذهب منتخبو النصارى لقضاء مهمتهم وطافوا بيوت جميع كبراء الدروز يبدلون لهم الدرهم والدينار خاضعين متواضعين وصرفوا بذلك يومهم كله وانتهوا في المساء راضين عما اظهره الدروز لهم من

اللين والملاطفة والمواعيد الكاذبة والتطمينات الفارغة حتى ظنوا بانهم
نالوا المرام وقد زاد غرورهم بما أولم لهم الدروز بذلك اليوم من الولايم
وما سمعوا من القول اثناء تلك الولايم وهو « اننا واياكم اخوان في
الوطن وما بيننا وبينكم الا العيش والمخ والحب والسلام » وقد خرج
في مساء ذلك النهار المنادون ينادون على الناس قائلين يا ايها الناس
لا يحسبن احدكم حساباً لمكروه ولا يظنن بنائبة وليذهب كل لاعماله
فان الجميع في توادٍ وحب ولا يوجد الا السلام والامان فاغتر النصارى
بهذه المناداة ومن ثم لم يعودوا يلتفتون إلى الاخطار المحيطة بهم ولا
ينظرون إلى المحافظة على قوتهم لاسيما عند ما اكدهم ضباط العساكر
ما اكده الدروز وقد تركوا اسلحتهم وابتعدوا عنهم كل احتراس . وكان
الاغا التركي قد تخابر ملياً مع سعيد بك جن بلاط واتفق معه على
اشارات معلومة يفهمها الدروز وعلى احاطة راشيا بالجند حتى لا يفر
واحد من النصارى قبل المذبحة وسافر سعيد بك إلى المخنارة بعد ان
رأى اوامره تعمل في راشيا . وبعد غروب شمس ذلك النهار بوقت
قصير سمع صوت طلق بارود من جهة غربي البلد ولم يمض على ذلك
خمس دقائق حتى ملأ الضجيج الفلاء وعلت الضوضاء ومزق صوت
البارود كبد السماء واضبق الدروز على النصارى من اكثر جهات البلدة
فوقع النصارى في حيرة واندھاش لان الذي حدث نقيض ما صدقوه
من وجود الامان وما وثقوا به من الايمان ومع ذلك لموا شعثهم بقدر
الطاقة وما سمحت به الفرصة وحملوا اسلحتهم ووقفوا للدفاع بوجوه
اعدائهم الغادرين وقد بدأت المناوشة اولاً من جهة الشمال واستمرت

وقتاً قصيراً دافع به النصارى عن انفسهم دفاعاً حسناً وفي اثناء ذلك وجه الدروز قواهم إلى الجهة الغربية من البلدة وحملوا على حارة النصارى وقد كان الدروز يحسبون حساباً لهذه الحارة لعلمهم بشدة رجالها وقوة بأسهم وقد وجهوا القوة اليها من ابتداء الامر فوقف النصارى لاعدائهم وقوف من يحامي عن دمه ودياره بقلوب اثبت من الجاهود وهمم كههم الاسود وقد استعرت نيران الوغى بين الفريقين وتحصن النصارى ببعض الصخور فوق محلاتهم ودارت رحى الحرب وعلى الاخص على رؤوس امكة وعرة تدعى بالمنشار وقد جاء ساحة الموقعة كل نصراي شجاع في البلدة ينجد اخوانه ويساعدهم على ملاقاته الخطوب والدفاع ففاز النصارى فوزاً لم يكن لهم بحساب اذ انجالت هذه الموقعة عن نحو ٧٠ قتيلاً من الدروز واثنى عشر من النصارى الا انه لسوء بخت النصارى كانت قوتهم محدودة وقوة اعدائهم متدفقة لاسيما وان العساكر كانت متواطئة مع الدروز باطناً ولاجل هذه الاسباب لم يكن فوز النصارى الا من جهة واحدة فقط لان الجهة الاخرى خلت من المدافعين فاغتنمت فرقة كبيرة من الدروز الفرصة وتقدمت إلى بيوت النصارى ونهبتها واحرقتها عن آخرها ولما انقضى الليل واصبح صباح الثلاثاء في ٢٢ ايار (مايو) شرقي كثر وفود الدروز على هذه البلدة من جميع النواحي والاطراف فاظهر قائد العسكر الاشفاق على النصارى لتزايد عدد اعدائهم ودعاهم إلى دخول قلعة البلدة صيانة لهم فاجبى النصارى ذلك واخذوا يدخلون القلعة فرقاً فرقاً وكان كما دخلت فرقة يأخذ سلاحها بداعي انها صارت تحت حمايته وهو المسئول بالمدافعة

عنها وكانت القاعة قريبة جداً من محل القتال فلذلك سهل على النصارى دخولها ولم ينتصف ذلك النهار « الثلاثة » حتى لم يبق في ساحة القتال من النصارى واحد وصار جميعهم في وسط للقاعة مجردين عن الاسلحة واسباب الدفاع . اما العسكر فقد تلقى المحنمين به في بادىء الامر بالوجه الباش والمحيا الباسم تطميناً لهم وتسكيناً لخواطرم فانخدعوا بهذا الملتقى وما لبثوا ان أحيطوا بعدد وافر من الجند احاطة السوار بالمعصم فباتوا في شرك الموت لا يرون للمدافعة او الفرار سبيلاً

اما الذين لم يدخلوا القاعة من النصارى فقد ذهب جانب منهم والتجأ إلى بيت احد وجهاء الدروز المدعو خزاعي اغا العريان وكان اكثر هؤلاء النصارى من طائفة السريان الكاثوليك ونفر قليل منهم من الروم وما لجأ السريان بخزاعي العريان الا لما بين العناحلة السريان « العناحلة نسبة إلى عين حليا التي جاؤا منها » والعريان من الصداقة القديمة والاتحاد فان كلا الفريقين كان من الحزب الجنبلاطي وقد قبل خزاعي اغا من لجأوا اليه وهم وثقوا به ايضاً ووضعوا اسلحتهم في احدى زوايا بيته الا ان اكثرها سرق من نفس اهل البيت وكان دخول هؤلاء الجماعة لبيت العريان مساء الاثنين في ٢١ ايار (مايو) اثناء ورود جموع الدروز بعد المناداة بالامان كما تقدم القول ولما حمي وطيس الحرب في ليلة الثلاثاء وازدادت خسائر الدروز تهدد الدروز اليزبكية خزاعي اغا لانهم اعداؤه وانذروه بقتل جميع اللاجئين اليه وكان شهماً لا يخون اللاجي به فجاء داره وخاطب المسيحيين الذين عنده وعددهم خمسون رجلاً قائلاً يشق عليّ جداً ان اخبركم بثقل

الحال عليّ وعليكم لان الدروز اضمروا الشر في وكم وليس بالوسع دفع
اعندائهم فحياتي ابدلها دونكم ولكن ذلك لا يضمن لكم الحياة فلحفظ
حياتكم اشير عليكم ان تنهضوا والليل راخ سدوله ونقطعوا جبل الشيخ
والقوم مشغلون عنكم بالقتال فتصلون دمشق و يكون لكم بها مأمن على
انفسكم وقد كانت هذا الرأي دليلاً على امانة خزاعي اغا المذكور
واخلاصه لان كل الذين خرجوا من داره نجوا بأنفسهم ولم يفقد منهم
سوى اثنين او ثلاثة فقط في دمشق الشام حين حادثتها

وقد هاجر ليلة الموقعة قسم كبير من النصاري قاصدين الجبال
والبراري والبلدان الاخرى فمنهم من ذهب إلى لبنان وزحلة ومنهم من
جعل وجهته دمشق ومنهم من سار إلى الجنوب الغربي نحو لبنان فقتل
كثيرون من الفارين في نواحي البقاع وجهات اخرى . وقد قتل عدد
وافر في نفس البلدة ايضاً ممن لم يحضر الموقعة

وكان قد لجأ قسم آخر من النصاري إلى بيوت وجهاء الدروز
فأجاروهم في بادىء الامر الا انهم في اليوم الثاني (الثلاثة) نهضوا
عليهم وقتلوهم بدون اشفاق خائنين حرمة العهود والجوار وكان من
اشر الذابحين اللاجئين اليهم المشايخ اولاد ذاكى والمشايخ اولاد نصار
فانهم اتوا من فظاعة الاعمال ما لا يوصف . اما المشايخ من آل
عريان غير خزاعي فانهم دافعوا وحاموا عمن استجار بهم وكلّ يذكّر بما
صنع والله لا يضيع اجر محسن وهكذا تفرّق القوم شذر مذر فكانوا
بين قتيل وفار وملجئ الى القلعة ومعتصم بآل عريان الكرام

اما الذين دخلوا القلعة فقضوا فيها نحواً من ثمانية ايام كانت عليهم

أمر من الصبر واصعب من غصص الموت ذلك لان العسكر بعد ان
رحبوا بهم يوم دخولهم ولاطفوهم قلبوا لهم ظهر المجن وعاملوهم بالقسوة
والاهانة وشتيمة عقيدتهم وتبشيرهم بما سيصير اليه حالهم من السوء وما
ينتهي اليه امرهم من الميتة الشنيعة وانه لا مهرب لهم من الشرك الذي
سقطوا به فليتصور القارئ حالة اولئك المساكين في تلك الايام
الصعبة لاسيما عند ما شعروا بسقوطهم في شرك لا خلاص لهم منه وان
من كان واجب عليه حمايتهم اصبح خائناً لهم ولم يكن لهم في سجنهم هذا
ما كل ومشرب الا انه سمح لنسائهم بالتردد عليهم وتقديم المأكل لهم
مما بقي من النهب وقد استمروا على هذه الحالة السيئة ينتظرون سوء
المصير إلى يوم الثلاثاء في ٢٩ ايار (مايو) شرقي فانه في ذلك اليوم
قدم وفود آخر من الدروز من جهات مختلفة فرأوا براشيا وكان اكثرهم
من دروز حوران انجلوا عن حاصبياً بعد مذبحتها وقصدوا الانضمام إلى
الذين كانوا حول دير القهر من ابناء جنسهم فلما رأهم الاغا التركي
اشار اليهم بالجيء فجاؤوا ودخلت الفرقة الاولى منهم من بابي القلعة
واعين العساكر تنظر اليها وقلوبهم ترحب بها وكان بأيديها السيوف
والمدى والفؤوس وهي تهلل تهليل الظفر والفوز ثم تبعها شرادم الدروز
ينشدون نشائد الانتصار ويطلقون البنادق ويتهللون كأنهم في مرسح
فرح ثم اطبق باقي الدروز على القلعة والعساكر حافضين منافذها كي لا
يفر احد من اولئك المساكين الذين اضحوا فريسة للذبح

ولما استوت فرق الدروز داخل القلعة امام فريستها ورأى اولئك
المساكين سوء مصيرهم وغراب البين حائم فوق رؤوسهم جنحوا الى

العويل والاستغاثة بضباط العساكر طالبين الاشفاق والمرحمة فلم يكن من مشفق ولا راحم ثم جرد الدروز سلاحهم السيوف للذبح والسكاكين للنحر والفؤوس للتقطيع والدبابيس لكسر العظام والجماجم وهجموا على اولئك المساكن حيث كانوا مجتمعين في رواق قصر الامير فندى شهاب في القلعة وما طال الامر حتى جرت المذابج وانحدر الدم الى اسفل حيث كانوا بعد ان يثخنوا الرجل جراحاً يذبحونه ويلقونه من من اعالي القلعة فيسقط إلى الحضيض متكسراً مترضضاً على الصخور ولم ينج من كل من كان في القلعة الا رجل واحد القى بنفسه من اعلى قصر في جهة الشمال وقد اطلق عليه الدروز الرصاص مراراً فلم يصيبوه بسوء فتخلص ولم يكن احد من الدروز اثناء هذه المذبحة الهائلة يرق لنواح امرأة تشق الجيوب وتثر الشعور او يتأثر من دمع رجل يفقد حياته وامراته واولاده او يشفق لصراخ اطفال ينادون والدهم او والدته تلثم الارجل ملتمة البقاء على ولدها وفلذة كبدها . والغريب ان الدروز والعساكر كانوا يعجبون ويفتخرون بهذه الفعال مع ان قتل الرجال بالخيانة بعد تجريدهم من السلاح وحصرهم في القلعة اكبر آيات الجبن وفقد المروءة

ولما انتهى الدروز من فتكهم هذا جمعوا رؤوس الامراء الشهابيين الذين قتلهم مع المسيحيين في القلعة وعددهم اثنا عشر اميراً ورؤوس اعيان النصارى ورتبهم في ديوان الامير فنهي كمجلس حافل ووضعوا في افواه اكثرهم عصياً للتشفي والاستهزاء والسخرية وفي اليوم التالي الذي هو يوم الاربعاء في ٣٠ ايار (مايو) شرقي

بكر الدروز واقاموا حفلة سرور وافراح وولائم في نخل المجزرة الوحشية
فرقصوا وطبلوا وزمروا وانشدوا ابيات المعنى معرضين بذكر شنائعهم
وشامتين بالذين ماتوا ضحية عسفهم وجورهم اولئك المظلومين الذين
جاءوا إلى كنف حكومة احمد باشا براشيا واحتموا في قلعة عساكرها
نحانتهم الحكومة وسلمتهم للانذال الجبناء الذين فتكوا بهم وهم لا
يقدرّون على الدفاع عن انفسهم

وكان المرحوم المطران جراسيموس فرح الدمشقي مطران
ابريشية وادي التيم وقتئذٍ لطائفة الروم الارثوذكس قد بذل غاية
الجهد ليلاً ونهاراً في ملافاة الامور لدى مشايخ الدروز ووجهائهم
وقواد العساكر في حاصبياً وراشياً لحقن الدماء وابعاد اسباب الخراب
نخاب سعيه

وقد اسفرت حوادث راشيا الوادي عن قتل ٢٧٠ ذكراً داخل
القلعة ٠ و ٢٣١ خارجها في اماكن مختلفة من البلدة وفي الخارج فيكون
مجموع قتلى راشيا ٥٠١. هذا غير الذين قتلوا في قرى اخرى من وادي
التيم وحرقت ديارهم ونهبت كما حرقت راشيا ونهبت ٠ وقد

قتل من قرى مرج عيون نحو العشرين والباقيون

هربوا إلى جهات

مختلفة

فصل

في دير القمر ومذابحها

دير القمر قصبة مديرية على بعد ٢ ساعات من بيروت إلى الجنوب الشرقي ونصف ساعة عن بيت الدين وهي بحسب نظام لبنان الحديث مركزه . ولما حضر داود باشا المتصرف الاول اقام فيها دوائر الحكومة إلى ان اشترى بيت الدين وجعل لها بعد ذلك مديراً مستقلاً يراجع في الامور السياسية المتصرف ونحكمة كمحاكم اقضية لبنان فتستأنف احكامها توتاً إلى محاكم المركز . وعدد اهلها بحسب احصاء سنة ١٨٦٢ ٨٥٧ مارونياً و ١٧٢ كاثوليكياً و ١١ درزياً في خلوات جرنابا فالمجموع ١٠٤٠ ذكراً . واما الآن فعددهم نحو خمسة آلاف نفس وكانت هذه البلدة مدينة الجبل العظمى وقصبة الدروز اشتهرت بمصنوعاتها ونشاط اهلها واقدامهم ورواج تجارتها وابنتها العظيمة من عهد الامراء المعنيين . وقيل انه في سنة ١٨٦٠ كان اهلها نحو ٨٠٠٠ نفس بين مسلمين ودروز ونصارى ويهود فلما حدثت فيها المذبحة الكبرى في تلك الثورة قلّ اهلها كثيراً بالقتل والمهاجرة وكانت قبل فتنه سنة ١٨٤١ موطناً للمشايخ النكديين حكام القطيعة فلما وقعت الفتنه بين الدروز والمسيحيين في السنة المذكورة طردوهم منها . واما ارزاق دير القمر فاكثرها توت وزيتون وكروم وكان لها تجارة واسعة مع بيروت وصيدا

والشام ولبنان ووادي التيم وكان ينسج فيها الالقشة الحريرية والقطنية ولاهلها ذوق في الالقشة الحريرية المنقوشة وفيها سوق عامرة يقصدها الناس كل يوم من الجهات القريبة والبعيدة لاجل البيع والشراء .
 واهم حاصلاتها الزيتون والكرم والحرير والحبوب واهلها اصحاب جد واقدام وذكاء في الاعمال . وبعد رحيل ابراهيم باشا عن سوريا انصبت على الاعمال والعلم وقد زادت انصباباً على ذلك بعد الثورة التي حدثت بها في سنة ١٨٦٠ بين الدروز والنصارى واشتدّ تمسك النصارى بعروة الاشغال والمدنية والعلم بعد وضع المنظمات الخيرية لان الامنية زادت وقتئذٍ ووجد نصارى دير القمر بان تفرغهم الاشغال افضل لهم ممّا سواه وقد افلحوا بما اتوه حتى انحصرت تجارة شمالي لبنان وبعض اواسطه بهم . واشتهر من علمائهم المرحوم العلامة ميخائيل مشاقه واخوه جبران وغيرها ولتاريخ هذه المدينة علاقة كبرى بتاريخ لبنان لاسيما في ايام امرائه وعشائره واما في هذه الايام فقد انحط عدد سكان دير القمر عما كان عليه لما اصابها من حوادث سنة ١٨٦٠ ولما تقرر عند صرف مشكلها ووضع نظمات لبنان من ان لا يسكنها بل لا يطاقها درزي ولكن مع ذلك فقد ازدادت ابنتها عدداً والنقاء ممن رجع اليها من اهلها بعد تلك الحوادث

وفي ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ عند ما بدأت حادثة بيت مري الاولى كما تقدم وامتدّ سعيها حسب مسيحيو دير القمر بان تلك الحوادث لا يتأتى عنها سوى التدمير والخراب وانه سيزداد شرها كلما ازدادت التحزبات واقل نتيجة في ذلك لدير القمر بوار اعمالها

ووقوف تجارنها فتلافياً لهذه الاخطار ودفعاً لما خشوه من الملمات
اجهدوا النفس في دوام الالفة بينهم وبين الدروز وسعوا في كل ما
يؤيد السلام والراحة و يوجد الطمانينة . وقد عجب جيرانهم الدروز
من هذا السلوك وارتاحت افكارهم من جهة دير القمّر وباتوا لا يخشون
منها بعد ان كانوا يحسبون لها اشد حساب وقد امتدحت الحكومة
المحلية وقناصل الدول العظمى في بيروت خطة الديرين وانما عليها
ثناءً عظيماً

اما الدروز الذين كانوا ينظرون إلى تقدم دير القمّر وزحلة بعين
الحسد ويطمعون بما لمسيحي هاتين البلدتين من الاموال فقد سرّوا من
جنوح نصارى دير القمّر إلى السلام ونقاعدهم عن الاستعداد لحربهم
وحسبوا بأن نقاعد دير القمّر يجعلها مغناطيساً لاسيما لما كانوا يعلمونه من
سياسة احمد باشا ونواياد واعقدوا بأن سقوط دير القمّر يسبب
سقوط زحلة ايضاً وبعد سقوط هاتين المدينتين وحاصبياً وراشياً
يستقلون بالنفوذ في اواسط لبنان وجنوبيه وفي وادي التيم والبقاع وتسي
تلك البلاد لهم ولاجل بلوغ هذه الاماني لم يظهروا لدير القمّر شيئاً من
العداء في بادىء الامر بل جاروها على ميلها السلمي محافظين بسرهم
على ما كتموه لها من الشرّ حين دنو الساعة حتى لا تقطن لما يطمنون
فتأخذ بطرق الوقاية لنفسها . واستمرّوا على ذلك لغاية شهر ايار (مايو)
سنة ١٨٦٠

وفي نهار الجمعة الواقع في اول حزيران « يونيو » صباحاً بينما كان
نصارى دير القمّر ناعمي البال لا يحسبون للشرّ حساباً خرجوا من بيوتهم

لمعاطاة اشغالهم على عاداتهم فأوا بلدتهم نحاطة بمجموع الدروز من كل
جباياتها يقودهم مشايخ عائلتي ابي نكد وعماد وعدد الدروز ٢٠٠٠ رجل
فدهشوا لذلك اذ لم يكن بحسبانهم ان الدروز تفاجئهم هذه المفاجأة
حال كونهم على سلام معهم وفي البلدة عدد وافر من جند الحكومة
المنظمة وظلوا يحسبون الامر سخابة صيف لظنهم بأن الجند تفرق
مجموع الدروز وتحاها عن البلدة . ولا عجب فانهم كانوا قد اطلعوا على
امر خورشيد باشا والي بيروت وقتئذ الى حاكم دير القمر يمتدح به
سلوك نصارى دير القمر السلمي غاية الامتداح ويؤمنهم من اعدائهم
ويعدم بعضهم والمدافعة عنهم بقوة السلاح اذا جد ما يخشونه او
حدث ما يكدر راحتهم . الا انهم ما لبثوا ان تاكدوا الغدر حيث ان
تلك الجنود لبثت آوية بقلعتها كانه ليس من امر وحاكم البلدة غير
مهتم بشيء فالتزم النصارى اذ ذاك ان يدافعوا عن انفسهم بانفسهم
مع ما هم عليه من عدم الاستعداد فذهب القادرون منهم الى اسلحتهم
وخرجوا لدفع هجوم اعدائهم وهكذا اشتبك القتال والدروز يهجمون
والنصارى يصدونهم بعزم شديد محامين عن ديارهم وذرايرهم الى ما
بعد الغروب بساعتين حيث عاد الدروز عن المدينة وكفوا عن الهجوم
وبات النصارى يحافظون على مدينتهم خيفة ان يدخلها الدروز غيلة
وفي خلال القتال قصد البعض الالتجاء الى الحاكم في السراي
فوجدوا الابواب موصدة فأخذوا يقرعونها مستجيرين بين دواخلها فلم يكن
من يجيب واخيراً جنح بعض المتقدمين في السن الى قاضي الحاجات وهو
الاصفر الزنان فسمع به الحرس من خلال الباب فسحوا لمن بذله

بالدخول وهكذا صار لا يدخل السراي احد الا من جعل الرشوة
الكثيرة ممهدة سبيله اما النساء فكن بذلك النهار باكيات ناثحات
مستجيرات مستغيثات ولكن اين من يجير او من يغيث . وقد كانت
خسائر النصارى في ذلك اليوم ١٧ قتيلاً وبعض الجرحى اما خسائر
الدروز فاكثرت من مائة منهم ١٧ عسكرياً كانوا باللباس العادي
يساعدون الدروز

وفي غد اليوم التالي عاد الدروز إلى القتال وهجموا على البلدة
ليضطروا النصارى إلى الخروج لقتالهم وهكذا اشتبك القتال فخرج القوم
للدفاع واما كبراء النصارى واعيانهم فتقدموا لحاكم البلدة وضباط
العساكر سائلينهم بالكتابة واللسان المحاماة عنهم ضد جيوش الدروز
عملاً بوعد الوالى خورشيد باشا او يعطونهم ذخيرة وهم يحامون عن
انفسهم واموالهم فأجابهم الحاكم والضباط باننا لم نبلغ او نوامر البتة بالمحاماة
عنكم او باعطائكم ميرة فلذلك لا رجاء لكم بمساعدتنا . انما ننصحكم اذا
اردتم السلامة ان تتوجهوا إلى سعيد بك جنبلات وبشير بك ابى نكد
« وكانا من حكام الدروز في الجبل » وتلقون بين ايديهما اسلحة
النصارى وهما يكفان الشر عنكم . فعند ما رأى هؤلاء الاعيان ما
كان قصدوا الاتجاء إلى اعدائهم لعل في ذلك خلاصاً لهم فحرروا
اعراضاً إلى سعيد بك جنبلات الذي كان وقتئذ في بيت الدين عند
عبد السلام بك امير الالبي العساكر المنظمة واخبروه بامرهم وانهم
سيسيرون اليه ويكونون تحت اوامره بشرط ان يفرج كرتهم وينقذهم
من المخاطر المحيطة بهم ووضعوا هذا العرض مفتوحاً عند الحاكم ليرسله

اليه . فتناول الحاكم العرض المذكور ووضعهُ ضمن تحرير منه مع نفرين من العسكر إلى صاحبه وبعد وقت قصير ورد الجواب من سعيد بك جن بلاط فخواه انه يجب الاجتماع على بعض وجهاء النصارى للمداولة في الامور الحاصلة فلبوا طلبة وحصلت جلسة دار الحديث فيها على وجوب خلود النصارى إلى السكينة والاطمئنان وتعهد البك بجلاء الدروز وما ارفضت الجلسة الا وصدرت الاوامر للدروز بالانجلاء عن دير القهر فانجلوا عنها ولكن يوماً واحداً فقط وبعده عادوا للتجمع ونهار الاحد الواقع في ١٥ حزيران « يونيو » احاطت الدروز بدير القهر احاطة المالة بالقهر فانقطع كل اتصال بينها وبين الخارج ونهبت البيوت التي في ظاهرها وحرقت وقتل اثنان احدهما اسمه خليل دير والآخر اسمعدي الحلبي وقد قدمت شكوى للحكومة فيما هو جار وانظرت بالاحطار العظيمة التي تنجم عنه فاصدرت امرها بان لا يخرج احد من الاهالي خارج البلدة او يقترب من البيوت التي بظاهرها ومن يخالف هذه الاوامر وأُخِذَ به ضرر فهي غير مسأولة عنه كما انها في الوقت ذاته حظرت على الدروز الغرباء دخول البلدة فاطمانت قلوب الناس نوعاً الا انه ما جاءت ظهيرة هذا اليوم نفسه حتى اظهر الدروز عدم الامتثال لامر الحكومة المذكورة حيث دخل البلدة كل من سليم بك وشاهين بك ابي نكد مع عدد غفير من الدروز وتوجهوا إلى السراي وعرضاً عن ان يصادفوا من الحكومة وضباط العسكرية الصناد والمواخذة قوبلوا بالبشاشة والترحاب والثغور الباسمة . وبعد وقت قصير ايضا دخل جمهور آخر من الدروز وتفرق في البلدة واخذ يهين النصارى

رجالاً ونساءً ويحول بينهم وبين السراي عند ما رأى فيهم لميل إلى دخولها وقد ادعى الجمهور الاول بان دخوله المدينة كان لمنع الجمهور الثاني عن دخولها . وما ذلك الا مواربة ظاهرة طيها شريراً كامناً . وقد تسبب عن هذه الحوادث اضطراب افكار النصارى وقلقهم وسلب راحتهم

وعند غروب شمس ذلك اليوم اتى البلدة طاهر باشا كومنندان عسكر بيروت ومعه اربع مائة جندي منظم وصحبه سعيد بك جنبلات وعلي بك حماده وجمهور غفير من الدروز مسلحين بالسلاح الكامل . وقبل ان يدخل طاهر باشا البلدة حصل بينه وبين من معه مداولة استمرت ساعة من الزمن تقرّباً حضرها بشير بك ابي نكد ايضاً . وبقي ما دار بها مكتوماً عن النصارى الا ان ما حدث بعدها دلّ على انها كانت لتحكيم الشرك على المسيحيين واغتيالهم . وبعد ارفضاض الجلسة تقدم طاهر باشا ومن معه إلى البلدة فما اقرب منها خرج اعيان النصارى لاستقباله والترحيب به . واول شيء قاله لهم انه تكدر جداً من سلوككم وعدّهم من الخائنين الذين يعملون على خراب الدولة واهاجة الفتن بغية ادخال الدولة الفرنسية إلى لبنان . فتدلس القوم لديه وبرهنوا له على طاعتهم وامانتهم فتظاهر بالاعتناع بعد ذلك الغضب وقال انه يأسف جداً ممّا ألحق بهم وان السبب الوحيد الذي اضطره ان يأتي لاغاثتهم هو لانهم رعايا امانة للباب العالي ولم الحق الاكبر بان تحمي ذمارهم ومن واجبات الحكومة ان ترفع العداء عنهم وانه هو ضامن لهم حياتهم واموالهم وراحتهم و بعد ان سكن خواطرهم

وحملهم على الطأينة صرفهم من حضرته مكرراً مواعيده وشخص إلى بيت الدين « مركز حكومة لبنان » القريبة من دير القهر ولاجل زيادة اطمئنانهم ترك عندهم الجنود الذين كانوا معه

وفي الغد بعث طاهر باشا المشار اليه إلى دير القهر يستدعي وجوه النصارى ليوافوه إلى بيت الدين فساروا اليه على عجل فتلقاهم بغاية الترحيب والبشاشة مجدداً لهم المواعيد بصيانتهم وضمان حياتهم واموالهم وراحتهم ولكنه طلب منهم تعهداً مكتوباً على انفسهم بعدم اتيانهم ما يخل بالراحة وان يكونوا طوع ارادته ويمتنعوا عن حمل السلاح في البلدة فحرروا له التعهد المطلوب وامضوه جميعاً وقدموه له وطلبوا منه بالمثل ان يتعهد لهم كتابة بضمان امنيتهم وما وعدهم فأبى عليهم ذلك وقال ان كلمتي هي تعهد كاف وان حكومة دير القهر وقواد العساكر يكونون تحت المسؤولية الشديدة الكافية اذا نقاعسوا عن السهر على راحتهم فاطمئنوا واذهبوا إلى اشغالكم واعمالكم واعلموا اهل البلدة بما تعهدت لكم به لكن ايكن معلوماً عندكم ان الحكومة لا تكون مسؤولة عن الضرر الذي يصيب من يخرج منكم خارج البلدة « وما غايته بهذه الجملة الاخيرة الا منع المهاجرة كي يبقى الكل داخل الشرك خرافاً للذبح لا يفلت منهم قالت « فركنوا إلى كلامه واطمأنت قلوبهم به وعادوا إلى البلدة وهم يظنون بلوغ المنى . وحدث في ذلك اليوم ان بعض اصديق سعيد بك جنبالاط من النصارى توجهوا بعيالهم قاصدين الخنارة محل اقامة البك مخفوريين ببعض رجاله فعند مرورهم بالقرب من بيت الدين امر طاهر باشا احد ضباطه ان يمنعهم من المرور وان

يرجعهم إلى بيوتهم منكراً عليهم ترك البلدة وان يعيد لهم التطمين والتأمين ففعل ولكن اذا طلب اولئك الرجال مداومة السير رفض طلبهم واستعمل هذا الضابط القوة في ارجاعهم

وفي الغد « الثلاثاء » سابع عشر حزيران « يونيو » سنة ١٨٦٠ ذهب طاهر باشا من بيت الدين إلى دير القمر واحضر الاهالي لديه ووجد لهم التأمينات والتطمينات والتعهدات التي ابداهم في الاجتماع السابق فشكروه مظهرين ثقتهم به واتكالم على حماية الحكومة لانهم من اولاد الدولة وعبيدها الامناء

وبعد هنية علموا بانه (اي طاهر باشا) مزعم على السفر إلى بيروت تاركاً اياهم محاطين بالاعداء من كل جانب ومخطوراً عليهم الخروج خارج البلدة جلب القوت وطلب الرزق وعرضوا عليه واقعة حالهم فأجابهم بما انكم ابناء الدولة ورعايتها فانا مهتم بشأنكم فلا اترككم الا وكما يا اول لراحتكم موجود عندكم فكونوا مطمئنين فأرضاهم جوابه وخرجوا من حضرته داعين شاكرين

وبعد ذلك يومين حضر من صيدا الى دير القمر خمسمائة عسكري منظم مع مدفعين وانضموا إلى القوة العسكرية الموجودة فصارت مؤلفة من تسعمائة جندي جزء منهم في بيت الدين والباقي في دير القمر وبعد وصول هذه القوات اتى طاهر باشا دير القمر حيث كان ذهب إلى مقره بيت الدين واستدعى اعيانها ووجد لهم مواعيده وتعهداته وقال ينبغي ان تكونوا بغاية الاطمئنان بوجود الجنود السلطانية بينكم واني اصدرت الاوامر اللازمة للضباط ليجاموا عنكم

وقت الضرورة وعليه فلا يلزمكم ويلزم الاهالي الا الاهتمام باشغالهم واعمالهم واسباب معاشهم فقط . وبعد هذا الحديث طلب منادياً واطاقةً ينادي في كل البلدة بوجود الامان والطمانينة وان لا يلتفت الناس لشيء الا لاشغالهم ومصالحهم فقط فسكن روع الناس واطمأنت نفوسهم وذهب ما كان عندهم من الخوف واهملوا وسائط التوقي

وفي الوقت نفسه امر طاهر باشا حاكم البلدة ورؤساء العساكر بالانتباه واليقظة وان لا يدعوا البتة درزياً مسلحاً يدخل البلدة . ورتب حراساً وخفراء يطوفون ليلاً ونهاراً حول البلدة . وامر رؤساء العسكر ابداً بجلب الخنطة لعوز الاهالي والسعي في كفا فيه راحتهم وبعد ان اكمل دور اعماله وبات النصارى في الحالة التي يريدونها ورئيسه احمد باشا (اي وجودهم في قفص حديدي لا مخرج لهم منه ابداً) سافر مودعاً بشكر الاهالي وثنائهم

وبعد سفر طاهر باشا بقليل عاد الدروز واحاطوا بالبلدة احاطة السوار بالمعصم واخذوا كل المؤونة الواردة اليها وقد خرج ثلاثة من النصارى اصحاب العيال اكرم ازاء البلدة ليحضروا منه شيئاً لاجل قوت عيالهم فقتلوا للحال . وقد اعرض النصارى واقعة الحال لحكومة البلدة والضباط واعربوا لها عن حاجة البلدة للمؤونة وعن تعرض الدروز لذلك فكان الجواب تشديد منع الخروج من البلدة واعلانها عدم مسؤوليتها عن من يخالف هذا الامر ولو اصابه اي ضرر كان فرضيخ النصارى لذلك محتملين الشدة واثقال العوز الى المؤونة واستمر الحال على ذلك حتى نهار الاربعاء في ٢٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٠

وكان الدروز في الليلة السابقة يستعدون للهجوم ويعطون الاشارات بعضهم الى بعض فرأى النصارى تلك الاشارات وفهمها بعضهم ولكن القسم الاكبر ظنها من قبيل الفرح والالعب النارية

وفي ذلك النهار اي ٢٠ حزيران (يونيو) اخذ الدروز يدخلون البلدة فرقاً فرقاً من كل ناحية ومعهم الاسلحة مدعين بأنهم آتين من قبل المقاطعي (مدير المقاطعة) للمحافظة على الاهالي ومنع كل اذبة عنهم الا ان النصارى لما رأوهم على هذه الصفة توجسوا شراً ولا سيما عند ما نظروا ان العسكر لم يبد لهم أدنى معارضة خلافاً لما امر به طاهر باشا قبل سفره فأعرضوا الامر لحاكم البلدة والضباط فهو لاء حالاً نهضوا وطاقوا في البلدة منادين بالامان وان لا خوف على النصارى ابداً محظرين عليهم (اي على النصارى) حمل السلاح وبينما المنادي ينادي والحاكم والضباط في تطوافهم سمع بغتة صوت الطبل فدخل بعض العسكر السراي وابتدأ الدروز ومعهم البعض الآخر من العسكر ينهب وسلب كلما وصلت اليه ايديهم بدون معارض وعند غروب الشمس قتلوا نصرانياً اسمه حبيب الباحوط امام باب السراي بحضور رجال الخفر وبعد ذلك بوقت قصير قتلوا راهبين في ذلك المحل بعينه . واستمر الدروز ذلك الليل بطوله طائفتين بالبلدة رجالاً ونساءً على انوار المشاعل ناهبين سالبين والنصارى بحيرة وارتباك لا يدرون ماذا يفعلون فان دافعوا عن انفسهم خافوا انقلاب الحكومة عليهم بخالفتهم ما تعهدوا لها به وان صبروا على البلوى واتكلوا على الحكومة فهي متغاضية متقاعسة والمسألة مسألة اموال وارواح .

وكانت الحكومة قبل ذلك النهار قد جمعت كل ما امكن لها جمعة من سلاح النصارى كما تقدم

وفي الغد وهو الخميس ٢١ حزيران (يونيو) وصل دير القمر جماهير كثيرة من الدروز وافدين من جهات لبنان ودخلوها بأسلحتهم بدون ان يصادفوا من الحكومة اقل معارضة . ولما رأى ذلك النصارى تأكدوا اشتداد الحال عليهم وبلوغهم شفاهاوية الهلاك والدمار وانه لم يبق لهم من طريقة انجاعتهم بحسب ما ظنوا الا الاتجاه للسراية والاحتماء بكنف الحاكم والعساكر الموجودين فيها فلجأ بعضهم اليها آخذين معهم ما تيسر لهم اخذه من الامتعة التي امكنهم اخفائها من النهب فتلقاهم العسكر بالقبول فظنوا انهم بلغوا دار الامان . وقد لجأ جانب منهم الى بيت الدين فاستقبلهم قائمقام العساكر المنظمة على الرحب والسعة وبقي بعضهم مخفياً بالبلدة

ومن بعد ما نهب الدروز البلدة بغير ان يروا صاداً او ممانعاً يمنعهم عن شرهم اخذوا بالتفتيش على الانفس فقتلوا كل من صادفوه من الرجال والاولاد حتى وبعض النساء ايضاً وقد أجروا من الفظائع والاعمال البربرية ما نشعر منه الابدان لانهم كانوا يذبحون الاولاد في احضان امهاتهم والرجال على ركب نساءهم ويحرقون كثيرات من الناس وهن احياء في الطرق والشوارع متفاخرين بتلك الاعمال الشنيعة متهاينين متنافسين وكانوا يذرون رماد اولئك المساكين في الفضاء ليصعد الى طبقات السماء مع الرياح ويشهد لملائكتها كما شهدت دماؤهم لاهل الارض بما عوملوا به من الوحشية والظلم

ولما انتهوا من البلدة ولم يبق لهم بها من يضحونه على مذبح شرورهم
تجمعوا وقصدوا السراي ليدبحوا الاجئين اليها من النصارى وكانوا
نيف وثمانائة رجل وجمهور غفير من النساء والاولاد فنظر اليهم
النصارى وتوقعوا الشر ودنوا الاجل لانهم باتوا داخل قفص من
حديد لاشيء من اسباب الدفاع لديهم بعد ان اخذت اسلحتهم منهم
الا انهم كانوا يعللون النفس بالسلامة و يدفعون تلك المخاوف بتذكر
مواعيد طاهر باشا و ضماناته واعتقادهم بانهم في حمى الحكومة فلا يجسر
الدروز على الهجوم عليهم لحرمتها . الا ان كل هذه الاماني
المعقولة زالت من اولئك المساكين بوقت قصير وانقطع كل رجاء
منهم حيث لما كل تجمع الدروز امام السراي او القلعة تقدم احد
الجنود (باتارة من رؤسائه) وفتح الابواب امام الحاكم وقائمقام العساكر
وكثيرين من الضباط فدخل الدروز الحال وانقضوا على فريستهم
انقضاض الكواسر وبأيديهم الفؤوس مشهورة والسيوف مسلولة
والحرب مجرّدة واخذوا بقطع الرقاب وطعن الصدور و بتر الاعضاء
وارتكاب الشر والتفنى في الوحشية والعسكر يرى مقهقها ضاحكا على
اولئك المساكين الذين راحوا ضحية الخيانة والغدر . وقد تفنن الدروز
بشرهم تفننا غريبا فعذبوا الابرياء بأنواع المذاب المر فكان بعضهم
يقطع الرأس و بتر الاعضاء عضوا عضوا ولا يبالي بأنين المصاب
والامه و بعضهم يقطعون اصابع النصارى مخاطبينه خطاب الجمع
قائلين بهذه الاصابع كنتم تكتبون طالبين المساعدة والصيانة فخذوا
الآن جزاء ما جنيتم واجوبة ما كتبتم ثم لا يلبثون ان يهدروا دمه

قائلين تغسل به وتنعم آخر نعيم بدنياك وبعضهم كانوا يصبون على
راس النصراني ماءً غالياً اتوا به من العسكر ويقولون (بل به وها السيف
مز ينك بعده) و يقطعون رأسه بعد قطع آذانه وانه وتشويه خلقة
وبعضهم يأتون بالولد و يذبحونه بحجر والدته وبعضهم يجرون الزوج
و يجندلونه على ركة امرأته وقد جاءوا غير ذلك من الاعمال القاسية
البربرية مما يضيق لوصفه الصدر و يفرغ من تلاوته الدبر . ومن
امثلة ذلك ان امرأة فارس الحداد ذبح زوجها على حجرها و بقي طفلها
الرضيع على ذراعها تخافت عليه والتمست الاستجارة والعنو عنه فما كان
جواب نداها الا اخذ طفلها من يدها و ذبحه امام عينيها . واخرى
كانت حاضنة طفلها الرضيع فاخذ منها وصراخه يجرح الفؤاد واستجارته
بأمة تالين الجماد ودفع في الفضاء واستلقى بالسيف فقد شطرين ثم
دفعه لوالدته المسكينة وقيل لها ها قد سكتناه لك فالوالدة تأثرت من
روع العمل وقضت نجمها في الحال . واخرى هي زوجة عبد الله ابي
نجم ذبح اولاد زوجها على ركبته فاستغاثت واستجارت وكان نتيجة عملها
ان جرّ اولادها الثلاثة وذبحوا على ركبته واحداً بعد واحد . واخرى
اذ رأت ابنها ذبح امامها فقدت رشدها فأتوا بأخشاب ووضعوها عليها
وحرقوها حية وقد قتلوا كثيرات من النساء والاولاد . واستمرّ الدروز
على عملهم هذا حتى لم يبق امامهم نصراني ظاهر فأخذوا يفتشون في
جهات القلعة حتى لا يبق من يفلت من ايديهم وكان العسكر يساعدونهم
على ذلك كما انه اثناء دخول الدروز وهذا عملهم كان اذا رام نصراني
الالتجاء إلى المسكر والدخول بينهم للاحتماء بهم من وجه مطارديه او

اختفاء من اعدائه يدفعونه بالحراب . وقد اماتوا بعضاً بطعن حراهم
 وتمكن اثنان من النصارى من الفرار إلى سطوح السراي فعلم العساكر
 بهم فصعدوا اليهم وطرحوهم إلى الاسفل على البلاط فما واصلوا الارض
 الا وقد قضي عليهم وبعد ان كمل ذبح المختننين عاد الدروز ففتشوا بين
 النساء الباقيات فعثروا ببعض الرجال فأما توهم شرميئة واستمرؤوا بعملهم
 هذا كل ذلك اليوم وقد نهبوا جميع ما جاء به النصارى إلى السراي
 من متاع ومصاغ ودراهم وشاركهم العسكر بذلك . هنا يقف القلم
 ونترك الشرح للقارئ

كل هذه الحوادث جرت واعين الحاكم وقائمقام العساكر وضباطهم
 وجميع العساكر ناظرة ولم يكن من يتأثر او يبدي اقل شفقة وكانت
 ضجئات اولئك المساكين واستجاراتهم ونحيب نساءهم وعويل اولادهم
 لا تؤثر شيئاً في اولئك الذين تعبدوا لهم بالحماية ودفع المئات عنهم بل
 انهم عوضاً عن اغاثتهم والنظر اليهم كانوا يشددون قلوب مفترسيهم
 ويحضونهم على العمل وبيدون المسرة والفرح عند ما يرون بحيرة الدماء
 التي تكونت في ساحة السراي تزداد تدفقاً وارتفاعاً وتلك الذبائح
 ذبائح الظلم والعداء والخيانة والغدر والجبن تسبح بها شاكية امرها
 لباريها . وقد كان منظر السراي عند انتهاء الحادثة مخيفاً هائلاً يدل
 على توحش الاتراك والدروز وخيانتهم وتبرؤ الانسانية منهم . وبعد
 ان أنهى الدروز عملهم داخل السراي او القلعة خرجوا منها تاركينها
 تغمر جسوم القتلى فودعهم الحاكم والضباط والعسكر باشارات الرضى
 والشكر وقد خرج من بقي بها من نساء النصارى باقيات نائحات

نادبات عرايا حفايا مكشوفات الراس تايها في الجبال والقنار
متأسفات متحسرات على من فقدن متأثرات من روع المناظر التي
نظرنها والاهوال التي جرت عليهن . ويا لله يا لله من هذا الهول وهذا
المصاب العظيم

وقد ذهب الدروز من دير القمر بعد ان تركوها خراباً تبكي مجدها
وما كانت عليه بالامس اذ لم يبق بها من معالم عزها الا بقية قليلة
واتوا بيت الدين فدخلوا سراياها وذبجوا جميع النصارى الذين كانوا
قد لجأوا اليها مع مائة وتسعة اشخاص آخرين من قرى بيت الدين
والمعاصر بعد ان نهبوا تلك القرى ولم يبقوا على شيء فيها وحرقوها
امام اعين القائمقام والعسكر فكان لهيها يتأجج ودخانها يتصاعد حتى
حجب الشمس وكان منظرها الخيف يصل مسافة بعيدة فيسر الدروز
ويكدر النصارى وكل هذا جرى وهيئة الحكومة المحلية راضية عنه
وبعض ايدي عمالها مشتركة به وكل ما أنعم به العسكر من الشفقة على
النصارى في حادثة بيت الدين هو تسليم النصرائي اللاحج اليهم
لسيف الدرزي . ومن غرائب الخيانات ان احد الضباط كان له
خادم نصرائي خدمه بأمانة مدة طويلة ولكي يجازيه باخير على خدمته
النصوحة له سلمه بيده للموت فأماته الدروز امام اعين سيده شر
ميتة وسيده يقبه ويضحك . ولم يروا إلى الآن ان احد البهائم او
الوحوش اتى مثل هذا الشر الهائل

ومن بعد ما أنهى الدروز مذابج بيت الدين وفتكوا ونهبوا وحرقوا
القرى المجاورة لها رجعوا ثانية إلى دير القمر للفتك بدير الرهبان الذي

كان باقياً فيها واللايقاع بيت خليل الجاويش احد اعيان النصارى وقتل المعتصمين به ونهب اموالهم فهجموا على دير الرهبان وتمكنوا منه ودخلوه وقتلوا جميع الرهبان الموجودين فيه وقطعوه ارباً ارباً ثم اخذوا بنهبه فلم يبقوا به شيئاً وكان فيه كثير من اموال الاهالي وامتعتهم الغالية . ثم دخلوا كنيسة وخربوا هياكله ومزقوا صورته واهانوا اوانيد وسحقوا اجراسه وعطلوا قبابه ثم ألقوا النار فيه وفي البلدة . وقد كان عدد من قتل في حوادث دير القمر وبيت الدين والقرى التي حولها إلى ذلك الوقت نيف والف وخمسمائة رجل خلا النساء والاولاد والبنات والاطفال ولم يبق للدروز ما يفتكون به الا بيت الجاويش وكان هذا البيت متسع النطاق متين البنيان حصيناً وصاحبه من ذوي الوجاهة والافتدار ولما دخل الدروز المدينة قبل حادثة القلعة كما مر بك لجأ اليه نحو من ثلاثمائة وخمسين رجلاً من النصارى بأموالهم واسلحتهم اذ ابوا الدخول إلى السراي لانهم خافوا الفدر من العسكر بداعي ما رأوه من اهلهم وعدم اكرامهم بحماية المسيحيين بحسب ما تعهد لهم طاهر باشا وتحالف هؤلاء الرجال على الذود عن انفسهم واموالهم وعيالهم إلى آخر نسمة من حياتهم . وقد هابهم الدروز بادی الامر ولم يهاجموهم خيفة الفشل فاعتمدوا على الفتك اولاً بن سهل عليهم الفتك بهم نظير الذين في قلعتي دير القمر وبيت الدين والقرى حولها كما تقدم القول ومن ثم بقي ذلك البيت منفرداً فسهل عليهم الغلبة عليه لان جميع النصارى خارجه صاروا طعاماً لشفار السيوف وقراهم ودورهم باتت مطمعا للنار وحملوا على البيت المذكور حملات هائلة

فصدوا واستمرّوا ينازلونه فلنتركهم هنا الآن ولنذكر للقارىء ما صار في اثناء ذلك

ان دخول الدروز لدير القمر بالحالة التي ذكرناها ووقوع المسيحيين في تلك المخاطر المار ذكرها ببلغ بيروت فأعرضت عنه البطر كخانات ووكلاء الدول العظيمة إلى واليها فالوالي لم يسعه إلا ان ركب قاصداً بيت الدين بدعوى انه يتلافى الامر ويكف العداء عن النصارى فسافر في ٢١ حزيران « يونيو » من بيروت إلى محل قصده (وكانت تدبيرات طاهر باشا في ذلك اليوم آخذة منفعولها والمذابج قائمة على قدم وساق في دير القمر وبيت الدين في حمى العساكر وفي القرى المجاورة وفي دير الرهبان) فوصل مساءً ذلك اليوم إلى بيت الدين وكان امرها منتهياً والدروز في دير القمر ينازلون بيت الجاويش فبات بها تلك الليلة مستريحاً من مشقة السفر واتعابه وثاني يوم توجه إلى دير القمر لينظر في امورها ويصلح احوالها بحسب زعمه وكان الدروز ينازلون بيت الجاويش ويشددون عليه فلم يتعرض لامرهم

اما الذين كانوا في بيت الجاويش فلما رأوا ما حاق بهم من الخراب والحريق وكثرة جموع الدروز عليهم وانه لا ناصر لهم وعددهم كبير وليس لهم من المؤونة ما يجعلهم يتابعون الدفاع تشاوروا وقرّروا على اتخاذ طرق سلمية مع الدروز يكون من ورائها سلامتهم واخراجهم من الخطر الذي صاروا اليه فراسلوا بذلك بشير بك ابي نكد احد كبراء الدروز واعيانهم معرضين عليه رغبتهم في كف القتال وحجب الدماء من الجانبين ويعرضون عليه افتداء انفسهم بكل ما يملكونه وما

هو موجود في البيت من الاموال وكان شيئاً كثيراً فقبل منهم بذلك ووعدهم باجابة طلبهم الا انه ما لبث ذلك الترتيب ان نقض وما وعدوا به استحال إلى ضده وتفصيل الامر هو ان الدروز لما رأوا بأن ما أعرض على بشير بك ابي نكد لا يوافق مقاصدهم وان المال في كل حال لهم واذا جروا على وعد بشير بك يسلم من النصارى ٢٥٠ رجلاً جنحوا إلى نقض الوعد بطريقة تمكنهم من القوم براحة ولا تكلفهم خسارة رجل وذلك ان احد امراء الدروز من آل ارسلان اتى قصد ان ينجي خليل الجاويش وعائلته لما بينهما من الود والحب فأتى البيت فأنس به النصارى سيما لما رأوه عاملاً على خلاص زعيمهم فظنوا بأن ذلك من مقدمات طلبهم الذي أجيب الا انه ما أخرج خليل الجاويش وعائلته من البيت الا واغتم الدروز فرصة اطمئنان النصارى واركانهم حتى هجموا على البيت هجمة واحدة خفيفة قيل انها كانت باشارة من الارسلاني ودخلوا البيت واعملوا السيوف بمن فيه وما طال الوقت حتى قتلوهم ثم انتهبوا تلك الاموال الغزيرة واوقدوا النار بارحاء البيت . ثم أضحى البيت مأكلاً للنار نظير بقية بيوت البلدة وهكذا انتهى امر دير القهر وصارت رماداً بعد ان كانت بالامس وما قبله جنة لبنان ومركز قواه وتجارته وغناه

وبعد ان تمت هذه المذبحة الفظيعة الهائلة اطلق الوالي المنادي ينادي بالامان . ولكن لمن ?? وامر الدروز بترك البلدة وقتل مظهر التشديدات الكلية فأجابوا النداء حالاً ممثلين الامر غير مراجعين ولا مخالفين وما ذلك الا لان المدينة امست قاعاً صفصفاً ولم يبق من

غرض لم بها وصار غرضهم سواها فجلوا عنها مظهرين الطاعة لاوامر
الوالي وهو مظهر الرضاء من رضوخهم له . وبعد انجلاء الدروز اطلق
حضرتة مدفعاً تأكيداً لخلول الامان وكف التعديات ظاناً انه يطمئن
سكان تلك الخرابات الذين تلاشوا عن آخرهم واضمحوا رمماً مطروحة
في الشوارع والازقة والحرب وسراي دير القمر وبيت الدين وهكذا
انصرف عن دير القمر مفتخراً بايجاده الامن ولكن للاموات

وفي ٢٣ حزيران (يونيو) اضرم الدروز النار في منزل الامير
قاسم شهاب الكائن في بيت الدين امام سراي الوالي ولم يمانعهم احد
في ذلك

اما رؤساء الدروز الذين حضروا وقائع دير القمر هذه ورتبوا
امرها فكانوا سعيد بك جنبلاط والمشايخ العاديين ومشايخ وبكوات
عائلة ابي نكد وجميع آل حمادة وغيرهم

وبقيت جثث القتلى في محل مذابجها مدة للطيور ووحوش البرية
اذ لم يكن من يدفنها او يواريها التراب واهتم اهل الدير بجمع عظام
موتاهم بعد الحوادث المذكورة ودفنوها في مكان بالدير ويسمونها البعض
عظام الشهداء

وقد لجأ الهاربون والنساء والاطفال بعد معاينتهم ما جرى إلى
الشطوط البحرية فنظر اخوانهم وقناصل الدول الاجنبية لحالم وعاملوهم
بالانسانية والحسنى ومداد عوزهم بما تيسر

فصل

في مذابح المتن والساحل

ان واقعة بيت مري الاولى الّتي حدثت في ١٥ آب (اغسطس) سنة ١٨٥٩ وتجدد بسببها تنافر قلوب الاهالي ونج منها حريق ثلاث قرى للنصارى وهي قريتي راس الحرف . ودير الحرف . وقرية اخرى بيد الشيخ يوسف عبد الملك كما تقدم لنا القول كانت سبباً لدخول ارباب المقاصد والغايات من غير الاهالي في ميدان المباراة والمناظرة سعيًا وراء ما يبتغون وسبيلًا لاجراء تدبيرات احمد باشا ومن جاراته من الحكام على تنفيذها كخورشيد باشا وغيره

ولا ريب في ان عدم حزم خورشيد باشا وميله عن جانب العدالة والانصاف باهماله قصاص المعتدين في الشر الاول روج تلك السياسة الّتي قصدها احمد باشا منذ فتحت له هذه الثغرة الوطنية ورام ان يتخذها موصلاً لمقاصده السيئة . ولسوء الحظ قد جاءت كل الاحوال موصلة لذلك السبيل الرديء وداعية لسفك دماء الالوف من رعايا السلطان الامناء ونهب اموالهم وخراب ديارهم

ولقد كان كثيرون من عقلاء اهالي لبنان وغيره من مدن سوريا وارجائها يرون سوء الحالة ومحسبون لعواقبها المشؤمة حساباً ويسعون جهدهم في تلافي الامور. الا ان قلتهم حالت دون منع البلاء

ولكنها نفعت في جهات كثيرة وترتب عليها حجب الدماء ومنع الدمار
ثم ان عدم قصاص المعتدين في حادثة بيت مري الاولى شجع
الدروز وحذر النصارى ولما ذهب فصل الشتاء ووافى الربيع ورأى
اولو السكينة آمالهم خائبة من جهة الامن واستقرار الراحة وان
مقدمات الشر على اتساع وتهيئة على ازدياد وقد اتصل إلى جهات
كثيرة وان المعتدين يزدادون تمرداً وغنواً بما ينالونه من المساعدات
السريّة والتنشيطات القويّة حتى باتت الطرقات مقطوعة على النصارى
وصاروا في خطر وتعطلت اعمالهم وتلفت مزروعاتهم ولم يبق لهم للمعاش
سبيل وان الحالة صارت اردأ ممّا كانت عليه في الخريف الماضي
اعرضوا خورشيد باشا الامور الحاصلة ونهبوه إلى سوء المصير فأظهر
الاهتمام واطمن السرور وصرف القوم على نية التبصر بالامر وما
ابدى بالفعل الا الاغضاء وما كان الشر الا برضاه وتدبيره

ولما رأى النصارى حالتهم التعيسة وان شيكوهم ذهبت سدى
وكما يجري حولهم وما يرونه بأعينهم يدل على احداق الخطر بهم
اندفعوا بسنة حفظ البقاء والحرص على الحياة والمقتنى إلى الاعتناء
بشؤونهم لدفع البلاء عنهم فرأوا ان قوتهم لا تعادل قوة الدروز
الساكنين بينهم والمحيطين بهم وان يوم البلاء قريب فاستنجدوا باخوانهم
من سكان كسروان فاهتم الكساروة في الاستعداد لنجدتهم وما علم
خورشيد باشا بذلك ورأى الحاج وكلاء الدول الاجنبية عليه في
بيروت بتلافي الامور وايجاد الامن ذهب إلى الحازمية بجانب من
عسكره المنظم وجانب آخر من عسكر الباشبوق مؤلف من شراذم

من البشناق وخلافهم ومن بكوات بلاد عكار ورجالهم وعسكر هناك وتظاهر بأن قصده رنع العداء عن النصارى وحسم الشر وإيجاد الامن في الطرقات وما شاكل ذلك. إلا أنه لم يطل الحال إلا وجاءت الامور على عكس ما اعلن واظهر وكانت نتيجةها الايقاع بالمسيحيين ايقاعاً شديداً

و اول شيء عمله عند احتلاله الحازمية هو اظهاره الرغبة بتقريب قلوب النصارى والدروز بعضها إلى بعض فاستدعى وجهاء الملتين وابان لهم رغبته في السلم وصالحهم وصرفهم من حضرته إلا ان صلحهم لم يكن على اساس متين لاقتصاره على الظاهر واضرايه عن تسوية الامور المهمة والحزم اللازم في مثل هذه الامور. وقد اكتفى به على وهنه واعلنه لوكلاء الدول الاجنبية في بيروت مبيناً لهم انصراف المشكل وإيجاد الامن. فالنصارى سرّوا من ذلك واطمأنت خواطرهم اليه وظنوه مبدأ زمن راحتهم الجديد الذي كانوا يسهون اليه بعد ان فقدوا الامن مدة طويلة ولكن خابت آمالهم اذ لم يطل الحال إلا وانتقض هذا الصلح الفاسد بيد الدروز ولم يكن من يسألهم عما فعلوه فانهم (اي الدروز) لم يخرجوا من حضرة الباشا بعد عقد الصلح بوقت قصيراً إلا واستأنفوا ما نهامهم الصلح عنه وازدادوا عداً واعنداء للنصارى وشدّدوا الضغط عليهم وازادوا حالتهم ضغطاً وشدة فذهب عن النصارى ما نالوه من الطمأنينة والارتياح إلى السكينة باحتلال الباشا وعساكره الحازمية والصلح الذي عقب ذلك فأعرضوا الامر للباشا وذكروه بوعدهم أن الصلح من مؤاخذة الظالم وانصاف المظلوم فوعدهم

بالاقتصاص من المعتدين على عجل وطمن خواطرهم وصرفهم فوثقوا بقوله
وما وصلوا ديارهم ومضى الوقت القصير الأ وازدادت حالتهم تعاسة
وشناعة واصبح امنهم منقوداً وجموع الدروز المدججة بالاسلحة الكاملة
تحيط بهم من كل ناحية متوقعة دنو الساعة للفتك بهم

وحدثت في يوم ٢٦ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ مظاهرات
عدائية كثيرة من الدروز وانشيد حربية متواترة على مسمع ومرأى
من المعسكر والعسكر لم يبد اقل ممانعة فوق النصارى بخوف وياس
واخذ كثيرون منهم يرحلون بحريمهم واولادهم إلى بيروت مصادفين
في طريقهم انواع التعدي والخسف من عساكر السلطان والذين بقوا
منهم في اماكنهم وطفدوا النفس واقروها على حفظ ديارهم واموالهم
ودمائهم بقوتهم وبالعونة الكسروانية التي اتصل بهم خبر قدومها تحت
قيادة شجاعان آغا العضيبي الصرباوي وآخر من الرجال المشهورين
بالشجاعة والاقدام

وفي ٢٧ ايار (مايو) غربي سنة ١٨٦٠ . تزايدت مظاهرات
الدروز العدائية واخذوا يقطعون الطرق على الفارين إلى بيروت
ويقتلون كل من ظفروا به منهم ولو كان عاجزاً وممن قتلوا في ذلك
اليوم من الاعيان الامير بشير قاسم شهاب المعروف بأبي طحين « وهو
الذي كان حاكماً على لبنان بعد الامير بشير عمر الشهابي المعروف
بالمالطي » ظفروا به وهو خارج من سرايه وفاراً إلى بيروت وقتلوه
على الطريق بين جنائن قرية الحدث وكان وقتئذ كفيف البصر وبالغا
من العمر ثمانين سنة . وقتلوا ايضاً في جوار وادي شحور الامير

عباس سلمان الشهابي وهو فارٌّ إلى بيروت وكان اعرج يبلغ الستين من العمر وقتلوا بعضاً من حاشية المذكور وفقد الامن من البلاد وفي ضحى هذا اليوم بنفسه وصلت النجدة الكسروانية مؤلفة من نحو اربعمائة مقاتل تحت قيادة من ذكرنا فاطمّنت بها انفس النصارى وتشددت وحلت مهابتها في قلوب الدروز الاّ انه لم يطل بها المقام ولم تسترح من تعب السفر (وكانت قد عسكرت في جهة بعيدا) حتى علم بامرها خورشيد باشا فأرسل حالاً واستدعى وجوه النصارى اليه في الحازمية وطلب منهم صرف قواتهم والقاء اسلحتهم انقاء تفاقم الخطب واتساع نطاق الفتنة فشرحوا له عن الاخطار المحدقة بهم وما يأتيه الدروز كل يوم من التعديات غير مراعين جانب الصلح ولا جانحين إلى السكينة وان عدم امثال الدروز لاوامره يبعد الطمأنينة عن النصارى ويجعلهم مضطرين للذود عن انفسهم فأجابهم بأن يمتثلوا لامره وهو يكف ايدي المعتدين عنهم وينيلهم راحتهم ويقتص لهم من اعدائهم وانه خيرٌ لهم ان يسلموا مقابلد امورهم إلى الحكومة وياقنوا اتكالم عليها وهي تحافظ عليهم كاولادها الطائعين فامتثلوا امره ووثقوا بقوله وخرجوا من لدنه واملوا ان بواسطته يزول كربهم ويرتفع الشر عنهم وتنصرف جموع الدروز المحيطة بقراهم

وبعد هذه المواجهة والمواعيد التي اطمّنت لها خواطر النصارى رأّت النجدة بانه لا لزوم لها لان الامن صار يحسب موجوداً بناءً على مواعيد الباشا وتعهداته . فقفلت من ساعتها راجعة عن طريق بيت مري تاركة الاهتمام بشأن القتال والكفاح . ولم تسر قليلاً ونسب

الطريق ما بين بيت مري والعبيدية حتى انقضت عليها جماهير الدروز
تحت قيادة رجال من بيت عبد الملك وغيرهم فانتشب القتال وقتاً قصيراً
خسر به كل من الجانبين نحواً من عشرين قتيل وجريح . ولما رأى
الباشا النصارى يتأهبون لنجدة فرقتهم التي انقضت عليها الدروز غيلة
ويستعدون للايقاع بالدروز تقدم بعسكره الباشبازق مصحوباً ببعض
المدافع وطمعن خواطر النصارى واطهر لهم كدره من الدروز وانه تقدم
للانتقام لهم منهم فارتاحوا لقوله لانهم رأوا منه دلائل الاهتمام بالعمل .
وهكذا سارت النجدة في سبيلها معتقدة ان خورشيد باشا سيقترض من
الغادرين ويرجع الامن . وقد اصدر الباشا اوامره للدروز بالكف عن
التعدي والرجوع عن اعمالهم المغايرة فكانت نتائج هذه الاوامر رجوع
الدروز الى مراكزهم الاولى التي غادروها عند تأثرهم النجدة واحباطهم
بقري النصارى ثانية متهددينها بالويل والثبور . ولا ريب ان حالة
ك هذه جعلت النصارى على غير رضى وشك عظيم بمواعيد الباشا التي
كثر تكرارها عليهم فلذلك رأوا الاهتمام بحفظ حياتهم وديارهم من
اعدائهم ضربة لازب فأخذوا يتظاهرون بالقوة والاستعداد للدفاع
وعمل ما يحسب دليلاً على القدرة والشجاعة بحسب عرف اهالي الجبال
وعوائدهم المألوفة كل ذلك لكي يلقوا الرعب في انفس اعدائهم
ولم يطل الامر على الحوادث التي ذكرناها قليلاً الا واطلق
خورشيد باشا مدفعاً من معسكره تبعه تقدم عسكره الباشبازق الى
الامام فظن النصارى بأن الطلق ارهاباً للدروز وتقدم العساكر لتفريق
جموعهم بالقوة فاندفع عنهم بذلك ما خامرهم من الريب بمواعيد الباشا

وتعهداته وعللوا انفسهم بقرب انفراج كربتهم ولكنها كانت اشارة
اتفق عليها مع الدروز لاشهار الحرب ولم يمض على هذه المظاهرات
نحو نصف ساعة الا وتحول اطمئنانهم إلى خوف وهلع لان جموع
الباشيزق انضمت إلى الدروز وهجموا جميعاً على قرى النصارى ومزارعهم
منشدین اناشيد الحرب والظفر مشهرين السيوف ومجردين الاسلحة
آخذين بالقتل والنهب والحرق فدافع النصارى مدةً الا انه بالنظر
لهذه المباغنة لم يكن بوسعهم الثبات فوقع الخلل فيهم واستولى الخوف
على قلوبهم وكان كل شيء في الفوز بنفسه او الاعناء بنجاة امراته
وصغارهم وقد كان اعداؤهم كثيرين لا قبل لهم بمقاتلتهم لاسيما بعد ان
انضم إلى الدروز عساكر الباشيزق . فلذلك لم يطل الوقت حتى اضحت
تلك القرى مسرحاً للتعديات والاعمال الوحشية على انواعها واتون نار
ملتهبة لا تسمع منه الا صراخ النساء وبكاء الاولاد وانين القتلى
وترنمات المعتدين ولا يمثل ضمنه الا كل عمل شنيع وفعل فظيع وقد
جاء الباشيزق في ذلك اليوم من الاعمال البربرية والافعال الوحشية
ما تشيب لولده نواصي الرضع فانهم كانوا اذا ظفروا بشيخ اعدته الايام
واحناه المرم اخذوا بفصل اعضاء جسده واحداً فواحداً بسيوفهم
ومديهم وتركوه يموت في اشد العذاب وان صدقوا شاباً تسابقوا
اليه بسلاحهم فلا يتركون جثته الا وفيها مئات من الجراح وان
وجدوا طفلاً شطروه بسيوفهم شطرين . وان كان على يد والدته
رفعوه الى الفضاء واستلقوه على رؤوس الحراب ومن ثم يسلونه
لوالدته وهي تبكي وتتوسل اليهم ان يكفوا عنه قائلين خذي ابنك

اننا سكتناه لك وكفيناك شرّ تعبك بذلك فادفعي اجرتنا ويقبلون
 عليها فاذا كان باذنها قرط اخنطفوه شارمين الاذن او بيدها سوار
 اخذوه وان تعذر اخراجه سريعا قطعوا اليد واخذوه وان كان
 معها شيء من النقود اخفته الاستعانة به ابتزوه منها واكرهوها على
 تسليمه وان تمتعت طعنوها وهكذا اتوا كل امرئ قاس بربري والدروز
 نظيرهم لا يتقون على شيء فلم يطل الحال حتى صارت تلك القرى
 ميدان خراب ودمار وبقعة جهنمية تجري في وسطها انواع الفظائع
 والاهوال ممّا ذكر وممّا لم يذكر ولهب النار صادر من جميع ارجائها
 والنهبه السالبون حولها آخذين اسلاب اولئك المنكودين وما كان لهم
 من المقتنيات والاثاث والمؤونة والدينار وكل لوازم الحياة ولم يبق
 من دير او صومعة او بيت او دكان او زريبة الا والنار تلعب بها
 والريح يوج اللهب والدخان عاقد مرادقه في الفضاء يحجب نور الغزالة
 ويعلن البعيد والقريب بما حلّ بتلك البقعة من الويل والثبور ومن
 جهة ثانية كنت ترى من اسعده الحظ من تلك القرى وفاز بالنجاة
 بحالة من اشد الحالات يهيم قاصدا ملجأ امينا والخوف ملء قلبه
 وغبرات الموت على وجهه . وكم من امرأة كانت تنعي زوجها ونقود
 ولدها وتندب اخاها وتبكي طفلها والحيرة تلازمها لا تعلم أين تسير
 وإلى أين تلجئ ان التفت إلى الوراء ازدادت نحيبا اذ ترى ما صارت
 اليه من الشقاء وما يقطع آمالها من الاجتماع بمن لها من الاعزاء
 وبالاجمال كان كل خائف لا يعي الا على ما به من الخوف والحذر
 من السقوط بيد الاعداء . وكانت مدينة بيروت قريبة فلجأ اليها معظم

الفارين ولتوا من مسيحييها ووكلاء الدول والجمعيات الخيرية والاديرة فيها اشفاقاً وقبولاً اذ اوى المذكورون اولئك المنهزمين الحزاني العراة الجياع واهتموا بشؤونهم واجروا لهم الرزق اليومي اعالتهم وتحنينا لمصابهم وقد كان بدء الهجوم على قرية بعبداء واتصل منها لغيرها في وقت قصير وكان الهاجمون عند ما يدخلون القرية يجتهدون في القتل اولاً وارتكاب الشنائع حتى اذا لم يبق امامهم احد يأخذون بالنهب ثم بالحرق ثم بتتبع الفارين من وجوههم والايقاع بمن يظفرون به منهم . وقد حرق في ذلك اليوم من قرى الساحل الجنوبي وادي شحرور العليا والسفلى وبعبداء والحدث ومزرعة اللويزة . ومن المتن الاعلى بيت مري وبرمانا ومزارعها مع بعض قرى صغيرة مجاورة لها . وكل ذلك جرى واعين خورشيد باشا تنظر اليه وقد بذل جهده بزيادة الخراب والشر بواسطة عسكره الباشيزق

ومما يحسن بالمؤرخ في هذا المقام ذكره ما جاء به المرحوم الامير محمد ارسلان حاكم الشوف في ذلك الوقت فان هذا الامير الخطير والعالم الشهير لم يشأ ان يجاري ابناء طائفة الدروز ويشترك معهم بما اتوه من المنكرات بل كان مضاداً لما جاءوا به ومجتهداً بكف اسباب العداء والخصام وكان من شأنه حمل قومه على السكينة والسير بحسب مطالب الانسانية والسلام ولما اعيت الحيل ولم يجد لارشاداته مصغياً ولنصائحهم مجيباً اتخذ على نفسه صيانة بلاده وسلامتها من كل شر وعمل على ايجاد الامن في انحاءها ففاز بمقاصده ولم يحدث في بلاده اقل ضرر لاحد الناس . وقد قال البعض بان ذلك كان سياسة منه

غايتهُ بها تنفع قومه لانهُ بواسطتها منع النصارى الكثيرى العدد في مقاطعتِه عن انجاد اخوانهم والحال ان هذا القول بعيد عن الواقع بمراحل فان تصرف الامير المذكور لم يكن الا عن حكمةٍ وسريرة جيدة ورغبة أكيدة في السلام

ولما ضاقت صدور القناصل في بيروت من فعال خورشيد باشا ورأوا ان ذهابه إلى الحازمية لم يكن الا بقصد منع الفارين من النصارى من الالتجاء إلى بيروت وان عساكره قتلت من ابرياء النصارى اكثر مما قتل الدروز ذهبوا اليه كلهم وتهددوه بالاساطيل والجيوش الاوربية اذا هو لم يرجع عن فعاله الرديئة فتظاهروا بالطيبة والاسف على ما جرى للنصارى وقال انه خلص كثيرين منهم واتى ما في قدرته لمنع الاعنداء عنهم ولكنهم هم الذين كانوا يثيرون الحرب على الدروز فاذا امتنعوا عن العدوان بطل الاعنداء عليهم وهو يضمن ان الدروز لا يجركون ساكننا الا في الدفاع عن انفسهم فقال القناصل ونحن نضمن ان النصارى لا يعتدون ولا يحاربون فاتفق معهم على ان يرسلوا إلى النصارى بالعدول عن الاستعداد للحرب وهو يأمر الدروز بالهدو والسكينة واكد لهم انهم اذا قاموا بوعدهم وسمع النصارى قولهم لم يبق موجب للقلق فصدقوه ورجعوا من عنده فارسل قنصل فرنسا وانكثرا الرسل إلى النصارى بالسكوت وعدم حمل السلاح واما خورشيد باشا فلم يمهله الدروز عن شرهم وهكذا لعبت الخيانة دورها مرة أخرى اذ اخذ النصارى على غرة ومنعوا من الاستعداد لوقاية انفسهم في حين ان الاتراك والدروز كانوا يعملون في كل يوم على الفتك بهم

فصل

في ما اصاب صيدا ونواحيها

ان حوادث بيت مري وغيرها وتصرف الحكام زاد جرأة كل من يروم عداءً وانتقاماً وواجب على النصارى ان يوجهوا اهتمامهم إلى حالتهم الخطرة . ولذلك لما سمع نصارى اقليم التفاح الكائن على مقربة من صيدا بحوادث بيت مري التي تقدم ذكرها ورأوا الشر متقدماً نحوهم اهتموا للافاة الخطوب ورفعها عنهم فالضموا بعضهم إلى بعض تحت قيادة رجل منهم مشهور بالبأس والاقدام بينهم يسمى يوسف المبيض من قرية درب السين وهي على مسيرة ساعة عن مدينة صيدا لجهة الشرق الجنوبي كما انه في الوقت نفسه اخذ دروز تلك الجهات والمسلمون في اقليم الخروب المجاور يسعون بالايقاع في جيرانهم النصارى وينضمون تحت قيادة رجل درزي مشهور في تلك النواحي اسمه قاسم يوسف

وفي يوم الجمعة سنة ١٨٦٠ (كان عيد الغنصرة عند جميع النصارى في يوم واحد لانها كانت سنة كبيس) هجم قاسم يوسف برجاله على اربع قرى للنصارى في وقت واحد فقام يوسف المبيض برجاله لصدّه فالتقى الجيشان فوق بساتين صيدا في سهل واقع بين الهلالية والبرامية ودارت بينهما رحى القتال وكاد جيش يوسف المبيض

يفوز بالغلبة إلا أنه عند ذلك جاءت نجدة عظيمة لجيش قاسم يوسف من الدروز ومسلمي صيدا واكثرتها تمكنت من الاحاطة بجيش يوسف المبيض احاطة السوار بالمعصم . ولما رأى يوسف المبيض انه صار في حالة لا تمكنه من الفوز اشار على رجاله بالانهزام ولكن اذ كانت الاعداء محيطة بهم من كل صوب لم يقدرُوا ان ينهزموا منضمين فوق الخلل في ترتيبهم وتفرقوا ايدي سبا فبعضهم أمَّ ابواب صيدا لاجئاً اليها وبعضهم قصد طريق لبنان وبعضهم غيرها وكان اعداؤهم يطاردونهم ويقتلون كل من يظفرون به منهم

وقد بلغت اخبار انكسار يوسف المبيض مدينة صيدا والمسلمون في الجوامع للصلاة فاخذ مفتي صيدا يخطب في الناس محرضاً اياهم على قتال النصارى والجهاد والايقاع بهم فخرج التوم من الجوامع متجهين وممتئين حنقاً سادين ذانهم عن سماع نصائح اولي العلم والتعقل الذين لم يروا في ما قاله المفتي اصابة بل خطأً وتمادياً في التهور . وكان هذا يذهب لسلاحه وذاك لعصاه خارجاً لمشاركة المعتدين بشروهم موقعاً بمن صادفه من النصارى ضرباً وشمّاً وقتلاً وتجديفاً فاستولى الرعب على انحاء المدينة وكثر فيها الهياج والخوف فاقفلت الدكاكين والمخازن وتوارى النصارى واستولى عليهم الهلع الشديد وباتوا ينتظرون الهلاك دقيقة فدقيقة اعلمهم بانه ما من حكومة تدافع عنهم لارت رجالها مع الثائرين وليس لهم اسباب للدفاع عن انفسهم . وزد على ذلك قلة عددهم بالنسبة لجيرانهم فلم يمضِ القليل حتى خلت شوارع المدينة من النصارى حيث صار بعضهم ضمن جدران بيوتهم وعدد

كبير منهم في خان الافرنج حيث كان مسكن الموسيو دريكلو قنصل
فرنسا ومسكن راهبات القديس يوسف الافرنج وقد فضل الاغلبون
الاتجاء إلى هذا الخان لاعتقادهم بان الثوار لا يدخلونه اولا للعادة
القديمة المتوارثة وهي احترام الخانات اثناء الثورات وثانياً لحرمة قنصلاته
فرنسا الموجودة فيه. ولجأ لهذا الخان عدد ليس بقليل من اهالي الجبل
الذين امكنهم النجاة من الذبح امام صيدا ومن كانوا في المدينة قبل
حدوث واقعة ذلك الصباح

ولما رأى اولئك الثوار ان النصارى تواروا من امامهم وعلموا بان
الفارين من الجبل كثيرو العدد وانهم اخذوا بالاتجاء لصيدا تركوا
امر نصارى مدينتهم لحسابهم انهم في قبضة يدهم ينالون منهم ما ربههم
متى شاؤوا وتوجهوا إلى باب المدينة وبساتينها ليرصدوا الوافدين اليها
من الهاربين من الاعداء ويوقعوا بهم وقد نفذوا ما نووه تنفيذاً تاماً
كما سيجي بك

وكان الذين هربوا الى جهة الجبل بعد انكسار يوسف المبيض
عدداً غفيراً والاعداء في أثرهم ولكي يتخلصوا من حالتهم الخطرة
ويفوزوا بانفسهم ارتأى بعضهم الاجتماع في جزين والانضمام إلى
اهلها النصارى اذ بذلك تكثر قوتهم ويكون لهم اقتدار على دفع الاعداء
عنهم فيصرون على نوع ما بأمن على حياتهم ولكن خاب فالهم فان
جزين في ذلك اليوم كانت في اشد الضيق والوبال لمهاجمة الدروز لها
مهاجمة عنيفة واليك البيان

جزين بلدة كثيرة عدد السكان وحولها قرى عامرة من النصارى

تجمع عدداً كبيراً من الرجال الاشداء وكان الدروز يحسبون انه اذا انضم اهالي جزين إلى اقليم التفاح تعسر على الدروز الايقاع بهم وربما دارت الدائرة عليهم (اي على الدروز) اذا نازلوهم فلاجل التخلص من هذه الصعوبة الخطرة رأى عظماء الدروز ان الحكمة تقضي عليهم ان يسعوا بعدم انضمام اقليم جزين إلى اقليم التفاح لكي يتسهل لهم بذلك الفوز والغلبة على الاقليمين وسعوا بانفاذ ما رتبوه . فان سعيد بك جن بلاط اكبرحكام الدروز في ذلك الوقت واعظمهم نفوذاً واقتداراً وغنى حرر إلى اهالي جزين امراً مضموناً ان لا خوف عليهم من شيء من الحركات الجارية وانهم في مأمن من كل طارئ بشرط ان لا يبرحوا بلدتهم ولا يتدخلوا مع سواهم في مسائل الحرب الجارية فصدقوه وصدعوا بامرهم واتبعوا تلك المشورة اذ حسبوا ان تدخلهم في الحوادث الجارية كان للذود عنهم ودفع العداء عن ديارهم فلما نالوا هذه الغاية على اهون سبب بما كتبه لهم سعيد بك المذكور امتنعوا عن كل تدخل وزال عنهم الاضطراب وباتوا لا يحسبون حساباً لما هو جارٍ حولهم . وذهبوا إلى حقوقهم ومصالحهم بحسب عوائدهم تاركين اسلحتهم في بيوتهم ولم يفتن اولئك المساكين إلى ان ما كتب لهم دسيسة يقصد منها اخذهم غيمة باردة على اهون سبب واقرب طريق . وفي يوم الجمعة المذكور بينما كان القوم في مأمن يعملون في حقوقهم دهمهم الدروز وشددوا في قتالهم واخذوا في نهب بلدتهم وما حولها من القرى واعملوا فيها النار والسيوف وقتلوا كل من وقع في ايديهم من رجالها . ولما رأى اولئك المساكين ما حل بهم من الويل والشور وعدم اقتدارهم

على الوقوف امام اعدائهم لجأوا إلى الفرار مشتتي الشمل والسيف وراءهم لا يعلم احد منهم عن سواه شيئاً وكانت حالتهم تفتت الاكباد وتذيب الجماد وكل منهم يطلب النجاة وهو مضطرب البال لا يعلم بما اصاب ذويه واقاربيه واما النساء فحدث عن حالتهم ولا حرج كانت الواحدة منهم لا تعلم بما اصاب زوجها او ابنتها لان البلية حلت بهم على حين غفلة وهم متفرقون في الحقول والمزارع وقد لجأ نحو الف نفس من جزين وقراها إلى غاب قريب منهم وتواروا به من اوجه اعدائهم ظانين ان به النجاة لهم ولكن لسوء بختهم علم الدروز بملاجئهم فأتوا واحاطوا به واوقدوا النار في جميع اطرافه وما مضى القليل حتى اضحى ذلك الغاب شعلة نار نظير القرى التي كان يعمل بها لسائر اللهب فمات اولئك المساكن ضمن ذلك الاتون الجهنمي ولم يفلت منهم الا القليل . ومعظم الفارين من هذه النوائب قصدوا صيدا لظنهم بأنها دار أمان لهم . فكانوا يصادفون في اثناء هربهم الموت الاحمر فان شرازم الدروز ومن معهم كانت لهم بالمرصاد تقتل كل رجل تظفر به بغير اشفاق ولكن لا تساع فسحة البر تمكن كثيرون من السلامة ووصلوا إلى بساتين صيدا وابوابها وهناك لقوا من ثوار صيدا شراً ما لقوه في اثناء هربهم فان اولئك الثوار كانوا يظفرون بغنيمتهم في بقعة ضيقة من الارض فيذيقونها الموت الاحمر على ما يملوهم من طرق العذاب الوحشية وكانت تلك الغنائم ترد عليهم فرقا فرقا فيتمكنون منها ويعملون اسلحتهم فيها بحسب ما يشتهون ويرغبون ولم يكذب يفلت واحد من يد اولئك الجلادين القساة . ولم يقتصر الحال في التعدي

امام ابواب صيدا وفي بساينها على الفتك بالرجال والفتيان بل تناول
الاطفال والاعراض ايضا وكل نوع من انواع المحارم والعياذ بالله
وكانت تلك الجثث بعد ان تنال حظها من العذاب والهوان تبقى في
محلات جزرها مأكلاً للطيور ووحوش البر

اما فرق الدروز التي قامت بتلك الاعمال المنكرة في ذلك اليوم
الهائل فكانت كل منها مرووسة باحد مشايخهم او احد كبار طائفتهم .
وكانوا لا يدخلون قرية من قرى النصارى الا وسلبوا جميع اموالها
ومقتنيات اهلها واضرموا النار في ارجائها ونهبوا كنائسها واحرقوها
واستاقوا ماشيتها وقطعوا اشجارها حتى لا يبقى لاهلها شيء من اسباب
الحياة ووسائل المعاش

ولم تكن هذه التعديات في ذلك اليوم قاصرة على ما ذكر بل
تناولت اديرة الرهبان والراهبات ايضا فان دير المخلص وما جاوره من
اديرة الروم الكاثوليك ودير مشموشة وما جاوره ايضا في جزين وغيرها
من اديرة المارانة ان كانت للرهبان او للراهبات جميعها سلبت ونهبت
وحرقت عن آخرها ولم يسلم من اهلها الا من لم يكن موجودا بها
وكثيرون من رهبانها قضوا على ابواب صيدا مثل غيرهم

وكان منظر الجبل من صيدا في مساء ذلك اليوم الهائل مكربا
محزنا فان نيران القرى الملتهبة كانت تضيء كل تلك الجهات وما
حولها إلى مسافة بعيدة والدخان المتصاعد منها يعقد سرادقه المظلمة في
الفضاء فيحجب منظر القمر والنجوم البهية عما تجنه من البقاع . وكانت
مياه نهر الاولى تأتي مصبوعة بالدماء حاملة جثث الضحايا التي القيت

فيه وتأثير هذه المناظر في الناس على نوعين متباينين فالنصارى وعقلاء الاسلام كانوا ينظرون اليها بأسفٍ وغمٍّ والدروز وجهلاء الاسلام من سنيّةٍ وشيعيّةٍ ينظرون بفرحٍ وابتسامٍ يحسبونها من ادلة انتصارهم وفوزهم . هؤلاء هم الذين يريدون الاستقلال من سيطرة الاوربيين

اما الذي دمر في ذلك اليوم فلا يقل عن خمسين قرية خلا الاديرة وعدد الضحايا البشرية حوالي الف وخمسمائة قتيل منهم ٢٥ راهباً مارونيّاً و ١٥ راهباً وقسيساً كاثوليكياً وعدد قليل من قسوس الروم الارثوذكس

وفي مساء ذلك اليوم سكن حال اولئك الثوار نوعاً في صيدا واظهرت الحكومة شيئاً من الاهتمام فصادف النصارى بعض الطمانينة الا ان الخوف لم يفارقهم وكانوا دائماً ينتظرون الفتك بهم وقد استمرّ الحال على ذلك بضعة ايام وشراذم الفارين من المذابح تفد على صيدا وتدخلها بما يتسهل من الوسائط وتلتجئ الى خان الافرنج المار ذكره حتى تجمع فيه اكثر من اربعة آلاف نفس من اولئك المصابين جلهم من النساء الشكالي والارامل والاطفال الايتام الذين نكبوا في تلك المذابح الهائلة . وكان بينهم كثيرون من الرجال الجرحى وقد ضاق بهم ذلك اخان على سعتهم ولم يمكن تفريق هذا الجمع الى محلات اخرى لان الخوف فيما سواه على النصارى كان كثيراً وكان التهديد مستمرّاً والعداء شيئاً مرّاً

اما الموسيو دريكلو قنصل فرنسا في صيدا والراهبات اللواتي كنّ

معه في ذلك المكان فقد اهتموا بأولئك المساكين غاية الاهتمام وجعلوا يفرقون عليهم من الملابس ما يقدرون عليه حتى لم يبق للقنصل والراهبات من الملابس إلا الاثواب التي عليهم . وكان أولئك الراهبات يشتغلن ليلاً ونهاراً في تمريض الجرحى والاعثاء بالمرضى ومواساة الحزاني من أولئك الضيوف التعساء . وقد كان القنصل يصرف على اطعام الجمع الذين عنده كل يوم خمسة آلاف رغيف وغير ذلك من الاطعمة وساعد اهالي صيدا ومن بها من الاجانب في اعالة أولئك المساكين ولكن العدو كان عظيماً والضيقة الخارجة شديداً فلذلك لم تكن عناية القنصل من هذا القبيل مع مساعدات الآخرين كافية لاعالة أولئك المساكين المصابين مع شدة الحالة وضنكها من الخارج فمات بعضهم جوعاً واعين المعتنين تنظر وقلوبهم تمزق اشفاقاً وحزناً وليس بالامكان رفع كل تلك الاثقال عن عاتق الذين خانهم الدهر . وكان أولئك التعساء في حالة تنفطر لها الاكباد لا درهم لهم ولا متاع ينظرون إلى حالتهم التعيسة بأعين دامعة وقلوب منفطرة من الاحزان ومملوءة من الشكر والامتنان لمن اووهم واعثوا بهم وكان كل حديث هؤلاء الجماعة في من فقدوه وما خسروه فكنت لا ترى إلا امهات نائحات وزوجات نادبات واولاداً باكين واباء متحسرين آسفين وجرحى متوجعين ومرضى واطفال صارخين . حالة تفتت الاكباد ويتمزق لها كل فؤاد . وكل ذلك لم يؤثر في ثوار صيدا شيئاً وزادهم رغبة في سفك دم جيرانهم واللاجئين اليهم فكان المصابون يسمعون ذلك فتزداد بلواهم ويتعاضم حالهم

وقد كان اهالي صيدا النصارى في خوف مستمر لان الهياج كان كل يوم بازدياد والحالة باشتداد والايقاع بهم كل يوم باقتراب فباتوا لا ينتظرون الا دنو ساعتهم غير مؤملين بشيء من السلامة والنجاة الا باعجوبة خارقة العادة فان عقلاء الاهالي من المسلمين باتوا عاجزين عن كبح جماح الثائرين ومتسلم البلد مال إلى الثوار والمفتي وبعض الاعيان اتخذوا مبدء التهيج وحض الناس على الشر والعداء فلذلك كان دأب نصارى صيدا والمصابين الذين بها التوسل لله والطلب منه اثناء الليل واطراف النهار ان يدبر لهم مخرجاً من الاخطار التي صاروا اليها . وبينما مفتي صيدا ومتسلمها على وشك اعطاء الاذن للثوار بالهجوم على خان الافرنج وذبح من به من الغرباء واهل المدينة الاجئين اليه والايقاع بمسيحييها الذين خارجة ونهب بيوتهم وحرقها حدث بغتة ما عرقل تلك المساعي وخلص مدينة صيدا من المذبحة المعدة لها واليك تحرير الخبر :

في آخر مدة اشتداد الخطر على صيدا وفدت على بيروت اساطيل اجنبية لتسكن الحالة المضطربة في سورية وكان من ذلك اسطول فرنساوي كبير فبوصول الاسطول إلى بيروت بلغ اميراله ما صارت اليه صيدا من الضنك الشديد والخطر العظيم فحالاً بعث بارجة من بوارجه إلى صيدا ليستكشف حالها ويسعى في خلاصها فذهبت تلك البارجة على جناح السرعة فباغت صيدا والخطر محقق بمسيحييها والثوار على وشك الهجوم عليهم دفعة واحدة لاعدائهم ونهب اموالهم واحراق ديارهم فخرج ربان البارجة إلى البر حال وصوله وذهب إلى المتسلم

بين هياج الثائرين وجلبتهم وسأله عن الاحوال الواقعة وطلب منه ان يحفظ ويهدي هياج الشعب ويردع الناس عن مقاصدهم ويوطد الامن والطأينة فاجابه المتسلم اني لست قادراً على حفظ المدينة ساعة واحدة . فتركه الكومندان اذ ذاك ونزل إلى سفينته في الحال واقلع من صيدا ولم يمض ساعتان من الزمن حتى ظهرت امام صيدا بواخر الاسطول الفرنسي مع بعض بواخر حرية انكليزية فرست هذه البواخر امام صيدا كجبال رواس او كاطواد شوانخ وقد اطلقت حين وصولها بعض مدافع فانتبه لها الثوار فانها عت قلوبهم وذلت وارتدوا عما كانوا يقصدونه من النهب والقتل

ولم يطل الاسر حتى طاع اميرال البوارج الفرنسي ببيعة بعض عساكره إلى البر فسكن الهيجان تماماً وانقضت عروة الثورة وتفرق رجالها ولم يبق لها من أثر واطأنت قلوب النصارى وزال ما كان قد ألم بهم من الخوف وأمن الناس من الشر وخرجت نساء المصابين من نجسهن في ذلك الخان الذي أقمن به اياماً كثيرة تحت اثقال الشدة والخوف المستمر وصرن يقبلن الارض بين يدي ذلك الاميرال الذي اغبروه مخلصهن ومخلص من معهن واخذن يسكين دموع السرور والحزن معاً ويدعين له بطول العمر فالاول لنجاتهن ونجاة من بقي هن من رجالهن بعد ان مرت عليهم كل تلك الاهوال والثاني لفقدن من فقدن بتلك المذابح الهائلة ولما قاسين من الشدائد والاهوال والجوع والمرض . وقد كانت ساعة مؤثرة ومنظراً محزوناً انسكبت له دموع الاميرال ورجاله شفقة واسفاً فجعل ينهضهن ويعزيهن ويطيب خواطرهن

ويعدهن بأخذ حقوقهن والاقتصاص من ظالمين . ثم دخل الخان
فوقع نظره على ذلك الجمع المصاب فازداد غمًا وتأثرًا فطيب خاطر
الموجودين بكلام عذب حسبه بلسماً لجراحهم البالغة وقد اقام في
صيدا ريثما استتب الأمن تماماً ولم يبق ما يخشى منه واحضر مقداراً
كافياً ليفرقه على اولئك المساكين كل يوم فصارت توزع عليهم
حنيئاتهم فشكروا واشتوا وانطلقت حريتهم فصاروا يخرجون من الخان
متى شاءوا ولا يخشون شراً وبعد ذلك عاد امير البحر إلى بيروت وتبعه
اليها عدد عديد من مهاجري حاصبياً ومرج عيون وغيرها

وبعد حوادث اقليم التفاح وقضاء جزمين المار ذكرها تحركت
الخواطر في بلاد بشارة ايضاً وفي بلاد عكا وصفد وطبريا ولكن بكوات
بيت علي الصغير منعوا حدوث ذلك في بلادهم (بلاد بشارة) وحالوا
دون كل شر يقع على نصارى مقاطعتهم . واما في بلاد عكا وصفد
وطبريا والناصرية فحال دون اجراء هذا الشر العظيم ذلك الشهم
البدوي عقيله اغا الحاسي المغربي الاصل شيخ عرب الهنادي في تلك
الاطراف وكان ذلك منه اجابة لمطالب شهامته وتميماً لارشاد الامير
عبد القادر الجزائري نزيل الشام الذي سيأتي ذكر ما كان

له من الايادي البيضاء في حادثة دمشق وما

ابداه من الشهامة والمروءة

والانسانية

فصل

في واقعة زحلة سنة ١٨٦٠

كان الدروز وجميع اهالي البقاع والعشائر القديمة في تلك الايام
يهابون مدينة زحلة ويخشون بأسها لشدة رجالها وشجاعتهم ولما ابلتهم
به ايام حروبهم السالفة وكان اسمها عنواناً للشدة والبأس بين جميع
القبائل والعشائر وصيتها منتشرًا في جميع انحاء سورية . وقد زادت
مهابتها في اعيان جيرانها والدروز عمومًا لما اتسعت تجارتها واعمالها
وصارت نقطة تجارية عظيمة لجميع تلك البلاد وقد كان الدروز لحسدهم
لها وطمعهم في اذلالها يترقبون الفرص للتكيل بها واذلالها حتى يصفو
لهم جوّ النفوذ . ولما حدثت الحوادث المار ذكرها ونالوا من المساعدات
ما جعلهم يفوزون فوزاً مبيناً لاح لهم ان خراب زحلة يمكنهم من نوال
السطوة العظيمة ويجعل نصارى لبنان جميعاً في قبضة ايديهم واهل بلاد
البقاعين وبعالك ووادي التيم وحواران عبيداً لهم فلذلك وجهوا انظارهم
لحاربة زحلة وتدميرها كما دمروا دير القمر وغيرها ولكنهم كانوا يخشون
بأسها ويحسبون لها حساباً فراءوا ان يتخذوا كل الطرق التي تجعلهم في
ما من من الفشل فاكثروا من عقد الاجتماعات فيما بينهم وترتيب امورهم
لكي يحملوا عليها بقوة عظيمة فضموا اليهم قبائل كثيرة من العربان

وجموعاً غفيرة من اسلام بلاد بعلبك المتأولة والبقاعين واستدعوا دروز حوران لمساعدتهم فأتاهم الشيخ اسماعيل الاطرش اشهر مشايخ دروز حوران واشجعهم ومعه حوالي ثلاثة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل وهم فرق كل فرقة يقودها شيخ صغير من مشايخ دروز حوران . ولما تكامل الجمع وبلغ عدد المقاتلين ١٥ الف رجل مؤلّنين من دروز لبنان وحوران والمتأولة والمسلمين والعربان حملوا على زحلة التي لم يمكنها ان تقا تل هذه الجموع الغفيرة . فتلقّتهم زحلة بثبات عظيم وفازت بابعادهم عنها مرات متوالية موقعةً الخسائر العظيمة في صفوفهم على قلة رجالها كما تقدم حتى صاروا يهابونها ويخشون ان يرجعوا مدحورين عنها . وبينما نيران الحرب تستعر بين المتحاربين والفوز مرجح لاهالي زحلة وفد جيش كبير من العسكر المنظم تحت قيادة نوري بك بأمر خورشيد باشا المار ذكره وموافقة قناصل الدول في بيروت وذلك لردع البغاة واجلائهم عن زحلة وتأمين الامور والمحافظة على النصارى . وعند وفود هذه القوة فعوضاً من ان تبادر لانفاذ ما بعثت لاجله انضم قائدها لجيش الدروز واخذ يحاول خداع اهل زحلة لياخذ سلاحهم ومن ثمّ يذبحهم كالغنم كما جرى في حاصبياً وراشياً ودير القمر ففطن النصارى لمكيدته هذه التي تكرّر حدوثها وعرفت نتائجها فأبوا اجابة مطالبه وذكروه بأموالهم وما يجب عليه بحسبها من العمل على تفريق جيوش المعتدين العظيمة وايجاد الامن للنصارى في زحلة والبقاع وتلك الاطراف جميعها . واما هو فاصر على مطالبه الخداعية واجتهد بكل دهاء ان يصيد بها الزحليين ليجعلهم غنيمة

باردة بيد اعدائهم واذ لم يفز بما قصد جنح اخيراً إلى التهديد واعلان
 الزحليين بأنه يعتبرهم عصاة طغاة اذا ابوا اجابة مطالبه واعرضوا عن
 آرائه فأنكروا عليه ذلك وقالوا انّا عبيد الدولة وطوع عدالتها ولكن
 كيف يتأتى لنا تسليم اسلحتنا وهذه الجموع الغفيرة المدججة بالاسلحة
 محيطة بنا من كل ناحية وصوب نقصد لنا الشر ولا تهاب الحكومة كما
 جرى لها في جهات كثيرة قريبة العهد فكان النصارى بعد تسليم
 اسلحتهم عرضة لشرّها وقد اوقعت بهم بالفعل وتركت بلادهم مطعماً
 للنار ورجالهم لطيور السماء واموالهم مغنماً للعصاة ونسائهم هائمين في بلاد
 الله فنخذ اسلحة هذه الجموع واجلبها لاطوانها لارتاح من الخوف منها ومن
 ثمّ ترانا اطوع لك من خيالك في كل ما تأمر به . فأبى سماع احتجاج
 الزحليين وقال اذا انتم غير مطيعين لما امرتكم به فوجه قواه ضدهم
 وساق جيوشه عليهم فتلقوها بالصد وغازوا عليها وردوها عنهم فتأكد
 وقتل نوري بك القائد المذكور ان الاستمرار على منازلة اهالي زحلة
 لا يجدي نفعا ويضيع كل آمال من نكاية زحلة وخرابها لانه كان
 يعلم بان الخبر لا يلبث ان يصل لبيروت فترد له الاوامر بالانكفاء
 عنها . ومن جهة ثانية نتعزز قوة زحلة ايضاً بالنجدة التي كان ينتظر
 وصولها اليها من كسروان تحت امرة يوسف بك كرم البطل المشهور
 فتقوى بها على تلك الجموع كلها وتفرقها ايدي سبا فعمل على اخذ زحلة
 بالحيلة قبل ان يحول دون رغائبه مانع

ولما صمم نوري بك على ما نواه اجتمع على رؤساء الدروز وغيرهم
 واعرب لهم عما رآه من الميل إلى اخذ زحلة بحيلة جديدة وما ارتآه

في ذلك من الطرق فاستحسنوه ورتبوه ترتيباً جيداً وصار الدروز
ومن معهم يتظاهرون كأنهم جيش يوسف بك كرم فيغشون بذلك
الزحليين وينالون منهم ما ربههم

وفي اليوم الثاني الذي هو يوم الاربعاء في ٤ لوليو (تموز) سنة
١٨٦٠ كان ترتيب المكيدة قد تمّ تماماً فأصبح الزحليون للدفاع عن
مدينتهم كالعادة في الايام السالفة منذ احاطت بهم جموع الاعداء
ورأوا من جهات لبنان جيشاً كثيفاً يحمل رايات النصراني وبيارقهم
المخصصة بهم اثناء الحرب وهو مقسم فرقاً كل فرقة يتقدمها رجل حاملاً
صليباً والجميع ينشدون نشائد الحرب ويطنبون يوسف بك كرم
ويظهرون بأن فرقتهم هذه تحت قيادته ويعرضون بذكر الانتقام من
الدروز فظنّ الزحليون بان تلك كتائب يوسف بك كرم التي كانوا
ينتظرون قدومها لمساعدتهم في تلك الاوقات الحرجة ففرحوا غاية الفرح
ولم يبقَ عندهم ريب في تلك القوة وخصوصاً عند ما رأوا ييارق
الصليب تتقدمها فخرجوا للقائها واستقبلوها استقبال الصديق لصديقه
إلى مسافة بعيدة عن زحلة غير حاسبين حساباً لشيء ولا عاينين بان
تلك المظاهر مظاهر غش وخداع تظاهر بها اعداؤهم ليهون عليهم
الفتك بهم . ولما اقترب الزحليون من اولئك القادمين وعرفوا سرّ
الامر اضحوا وهم على غير استعداد محاذين من كل جهة بجموع تفوق
عددهم نحواً من خمس مرات وتعمل بهم بسيوفها واسلحتها النارية
عملاً هائلاً ولكنهم ابالوا بلاء حسناً وهم في وسط حلقة من الاعداء
وحاربوا حرب الابطال الاشداء وتمكن العدد العديد منهم من

خرق تلك الصفوف والفوز بالنجاة وكانت تلك الساعة هائلة سقط فيها في تلك السهول عدد غفير من الرجال الاشداء من الجانبين اما زحلة فقد بقي فيها في ذلك اليوم نحو اربعمئة مقاتل لاجل المحافظة على البلدة والذراري والاموال ولما رأت هذه الفرقة ما حلّ بالرجال الزحليين وكيف اخذوا غيلةً تاكدت بأنه لا قبل لها بحفظ المدينة من هجمات تلك الجموع الغفيرة وبعد المشورة رأوا بأن احسن سبيل للنجاة الهرب من في المدينة وبما يمكن حملة من المتاع والاتجاء الى الجبال والبراري وهكذا تمّ وهرب من زحلة في ذلك الوقت القصير من امكنة الحرب وبقيت المدينة خالية من رجال الحرب ولم يبق الا العاجزون وعددٌ عديد من النساء فتقدم نحوها الدروز ومن معهم يصحبهم عسكر منير بك فنهبوا المدينة وقتلوا من رأوه بها من المتخلفين وهم قلائل رأوا الموت في سبيل الذود عن وطنهم افضل مغنم وبعد ان تمّ النهب اوقدوا النار في انحاء المدينة ولم يمض زمن قصير حتى باتت زحلة مدينة الاشداء وبلدة التجارة والنمى شعلة نار وقد جاء العسكر في ذلك الوقت باعمال همجية نقشعرونها الابدان لانهم اعندوا وارتكبوا كثيراً من المنكرات لاسيما في دير الراهبات وكان عددهن ٢١ راهبة اتوا المنكر معهن وقتلوا بعضهن . اما نجدة يوسف بك كرم فحضرت بعد ان انتهى الامر واضحت زحلة خراباً تلعب النار في ارجائها فرجعت النجدة آسفة على دمار تلك المدينة الزاهرة

وقد امتدت الثورة في ذلك اليوم الى قرى النصارى في البقاع

وبعلبك ونهب وحرقت كثير منها وقتل عدد غفير من رجالها . وفرّ
الباقيون من الاحياء الى جهات مختلفة واختبأ بعضهم في الغابات وبين
الصخور والمغائر . وقد كانت خسائر زحلة على ما اكده العارفون
٤٠٠ قتيل وخسائر بلاد البقاع وبعليك ٥٠٠ والجملة ٩٠٠

من الرجال الابرياء ذهبوا ضحية الدسائس
التركية مثل غيرهم من ابرياء الجيئات
الاخرى



في ما اصاب بيروت ونواحيها من احوال سنة ١٨٦٠

من اغرب ما يقال في هذه الرواية المكرية والاخبار الهائلة ان الله ابقى في صدر الدروز بقية من المروءة والفضيلة نخب ان نذكرها لهم هي انهم كانوا يحافظون على حياة النساء وصيانة اعراضهن محافظة غريبة ويلاطفوهن بالكلام الطيب بعد قتل احب الناس اليهن على رأي منهن. واحترام النساء والاعراض عادة في الدروز واما بقية الذين عاونوهم على الفتك بالنصارى فاتوا كل منكر وكل رذيلة ولم يظهروا ما اظهره الدروز من هذا القبيل. ولما كان هذا مبدء الدروز فقد عني مشايخهم من آل ابي نكد وحماده بايصال نساء دير القمر بعد مذبحتها المريعة الى مدينة بيروت وساقوا منهن حوالي الف امرأة اكثرهن على وشك الموت من الجوع والحزن المفرط والقنوط الزائد والخوف الشديد والهم الذي لا يطاق وحدث انه وصل ميناء بيروت في تلك الايام سفينتان انكليزيتان فلما علم بهما الدروز ارسل احد مشايخهم الى امير البحر في احدهما يطلب اليه ان يرسل بعض رجاله لاستلام النساء فذهل الامير لهذه القحة الزائدة وعلم من هذا الطلب ان الدروز كانوا يظنون انهم لم ياتوا امراً منكراً في قتل النصارى

وانهم عملوا الواجب عليهم ونفذوا امر حكومتهم ولكنهم لم يتمتعوا عن الاعناء باولئك المساكين فجاء اليهن ولما رأينه ترامين على اقدامه وهن يولدن ويندبن من فقدان ويصحن قائلات « ان الترك فعلوا بنا كل هذه الفعال . الترك قتلوا رجالنا . الترك نهبوا اموالنا » . . . ولم يذكروا الدروز بشر فشهدن بذلك على توحش الاتراك وظلمهم . ثم جالت السفينتان بين بيروت وصيدا فوجد رجالهما اناسا كثيرين من الفارين اكثرهم نساء وجاءوا بالجميع الى بيروت حيث بدأ اصحاب الاحسان من اهل اوروبا والوطنيين يرسلون اليهم الطعام والكساء الى ان انفرجت الازمة وعاد كل الى مقره او مقر اجداده .

وكانت دسائس الاتراك وفعال الدروز قد هيئت مخاوف المسلمين واحقادهم في بيروت مثل سواها من المدن فحدث انه قتل في تلك الاثناء شاب من المسلمين في مدينة بيروت قيل ان الذي قتله تركي مسلم فعل ذلك بامر الوالي خورشيد باشا فهاج المسلمون وماجوا وشاع الخبر بينهم في الحال ان النصارى قتلوا هذا الشاب وعزموا على الانقام العاجل فاقفلت الدكاكين وتوقفت حركة الاعمال وعم الخوف والقلق ولجأ معظم المسيحيين الى بيوت القناصل والاجانب وبعضهم استعان بأشراف المسلمين واصحاب الذمة والمروءة منهم وصار اشرار المسلمين يتوعدون النصارى بالذبح ويطالبون معرفة القاتل حالا او يفتكون بكل اهل ملته واهانوا قنصل انكلترا وقنصل فرانس وكانوا على وشك القيام للذبح والفظائع الاخرى لولا ان يتهددهم قبطان الباخرة الانكليزية باطلاق المدافع على بيوتهم وتدميرها . وكان في المينا باخرة

عثمانية قائدها رجل انكليزي اسمه اسماعيل باشا (الجنرال كتي)
 ساعد على اخمد الفتنة على قدر طاقته وتهدد الثائرين بانزال عساكره
 وعساكر الباخرة الانكليزية الى البر لمحاربتهم اذا لم يرجعوا عن غيهم
 ولكن غيظ هؤلاء الاشرار لم يخمد الا حين شاع في المدينة انهم
 وجدوا القتال وكان فتى نصرانيا في شرح الشباب عرف بيت ذويه
 ومعارفه بسلامة القلب وحسن الخصال فجرة الثائرون الى سراي
 الحكومة ولا ذنب له غير ان بعض الحاقدين عليه دلم اليه واشاع
 ذلك الخبر عنه وبدأت محاكمته في الحال فحكمت عليه المحكمة بالاعدام
 بعد نصف ساعة من القاء القبض عليه ولم يسمع ان قاتلاً حوكم واعدم
 بمثل هذه السرعة اذ ليس يمكن ان تجمع الادلة على ادانته في مثل هذا
 الوقت الضيق . ورأى الشاب ان الخلاص بعيد عنه فصاح في رجال
 المحكمة « اني بريء . اني بريء . كما يعلم الله ولكن اذا كان قتي يهدي
 الخواطر ويفيد بني قومي فهذا عني اقطعوه الآن » واعدم هذا البريء
 مثل غيره من الذين سخط عليهم الزمان ووقعهم في مغالب الاتراك
 فراح هذا الفتى الشريف ضحية عن قومه ولم نثر باسمه في الكتب
 التي نقلنا هذا الخبر عنها

على ان هذا لم ينف الخوف ولا امانات الاحقاد فقد كان الدروز
 يجيئون بيروت افواجا والدم البريء على ملابسهم واسلحتهم وكان
 المسلمون يصافحونهم ويعانقونهم ويهنئونهم بالنصر مع ان الدرزي عدو
 المسلم من يوم نشأته والمسلمون يعلمون ذلك ولكنهم التعصب الذميم والحسد
 الوخيم والعياذ بالله من فعل الشيطان الرجيم . وعاد الاضطراب إلى

أكثر من سابق حاله بعد حين فوقفت التجارة وقوفاً تاماً واقفلت
المخازن وعادت البضائع الواردة إلى بيروت قبل ان تفرغ فيها وهاجر
العدد الكثير إلى اثينا ومالطه واسكندرية وغيرها وشحن البنك
العثماني كل ما كان فيه من المال والورق وارسله إلى انكترا ورحل
أكثر الأجانب وصار تظمين الخواطر مستحيلاً لان النصارى عن بكرة
آبهم اعتقدوا اعتقاداً تاماً ان نصيب اخوانهم في دير القهر وحاصبياً
ينتظرهم يوماً بعد يوم ما داموا في مدينة بيروت وكانوا يفرّون خوفاً
من عساكر الاتراك لا من الدروز

واشتدّ في ذلك الحين الخوف على بلاد كسروان وجبال الموارنة
لان خورشيد باشا امر بعض جنوده بالتقدم عليها « حتى يحمي
النصارى » وكان الناس يعلمون معنى هذه الحماية بعد الذي رأوه من
فعال الاتراك وعساكرهم فرأى القناصل ان الخطر شديد على الموارنة
وهم لا يقلون عن نصف مليون نفس وارسل المسترمور قنصل انكترا
الجنرال مذكرات إلى بقية القناصل يدعوهم إلى الاجتماع في بيته
للمداولة فجاءوا اليه في الحال وبعد المشاورة قرأ رأيهم على ان المذاكرة
مع الغادر الكاذب خورشيد باشا لا تنيد شيئاً (وكانوا قد طالبوا من
دولهم القوات العسكرية) قبل ان تصل النجدة من اوربا ما دام هذا
الخادع قد خدعهم مراراً وظهر انه ادنى المتوحشين وعزموا على
ارسال قرار منهم جميعاً إلى مشايخ الدروز بنهونهم فيه عما كانوا ينوون
من مواصلة القتل والذبح ويحذرونهم من العواقب لانهم علموا ان
المروءة والشعور والانسانية لم تفقد من صدر الدروز كما فقدت من

الاتراك وعلى ذلك كتبوا مذكرة على ان ترسل إلى سعيد بك جنبلات وغيره من زعماء الدروز وهذه ترجمتها

« نحن وكلاء دول انكلترا والنمسا وفرنسا وبروسيا وروسيا قد علمنا ببله الاسف ان القتل والسلب والتدمير لم تزل إلى الآن تعمل على نمط يوجب اللوم الشديد . وعليه فنحن نكلفكم رسمياً بأن توقفوا كل هذه المصائب ونحذركم بصفتنا وكلاء عن الدول الاوربية وبناء على تفويض جاءنا من السفراء من عواقب هذه الامور . ونعلمكم ان المسؤولية التي ستلقى عليكم في المستقبل ثقيلة عظيمة خصوصاً اذا جدت منكم او من قومكم حركات اخرى ضد المسيحيين او ضياعهم او اهلاكهم . فلاجل الوصول إلى هذا الغرض نرى من الضروري ان نكلفكم ونشدد عليكم ان تعقدوا الصلح بأقرب ما يمكن من الوقت وان تأمروا فرق جيشكم الموجودة الآن في انحاء دمشق وصيدا وزحلة ودير القمر وكسروان وغيرها بالرجوع عنها . فأمعنوا النظر في النتائج الوخيمة التي تنتج عن عدم قيامكم بمطالبنا هذه واعلموا ان حكوماتنا لا تطيق السكوت عن حالة مثل هذه »

ولم يجسر احد الاهالي على اخذ هذه المذكرة إلى مشايخ الدروز لان البلاد كانت في حالة الاضطراب والحرب يومئذ فتقدم انكليزي اسمه جراهام لهذه المهمة وطار بالانذار إلى المخنارة قرية سعيد بك جنبلات فلما رآه الدروز لم يتعرضوا له لانهم كانوا يتحاشون التعرض للاوربيين فدخل على سعيد بك واعطاه الكتاب فلما قرأه وقف على الاقدام ورفع الورقة إلى رأسه علامة الاحترام والاكرام وتذلل امام

المستر جراهام وقال ان طاعة القناصل محنة عليه و بالاخص قنصل الدولة الانكليزية ولكنه ادعى الضعف وقال ان الدروز ليسوا تحت امره فاجتهد المستر جراهام باقناعه ليسمع النصيحة ورأى منه عين الغدر والمحاولة وتأكد بعد الجهد الجهيد ان هذا الغادر لا يريد العدول عن مقاصده السيئة فعمد إلى بشير بك ابى نكد وكان يومئذ في المخنارة (وهو الذي اقسم ان يضع جماجم النصارى في اساس بيته على مقربة من دير القمهر) فألح عليه هذا الانكليزي الهام بمساعدته في ابطال الحرب واجابه الدرزي بمثل ما اجابه سعيد بك . وبذل المستر جراهام جهده في الامر حتى أقنع سعيد بك بعد اللتيا والتي بكتابة الاوامر إلى بعض الانحاء بكف العداوة وكان من هذه الكتب واحد ارسل إلى حاصبيا خالص بوصول جماعة من النصارى في منزل الست نايفه وقد مر ذكره . ودار المستر جراهام بعد ذلك على كل مشايخ الدروز واكابرهم يريهم الانذار ويرجوهم بكل لسان ان يساعدوه على قمع الثورة وابطال الحرب فكان اكثرهم يتذلل بين يديه ويعد بالامور الطيبة او يقول انه اضعف الناس لا يقدر على شيء وعاد الرجل وهو يعلم ان الدروز لا يسمعون النصيح ولا يرضخون لغير القوة كل هذه الامور كانت تجري وعساكر الدولة الفرنسية مسافرة قاصدة سورية بأمر من دول اوربا لابطال هذه المذابح ومقاصدة الثائرين فوصلت في ١٦ اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان فوآد باشا معتمد السلطان قد سبقها ليخفي الحقائق ويسكت الذين يريدون التظلم واظهار ما يمكنه الفوآد وخلد الدروز وانسلون من بعد وصوله الى السكون ولكن بعد ان حصلت المذابح التي مر ذكرها

فصل

في مذبحه دمشق سنة ١٨٦٠

ليس من نيتنا ايراد تاريخ دمشق في هذا الفصل كما اوردنا تاريخ غيرها من المدائن الصغرى وذلك لاشتهار هذه المدينة واطلاع الناس على تاريخها واحوالها . يكفي ان يقال انها اعظم مدن الشام واكبرها وانها جنة الله في ارضه ولاهلها على اختلاف اشكالهم شهرة في طيبة القلب واللفظ وانها كانت مركز حكومة الشام من بعد دخول الجيش المصري إلى هاتيك الربوع وفي دمشق حوالي مائة وخمسين ألفاً من السكان تسع اعشارهم من المسلمين وللمسيحيين منهم حارة خاصة بهم تعرف بباب توما

وقد ذكرنا الاسباب الكثيرة التي هيئت احقاد المسلمين على النصارى في سنة ١٨٦٠ واهمها دسائس الحكام . وكان في دمشق وال اسمع احمد باشا اعطي في ذلك الحين رئاسة الامور الادارية والعسكرية معاً ولم يسمع في تاريخ الاتراك بأخبث من هذا اللعين ولا أمل منه إلى المفاسد والمكايد . هذا جعل همهم تحريك الخواطر وتمهيد اسباب المذابح حتى تم ما تم في المدائن الاخرى وكانت المذبحه حاصبياً وراشياً على يده وبأمره والذين قاموا بها من عساكر الاتراك كانوا رجاله . ثم ان الظروف ساعدت ايضاً على الهياج في تلك

الايام واهمها ان السلطان اصدر امراً يقضي بالمساواة بين رعاياه وكان ذلك الامر بمقتضى معاهدة بارير فلما احس المسلمون بان الترفع عن النصارى ضاع منهم وان الكل اصبحوا سواءً وان معشر النصارى ما لبثوا ان تحرروا حتى فاقوهم في الثروة والجاه والعلم وكل امرٍ آخر نتموا عليهم واضمروا لهم الشر . وكان في معاهدة بارير بند يقضي على الحكومة التركية بأخذ الجنود من طوائف المسيحيين كما تأخذهم من المسلمين ولكن الحكومة لم تقم بهذا الشرط لاسباب معلومة ففرضت على النصارى مالا كثيراً — خمسين ليرا عن كل شخص — بدل العسكرية وكان هذا المال فوق الذي يقدر القوم على دفعه فتشكوا مراراً وطلبوا إلى حكومتهم ان تخفف الحمل عنهم او ان تعفيهم من هذا المال وتأخذ منهم الرجال فلم تقبل والحت عليهم في سنة ١٨٦٠ الحاحاً زائداً في دفع المتأخر عنهم من هذا المال وكان في ذلك الحين مطران الروم الارثوذكس يونانياً لا يعرف لغة الاهالي واخلقهم فجاءه القوم يطالبون توسطه في رفع هذا المال وتجمهروا حول مسكنه فأراد تفريقهم بقوة الجند وكتب الى الوالي يقول له ان النصارى في حالة الهياج والثورة من جرأء ضرب الاموال العسكرية الفادحة ويرجوه تفريقهم عن مسكنه ففرح الوالي بهذه الكتابة وحفظ الورقة في جيبه لانه حسبها دليلاً على ما كان ينوي الاحتجاج به حين اللزوم من بعد المذابج التي كان يريد اتمامها حتى اذا سئل عن الامر قال هذه شهادة مطران القوم انهم كانوا عصاة يريدون الثورة والقلاقل فاخذنا ثورتهم بقوة السلاح

وكان هياج المسلمين في دمشق يشتد يوماً عن يوم بفعل دسائس
 احمد باشا حتى صار القوم يسمعون اخبار المذابج التي حصلت في
 حاصبيا وراشيا وزحلة ودير القمر ويطربون وكانوا يحسبون لابطال
 زحلة حساباً كبيراً فلما جاءتهم الانباء بسقوطها وذبح رجالها زينوا
 المدينة واقاموا الافراح والنصاري من حولهم ينظرون ولا يحسرون
 على الاعتراض الا ان بعض الوجهاء وارباب الفضل من المسلمين لم
 يرق لهم هذا الصنيع فاطفأوا الانوار وداروا على الناس يحرضونهم
 على التعقل والسكينة فلم تجد مساعيتهم المحموده نفعا لان الحكومة
 واشقياء الاهالي كانوا اقوى منهم ويخوف نذكر امماء هؤلاء الافاضل
 في آخر هذا الفصل حتى يحفظ ذكرهم وذكر فضائلهم في التاريخ اقراراً
 بمجملتهم واعترافاً باحسناتهم . وكانت هياج المسلمين كما قلنا يشتد
 يوماً عن يوم والنصاري يهانون ويشتمون ويرون كل بلية ويتظلمون
 فلا ينصفون حتى رأوا ان الامور قد اتت الى عدل الحكومة عت فلزم
 اكثرهم بيوتهم وانقطع التجار والمشتحمون منهم عن الخروج الى اشغالهم
 وجعلوا يقضون الليل والنهار في الصلاة والتفكير والهم والتدبير والشر
 يزيد يوماً عن يوم حتى صار الموت قريباً منهم

وكان القناصل يرون هذه الامور ويعثون بالتقارير الى دولهم
 حتى اذا زاد الخطب اجتمع النكل في بيت قنصل الانكليز بناء على
 طلبه وتداولوا في الذي يجب اتخاذه من الطرق لئلا يفسد المذابج فقرروا
 ان تفتح بيوتهم للمتجئين اليها اذا حصل ذبح او نهب وان يحذروا الوالي
 تحذيراً من سوء العواقب وانتدبوا احدهم وهو قنصل الدولة اليونانية

لمخبرة الوالي في هذا الامر بالنيابة عنهم لانه كان يعرف اللغة التركية
 فذهب الرجل وحاول جهده ان يستفيد ويفيد في اخماد الهياج ولم
 يفلح وكان احمد باشا في اول الامر يتجاهل ويظهر ان البلاد في راحة
 وامان ثم لما مرت الايام ولم يعد في امكانه الانكار صار يعتذر
 ويخج بقله العساكر لديه وعدم امكانه رد الاشقياء من الاهالي عما
 يظنهم ثم بدأ باظهار التعجب والاهتمام مما صارت اليه الحالة ولكنه
 لم يأمر امراً واحداً من مقتضاه منع العساكر واوباش المسلمين من
 التعرض للمسيحيين وكان كلما اشتد به الهياج في جداله مع جناب
 القنصل المتفوض بخبرته في ذلك الموضع قد عصوا امر الدولة
 وهم يحاولون خلق طاعتهم والادلة على ذلك من كتابة اساقفتهم
 ورؤساء دينهم ثم ذهبوا بسبل بوقتهم إلى دار الوالي والخوا عليه
 الحاحاً شديداً في ان يمسك في حسيب الحال فلم يرد بداً من اجابة
 طلبهم ووعدهم بعمل ذلك فامروا الى عامة الناس والعساكر
 بالتزام السكون وعدم التعرض للنصارى في امورهم وعاد هذا الامر
 ببعض المطلوب فاحس النصارى بالتراجع الضيق نوعاً وارسل الوالي
 وراء غمال الحكومة منهم على الطابينة ويامرهم بالحضور لاستلام
 اعمالهم فقاموا بالامر ورأوا الهياج قل وانشرت بذلك الصدور
 وكاد الناس يصعدون ان يذهبوا إلى مجاريها
 ولكن احمد باشا لم يكن ينوي ابقاء السكينة زماناً فعاد إلى
 الساس وعاد العساكر والاهالي إلى هياج اشد هولاً من الاول وعاد
 النصارى إلى الاختفاء والمواراة عن عيون الاعداء واحس الجميع

بقرب الخطر فحاول قنصل انكلترا وقنصل اليونان على حمل بعض
الوجهاء من المسلمين على مساعدتهم في تسكين ذلك الهياج وساعدهم
نخبة من اخيار دمشق ممن سذكروا اسمائهم ولكن الامر لم يقد شيئاً
فان الاضطراب ظلّ يزيد وزاد شوق الاشقياء إلى سفك الدماء
زيادة كبرى وسمع بذلك العرب والمسلمون المجاورون لدمشق فجاؤوها
من كل صوب يريدون شفاء ما في انفسهم من الحقد بقتل النصارى
ونهب اموالهم . وحدث لسوء الحظ ان الذين سلموا من حاصبياً وصلوا
في ذلك الحين إلى دمشق وكانهم جاؤوا بعدوى الذبح والقتل فلم يعد
الاشقياء صبر وصار الدروز من خارج المدينة والمسلمون من داخلها
يلحون على الحكومة باصدار الامر لهم بالنقدم للذبح والفتك وهناك
الاعراض وسلب الاموال وحرق البيوت . ورأى احمد باشا ان
الوقت دنا لاتمام غايته فزاد الطين بلة في انه اشاع بين الناس ان
النصارى ينوون الهجوم على حارات المسلمين ليلاً والفتك بهم مع ان
النصارى في دمشق من اضعف خلق الله ليس بينهم واحد يعرف طريقة
استعمال السلاح ولم يخطر في بالهم غير وقاية انفسهم من الخطر
بالاسترحام والاختفاء وصار هذا الوالي اللئيم كما حضر للصلاة يصف
الجنود حول الجامع بدعوى ان النصارى ينوون الهجوم عليه حتى وصل
كره المسلمين من هذه الاشاعات والمفاسد إلى درجة لم يعد من الممكن
البقاء على السلم معها . ثم نقل الوالي عائلته إلى القلعة وحصنها بالمداغ
ففيهم الناس من ذلك ان الوقت قرب وجعلوا يستعدون للعمل على
ملاشاة النصارى عن بكرة ايهم من دمشق وهاجت الجموع وماجت

وعمّ الخطب وزاد الكرب وبلغ الاستعداد للفتك حدهً وانقطع كل أمل عند النصارى في النجاة

وارسل الوالي بعد كل هذه الامور فرقةً من العساكر إلى باب توما — حارة النصارى — لوقايتهم وكان النصارى قد سمعوا بأخبار الوقاية التي اتاها هؤلاء الاتراك في مذابج الشام الاخرى فأيقنوا بقرب الذبح وقالوا ان هذه العساكر ما جاءت الا للفتك بنا وزاد خوفهم وقلقهم زيادة فاحشة لما علموا من بعض الذين جاؤا إلى بيوتهم من بقية اهل حاصبيا ان هذا الالاي بنفسه هو الذي كان في حاصبيا وساعد على ذبح النصارى فيها فكانه اعناد فعل الشر وجاء دمشق حتى يفعل فيها الذي فعله في حاصبيا وكانت علامات الشر تلوح على وجوه العساكر فسلم النصارى الامر لله وانقطع رجائهم من الحياة وصار بعضهم يحاول الفرار والاتجاء إلى بيوت الاخيار من المسلمين وبعضهم يهاجر المدينة سرا اذا لم يمنعه العساكر من ذلك والبعض الآخر وهم الفريق الاكبر يحاولون استرضاء العساكر وضباطهم ويعطونهم الاموال والمدايا الكثيرة حتى صار افقر اولئك الاتراك العتاة من زمرة العساكر اغنى من اكثر النصارى وجاهةً وانتقل مال اولئك المساكين كله إلى هؤلاء الوحوش الذين أرسلوا للمحافظة على ارواحهم ففتكوا بهم وخانوا عهد الله وعهد الاسلام وعهد المروءة

ولما علم احمد باشا ان الانتظار بعد كل الذي حصل يضر ولا يفيد وأنه لم يبق على اتمام الامر الا اعطاء الاشارة جعل يفكر في عمل يهيج المسلمين إلى حد يدفعهم من عند انفسهم إلى الهجوم وابتداء

المذبة من دون رأي الحكومة ووجد الواسطة في الحال ذلك ان
الأتراك والمسلمين أكثروا من اهانة الدين المسيحي الشريف في ذلك
الحين فشكا بعضهم الامر إلى الوالي مراراً وتكراراً ولما اراد في آخر
الامر فتح القتال امر بضبط ثلاثة لولاء من المسلمين لانهم اهانوا
الصليب علناً وكتفهم وبعثهم تحت الحفظ إلى حارة النصارى ليكنسوا
شوارعها جزاء ما فعلوه . ورأى المسلمون عمل هذا الحال والعساكر
يقولون انهم ذاهبون ليكنسوا هذا النصارى لانهم اهانوا الصليب
فأوقفوهم عند مدخل الجامع الأموي وحكموا عليهم والعساكر لا يعارضونهم
ثم دخلوا الجامع وشاوروا ملياً في الامر حتى اذا خرجوا بدأ بعضهم
يناديه بأعلى صوته « يا لدين محمد . يا لغيره الدين . يا لله من
النصارى الكافرين » وامتد هذا النداء من فم إلى فم والتهبت الصدور
وتماطحت الامور وحل القضاء المقدم فجمع رعايا المسلمين عندئذ من
كل صوب على حارة النصارى وهم كالذئاب الخاطفة يريدون اطفاء
ما في قلوبهم بدمج النصارى وسفك دماهم وهكذا ابتدأت المذبة
الهائلة

وكان بعض الثائرين يقول للبعض الآخر وهم يهاجمون حارة
النصارى لا تخشوا مداخلة الحكومة ولا تحسبوا ان العساكر يعارضوننا
في هذا الجهاد فاقتلوا النصارى عن آخرهم في هذا النهار واجعلوا
مساكنهم مطعماً للنار واذيقوا نسائهم مرارة الباع وتخلصوا من بعد
طول الصبر من هؤلاء النصارى الكفار . وأطلق مدفع على كنيسة
للروم الارثوذكس بأمر الوالي ولم يكن فيه غير البارود فأصاب حصراً

واضرم النار فيها وحينئذ فطن الناس الى النار فأضرموها في حارة
النصارى من كل جانب ودخلوا يهبون ويقتلون وكان عساكر الاتراك
يفتحون الابواب للقادمين ويمنعون النصارى من الفرار ولم ينتصف ذلك
النهار حتى صارت حارة النصارى كلها نارا متقدة وكان منظرها في
الليل التالي ممّا يشيب الاطفال لانها اذ كان بعض المساكن يحاولون
الفرار من بين انياب النار فتسقط بهم الجدران ويموتون في عذاب
لا يطاق حتى اذا جاء الصباح ولحسّ الاندال ان السلب والنهب
قد تمّ اعملوا السلاح في الذين نجوا من النار فذبحوا كل من وجدوه
من النصارى ولم يبقوا على طفل ولا عاجز وفتكوا بالامهات وهتكوا
البنات واتوا كل اشكال المنكر والموبقات وسال دم القتلى في شوارع
دمشق غيثا مدرارا وعمّ البلاء الهائل حتى لم يعد يرى في حارة
النصارى غير راس ينهال عليه الرصاص من بنادق العساكر انهيار
السيل وصدر تدقّ سنابك الخيل واجسام اكلتها النار وصيرتها رمادا
او فحما اشد سوادا من حالك الليل وويل في ويل في ويل . وصعد
صراخ الاطفال والنساء الى السماء وجرت دماء القتلى في الشوارع
تستغيث من هول هذا البلاء حتى خيل للناظرين ان لم يبق نفس
نصرانية حيّة الاّ اللائي خاضعن بعض الاوباش لغايات دينية وكنّ
يطلبن الموت ويرضين به عن طيب نفس بعد الاهوال التي راينها
وذهبت الالوف فريسة حقد الاتراك ودسائسهم فيا أيها القارئ
الكريم مثل لديك باقى هذا الهول الفظيع ودع القلب يتقطع وخلّ
العين تدمع والنفس تتوجع والفؤاد يتفجع فقد قتل في ذلك اليوم

ستة آلاف نفس بريئة بعد ان تحملت مرارة العذاب الذي لا يطاق
 زماناً طويلاً ونال الاشقياء مرأهم وكانما الارض خلت من الكرام
 فيا لله يا لله من شرور الظالمين

هنا ينتهي القلم من وصف امور القتل والذبح والتعذيب والهتك
 التي اتاها الاتراك ومن ساعدهم رفقا بقرءاء هذا الكتاب ولكن الله
 سوف يجزي هؤلاء الوحوش شر الجزاء ويذيقهم المر والعذاب في
 يوم الحساب

على ان الارض لم تقفر من الكرام في ذلك الزمان المر ولا يخلو
 زمان مهما كثر توحش اهله من بقية نبق من اهل الفضل والمروءة
 فقد وجد في وسط اولئك الوحوش الظالمين رجل عظيم المقام رفيع
 القدر عالي الهمة كثير التمسك بفضائل الاسلام شريف في الحسب
 والنسب امير ساد بالسيف وساد بالادب بطل مغوار وليث كرار
 شهد الحروب والادوال وفعل فيها فعال الابطال وكان اخصامه في
 ايام عزه اناس من المسيحيين فخاربهم كما يحارب الرجل الرجال ولما
 خانه الدهر وضاعت مملكته من يده اثر الاتزواء في دمشق ليقضي
 بقية عمره الشريف في ما يرضي الله وكان يكره قتل الضعفاء بالديسة
 والغدر وينهي عما يحرمه دين المسلمين فظهر من بين تلك الجموع
 المنحطة مثل لؤلؤة في وسط حجارة صماء سوداء وعلت نفسه علواً كبيراً
 عن دسائس الاتراك ومكايد المفسدين وفعال المتوحشين . هو السيد
 السند والفرد الامجد والبطل الاوحد الامير الخطير والمليك الشهير
 عبد القادر الحسيني الجزائري صاحب بلاد الجزائر طيب الله ذكره

ورحمه ألف رحمة ورحمة وأكثر الله من أمثاله بين الآدميين . هذا
هو الرجل العظيم الذي اشتهر بالبروءة والنخوة بين جماعة من المفسدين
والجبناء والساقطين واللؤماء والغادرين

وكان هذا الأمير العظيم قد رأى امارات الشرّ ونيّات السوء
باديةً على الوجوه ولحظ من تقاعد الحكام عن ردع الاشقياء ان لهم
ضلعاً في هذه الامور او انهم هم الذين كانوا يثيرون الخواطر بقصد
ان يقدم الناس عليها فاجتمع يوماً بوجوه المسلمين في حضرة احمد باشا
الوالي وبعد المداولة الطويلة اقنعهم ان مثل هذا الغدر بفئة ضعيفة
لا تبلغ عشر عدد الساكنين في دمشق (هذا غير الجنود وغير ان
النصارى كانوا لا يعرفون امور القتال) يعدّ جبناً ونذالةً وعاراً على
المسيء وان الايقاع بآل الذمة ما داموا في طاعة الحكومة الاسلامية
منافٍ للشرع الشريف ولا يجوز في دين من الاديان . فلم ير الوالي
بدّاً من التسليم برأيه واتفق معه على ان يعمل على تهدئة الخواطر
والذود عن المسلمين حتى ان الأمير عبد القادر برّد الله ثراه لما علم
بذهاب الالاي الذي ذكرناه الى حارة النصارى قبيل المجزرة اطمان
باله وظنّ انه قام بالواجب عليه ونجح في فعله الشريف . ولكن
الحاكم التركي ومن معه لم يفكروا في شرف ولا في شرع غير الرغبة في
القتل وحب السلب والنهب فخانوا العهود واتوا ما اتوا ممّا مرّ ذكره
ولما شعر بذلك الأمير بعث رجاله في الليل في كل ناحية من انحاء
دمشق فجعلوا يدورون في جوانبها ويفتشون على النصارى فيقودونهم
إلى سراي الأمير اينما وجدوهم ويردون عنهم جموع الهاجّين . ومضى

الليل كله والنهار التالي والامير عبد القادر يجمع هؤلاء المساكين في
 بيته وهو يطعمهم ويسقيهم من ماله ويواسيهم ويلطف احزانهم
 ويعدهم بتخفيف الكرب ويهدي روعيتهم وما سمع الناس بأشرف من
 هذا السيد العظيم . وكان هو يخرج بنفسه في احيان كثيرة فيمر في
 الشوارع التي يكثر القتل فيها ويرد القاتل عن فريسته بيده الشريفة
 ويقصد الخوانيت والكنائس ومنازل القناصل حيث اجتمع الفارون
 بالمئات والالوف فيخلصهم ويقودهم إلى دارهم ثم يعود إلى تخلص غيرهم
 وهو كما لقي واحداً من رجاله الكرام يفعل هذا الفعل شجعة ورجاه
 الاجتهاد في ذلك العمل المبرور حتى اجتمع لديه حوالي اثني عشر الف
 نفس فضايق بيته ذرعاً عن مواويتهم ورجا الوالي الوحشي احمد باشا
 ان يأمر بقبولهم في القلعة بعد ان تعهد له هذا التركي باعظم الايمان
 انه لا يمد إلى هؤلاء المساكين يد سوء فوضع هؤلاء المنكودو الحظ
 في القلعة حيث ظلوا اياماً واسابيع بلا كساء ولا غطاء ولا غذاء وذاقوا
 كل لون من ألوان الشقاء بعد ذلك المصاب وذلك البلاء والله يعلم
 مقدار حسرة هؤلاء المساكين على الذين فقدوا لهم وكانوا أعز الناس
 لديهم وعلى الذي ضاع منهم وعلى ما صاروا اليه من الهوان سيما وان
 اكثرهم كانوا يخافون ان تكون القلعة شركاً لهم مثل سراي حاصبياً
 ودير القمير وراشياً وان تفتح الحكومة يوماً ابوابها فتأمر الدروز والأتراك
 بقتلهم عن آخرهم كما فعلت باخوانهم من قبلهم وقوي فيهم هذا الظن
 يوماً اذ جاء ضابط تركي من قبل الوالي وامر ان يفصل النساء من
 عن الرجال لغاية لم يعلمها القوم فأيقنوا بالهلاك وضاعت آمالهم في

السلامة واستعدوا لموت وهم يطلبون الرحمة للذين سبقوهم إلى دار
البقاء والذين أمكن لهم السلامة في دار الشقاء وكان هذا لم يحصل
لحسن الحظ وكان أكثره بمساعي ذلك الشريف سيد المروءة والبسالة
ورب الانسانية والشهامة الامير عبد القادر وأما مساعي القناصل فلم
تجد نفعاً لأن الحكام كانوا يعدونهم في جملة الاعداء ويريدون
الفتك بهم

ولما كثر عدد اللاجئين إلى بيت الامير عبد القادر رحمه الله
عداد حسناته — هذا غير الذين أرسلوا إلى القلعة — قصد اشقياء
المسلمين من دمشق ان يقتلوهم عن آخرهم ونقموا على هذا الامير العظيم
كيف انه اعان النصارى عليهم فتجمعوا حول داره افواجا كثيرة
وبدأوا يصيحون ويصخبون ويطلبون اليه تسلم النصارى في الحال او
يحرقون بيته ويهاكونه مع الذين حماهم وظنوا ان عبد القادر مثل بعض
انذالهم يخاف من التهديد او يؤثر فيه الوعيد . فلما سمع هذا الضرغام
نداءهم امر بجمع رجاله في الحال حول قصره وكانوا من نخبة الابطال
المجربين حضروا المواقع المائنة مع سيدهم الباسل وانتصروا على جيوش
الغرب الاقصى يوم حاربهم سلطانها في المولاي وكان جيشه ستين
الفا وهم الفان وخمسمائة سبع من سباع الحرب . هؤلاء حافظوا على
الولاء لمولاهم الطيب الذكر وجاء الذين سلموا من المعارك منهم معه
إلى دمشق فلما ناداهم في ذلك اليوم العصيب داروا به في الحال من
كل جانب حتى اذا رأى اشقياء دمشق مناظرهم وهيئة الاقدام تلوح
عليهم عولوا على الفرار من وجههم وعند ذلك تقدم الامير رحمه الله

وحده إلى وسط اولئك الاندال الثارين وخاطبهم بما معناه ان
 خستتم يا كلاب الاسلام ويا اندال الانسانية . أمثل هذا تكرموه
 النبي و تطيعون او امره الكريمة يا اكفر الكافرين . أمثل هذا اوصاكم
 رسول الله في آل الذمة الآمنين في ظلكم . او أمثل هذا نقضي عليكم
 البسالة العربية سحقا لكم من اندال خائنين تغدرون بالنصارى وتفتكون
 بهم وهم اقل منكم عدداً واضعف حالاً وتعدون هذا شهامة وهو العار
 بنفسه فارجعوا في الحال او اني لا اغمد هذا السيف حتى اروي به من
 دمائكم وأمر رجالي بالهجوم عليكم فلا يبقى منكم جبان يخبر بقصة اخوانه
 واعلموا انكم سوف تتوبون وتندمون حين يأتيكم الافرنج للدفاع عن
 هؤلاء النصارى المظلومين . حين يجعلون جوامعكم كنائس ويجعلونكم
 عبدة للمعتبرين . فارجعوا الآن وانتهوا عن غيكم او اجعل هذه الساعة
 آخر عمركم واقتص منكم على ما اتيتموه من المنكر والاثم الفظيع
 وكان لهذا المولى العظيم مهابة في القلوب ارجفت اولئك الاندال
 الخائنين فعادوا على اعقابهم خاسرين وسلم ١٢ الف نفس بواسطة
 هذا الشهم الفريد . وسوف يبقى ذكره ما ذكر الشرف وما ذكرت المروءة
 واما كرام المسلمين واصحاب العقل فيهم من اهل دمشق الذين
 دافعوا ما استطاعوا عن المسيحيين فكثيرون لم نعر بأسمائهم كلهم
 ولكننا نذكر هنا بعضهم او اشهرهم قياماً بواجب الشكر لاناس خدموا
 المروءة حين كانت في حاجة كبرى الى بنيتها وندون اسمائهم مع اسم
 سيد اصحاب النخوة والمروءة — الامير عبد القادر — حتى تشهد
 هذه السطور لهم بالفضل باذن الله في كل اين وآن قدر ما شهدت

للعشر اللوّماء وحكام الاتراك بضده . فمن هؤلاء الافاضل الشيخ
 سليم العطار والشيخ مسلم الكزبري والاثنان من وجهاء دمشق وكرامها .
 ومنهم صالح اغا المهابني . وعمر اغا العابد . والعلامة الشيخ عبد الغني
 الميداني وكان هؤلاء الثلاثة الكرام فعال تذكر في قسم الميدان
 خلصوا فيه الوفا من الذبح وحموهم في منازلهم وكان اشهرهم صالح اغا
 المذكور وهو الذي رد اندال الدروز عن دمشق ولولا همته لدخلوها
 وقتلوا كل من فيها من النصارى . ومنهم هاشم اغا متسلم القلعة كان
 رجلاً عاقلاً حازماً اجتمع بالامير عبد القادر مراراً وعاونهُ على صيانة
 النفوس البريئة وكان يجاهر بمقاومة الوالي في فعله ويقول انه يطلق
 الرصاص على كل من يقرب القلعة بسوء ما دام النصارى فيها . ومنهم
 آل حمزة العلماء الاعلام والسادة الكرام اخصهم المرحومين محمود
 افندي مفتي دمشق سابقاً واخوه اسعد افندي الذين ادخلوا إلى بيوتهم
 جمعاً غفيراً من الهاربين وظلوا اياماً يعولونهم ويدافعون عنهم فحفظ
 لهم النصارى كل ذكر جميل وهم يكرمونهم الى هذا اليوم اكراماً كبيراً
 هذه خلاصة الحكاية الهائلة قصصناها هنا فليتأمل القارى في
 هذه الفعال وليقل في نفسه ما شاء . وقد كان عدد الذين قتلوا في
 دمشق وضواحيها ستة آلاف نفس والذين قتلوا في بقية الانحاء
 يقربون من هذا العدد وكل ذلك حدث في خلال شهر يونيو من سنة
 ١٨٦٠ السوداء . واما الذين نكبوا واصبحوا بلا مأوى ولا مال ولا
 ملجأ فيزيدون عن مائة وخمسين الف نفس بشرية . وعدد الذين صاروا
 في جملة الارامل والايتام لا يقل عن عشرين ألفاً . وعدد البيوت

الَّتِي أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ وَكَانَتْ لِأَبْرِيَاءِ النَّصَارَى حَوْلِي سَبْعَةَ آلَافِ بَيْتٍ.
وَعَدَدُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي ذَلِكَ الشَّهْرِ مِنْ تَأْثِيرِ الرَّعْبِ وَالْحُزْنِ الْمَفْرُطِ وَالْقَلْقِ
الشَّدِيدِ وَالْفَقْرِ بَعْدَ الْعِزِّ لَا يَقِلُّ عَنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ أَلْفًا . وَمَقْدَارُ الَّذِي
سَلَبَ وَنَهَبَ مِنَ الْمَالِ لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثَةِ مِائَتَيْنِ جَنْيَةً أَوْ يَزِيدُ
تَأَمَّلْ رِعَاكَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ وَاطْلُبْ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَخْلَصَ
الْأَرْضَ مِنَ الظَّالِمِينَ

فصل

في ما تمّ بعد المذابح

✽ الاضطراب العام ✽

كانت النتيجة الاولى من هذه المذابح الوحشية والفظائع الهائلة ان المسلمين في جميع انحاء الشام جمعوا يفكرون في قتل جميع النصارى واستئصالهم والاسيثار بالبلاد واملاكها ولكن الظروف منعت من اتمام هذا القصد في اماكن عدة منها حلب حيث جاد المسيحيون بالاموال الوافرة رشوة للاتراك ومن كان يعاونهم على الشر. ومنها القدس الشريف حيث كثرت الاحزاب بين المسلمين ولم يمكن لهم الاتفاق على تعيين يوم الشر. ومنها عكا حيث كان الحاكم التركي يوزع السلاح والدخائر على المسلمين وعين يوم المجزرة فوفدت في ذلك اليوم على ميناء المدينة بارجة هولندية ردت هؤلاء الاندال عن قصدهم ومثل هذا يقال في بقية المدن التي لم يكثر فيها الذبح والسلب

✽ حضور النجديات ✽

ولم تزد مدة هذه الاهوال الهائلة عن شهرٍ هو شهر يونيو

(حزيران) الاسود من سنة المصائب ولولا ان تصل القوات العسكرية من اوربا بناء على طلب القناصل لكان الشر اعظم كثيراً ولكن الله لطيف بعباده ووصلت بوارج بعض الدول في آخر شهر يونيو المذكور فزارت أكثر مدن الشام وارهبت الذين كانوا يستعدون للفتك بالنصارى وكان امير البحر الانكليزي مارتن وامير البحر الافرنسي جنين من الابطال واصحاب الحزم القيا المراسي في ميناء بيروت ومنعا استمرار المجازر الوحشية بكل واسطة ممكنة ريثما وصل الجيش الافرنسي. وكانت دول اوربا قد تخبرت في امر سورية ومصائبها وافترت على ارسال جيش اوربي لاعادة الامن ومنع المذابح في بلاد الشام ولما كانت فرنسا يومئذ في اوج عزها فقد كلفتها اوربا بالنيابة عنها بهذه المهمة على شرط ان تخرج الجنود الافرنسية المظفرة من البلاد حال استتباب الامن ورجوع المياه إلى مجاريها فتعهدت الدولة الافرنسية بذلك وضربت موعداً للجلاء وارسلت سبعة آلاف مقاتل تحت قيادة الجنرال بوفور دوتبول وصل مدينة بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس (آب) سنة ١٨٦٠

✽ مؤتمر باريس ✽

واما ارسال هذه الجنود الافرنسية والتدابير الاخرى التي قامت بها اوربا في ذلك الحين فكان بمقتضى قرار من مؤتمر دولي اجتمع في باريس في اليوم الثالث من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان اعضاؤه معتمدي دولة بريطانيا العظمى وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا.

وقرّر رأي هذا المؤتمر على قرارين اولهما يتعلق بكيفية تدّاخل دول اوربا في امور الشام وكيفية ارسال الاساطيل والجيوش اليها وقد ذكرنا ذلك . والثاني تعهد من وكلاء الدول مآله ان دولهم لا تحاول اكتساب شيء من الارض التي تزورها عساكرها او بوارجها وانها لا تعمل على زيادة نفوذها ولا نوال امتياز لمتاجرها ولا اخذ حق من الحقوق ليس لغيرها من دول اوربا في تلك البلاد . وضافوا على هذا التعهد عبارة فخواها انهم يرون ان معاهدة باريس (سنة ١٨٥٦) التي نقضي بمساواة الطوائف العثمانية والعدل في الاحكام وبقية ما وعد السلطان باجرائه لم تتم وهي تلح على الباب العالي باعطاء الاوامر المشددة واتخاذ الطرق الفعالة لتنفيذ هذه التعهدات . وكان في ذيل هذه المعاهدة بند هذه ترجمته

✽ سياسة الدولة التركية ✽

« ان معتمد الباب العالي يذكر عهد الوزراء النابيين عن الدول العظمى الموافقة على هذه المعاهدة ويتعهد بابلاغها إلى بلاط ملكه وبالاشارة إلى ان الباب العالي قد استعمل قوته في انفاذ الرغبات المسطرة في هذه المعاهدة وانه سوف يظل على استعمال قوته لهذا الغرض » ولم يسمع الناس بقول هراء اكثر من هذا يقول فيد وكلاء الدول العظمى ان الباب العالي اتى ما في طاقتهم لاجراء العدالة والاصلاح وانه يثق باستمراره على هذه الخطة في حين ان الارض برمتها تعلم اليوم كما كانت تعلم في سنة ١٨٦٠ ان المذايح والاهوال ما تمت الا بأمر

الباب العالي وثبت ذلك للدول الافرنجية رسمياً من تقارير قناصلهم المتواصلة وقد باح نجيب باشا يوماً بهذا السر وكان والياً على سورية من بعد ارجاع السلطة التركية اليها في سنة ١٨٤٠ اذ قال لاحد عمال الدولة الانكليزية ان « الدولة العلية لا تقدر على حفظ سيادتها في سورية الا اذا ابادت الطوائف النصرانية » وقد مر ذكر الكتاب الذي وقع في يد احد القناصل وكان من احمد باشا والي دمشق إلى السر عسكر في بيروت يقول له فيه بصريح العبارة ان لا نتعبوا سرهم في اخراج الهياج الحالي والدفاع عن النصارى فان القيام عليهم وقتلهم بأمر الباب العالي . ولو يترك الاتراك على رأيهم لما ابقوا على نصرائي ولكنهم لم يتمكنوا من ذلك ولم يزل بعض مشايخ الدروز احياء يقولون ان الاوامر الرسمية صدرت اليهم من دولة الاتراك بالقيام على النصارى وقتلهم او تساعد الحكومة النصارى على قتل الدروز وكان الحكام يوبخونهم على كل تقصير يبدو منهم او على كل رحمة تظهر من بعض رجالهم حتى ان النساء اللائي لم يمسن الدروز بشر لم يخلصن من او باش الاتراك الظالمين ولم يزل الذين شهدوا تلك الاهوال من منذ ٣٥ عاماً ناقلين على الاتراك لا على الدروز . هذا الذي كان ينويه الوحشان الظالمان خورشيد باشا والي بيروت واحمد باشا والي دمشق ولولا صعوبة الامر لقتلوا كل نصرائي في البلاد ولكن الله لم يسمح بكل هذه الاهوال

ومن اغرب حكايات هذه الرواية الهائلة ان الحكومة التركية حاولت منع الخبر عن الذين سلموا من المذابح والاضرار بهم على قدر

طاقتها وارادت ان تخفي كل حقيقة عن العيون من بعد ان علمت ان دول اوروبا سترسل رجالها إلى بلاد الشام وتحقق النظائع التي ذكرنا بعضها. وكان من امر خورشيد باشا انه جمع الذين سموا من النصارى او الذين امكن له استدعائهم في شهر يوليو من سنة ١٨٦٠ او بعد المذابج بأيام قليلة وجمع بهم بعض مشايخ الدروز وتظاهر بحج الرعية والميل إلى السلام فاضطروهم إلى المصالحة على هذا الشرط الغريب وهو « ان يحى من الازدهان ذكر الذي فات من اوله إلى آخره وينسى الماضي بكل حوادثه. وانه قد تمّ الاتفاق وقرر بعد الاتكال على الله تعالى ان يعقد الصلح بين الطائفتين (النصارى والدروز) على الشرط الذي مرّ ذكره وعلى شرط ان كل الذي حدث في سورية ولبنان من اول الامر إلى يوم الصلح لا يوجب حقاً ولا يجوز ان تقام بسببه دعوى ولا ان تبدى مطالبة من اي نوع كانت لا في الحال ولا في المستقبل ويسري هذا الاتفاق على الطرفين » فكان القصد الوحيد من هذا الصلح كن ان ينسى النصارى الذي حلّ بهم ويعدلوا عن المطالبة بحقوقهم وان الذي حرق بيته لا يشتكي مضايقه والذي سرق ماله ووقع اليد على املاكه لا يراجع السارق في امرها ولا يطلب استرجاعها والذي مات احبائه واقاربه واصبح وحيداً بلا عضد ولا سند لا يحق له المطالبة بدم اهله. هذا هو العدل التركي فانعم به من عدل واكرم به من انصاف. ولولا ان الدول النصرانية تتداخل تداخلاً قانونياً وتضطّر الدولة التركية إلى التمييز عما فات واعطاء رعاياها بدل بعض الشيء مما فقد من قبضتهم لانتهى الامر بسكوت النصارى عن كل ما حلّ بهم والسلام.

✽ قرار الامم الاوربية ✽

ولما انتهى خبر هذه الاحوال الَّتِي تشيَّب الاطفال إلى الديار الاوروبية هاجت الامم المتمدنة وماجت ودارت سوق الاضطراب وراجت وضجت الناس من هول هذه الفظائع الَّتِي ترتعد لها الفرائص ونقشعروا منها الابدان فقامت على حكوماتها تطلب اليها التعجيل في اسعاف الذين اوقعهم سوء حظهم في مخالب الغادرين والظالمين وكانت الدولة الافرنسية في مقدمة الدول الَّتِي تطلب التعجيل في مقاصة المفسدين واعادة الامن إلى ربوع الشام البهيمة الَّتِي عمت فيها الاهوال وانتابتها البلية وسوء الحظ كانت وزارة انكلترا تخشى عاقبة ما تريده فرانسا من ارسال جيش افرنسي إلى الشام فلم تسلم بالامر الا بعد ان اضطرها الرأي العام إلى الازعان والعمل على خلاص الذين سلبوا من مسيحي الشام بكل واسطة ممكنة ولما تمّ الاتفاق على ذلك ارسلت الهيئة الآتية ثلاثة لجانين والتعويض على المصابين واعادة الامن والراحة إلى بلاد السوربين وهذه هي الهيئة المذكورة : —

✽ ١ ✽ فؤاد باشا كان الصدر الاعظم وانتدب بمهمة فوق العادة واعطي قوة مطلقة لينفعل في بلاد الشام ما اراد باسم السلطان عبد المجيد على شرط ان ينهي المصاب بالتي هي احسن . وفد على بيروت في السابع عشر من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وكان الفصد من تعجيله في السفر العمل على اخفاء الحقائق وعرقلة المساعي الحميدة بما تراه في ما يجيء

✽ ٢ ✽ قوة عسكرية افرنسية من ستة آلاف مقاتل

يرأسها الجنرال بوفور داوتبول وصلت بيروت في السادس عشر من شهر اغسطس اي بعد وصول فؤاد باشا بشهر وكان القصد منها عمل الذي لم يمكن الاركان إلى عساكر الاتراك بعمله من المحافظة على الارواح ومنع الاعتداء والاقتصاص من المجرمين

❖ ٣ ❖ مؤتمر دولي من وكلاء الدول العظمى صاحبة الشأن والنفوذ وهي بريطانيا العظمى وفرنسا وبروسيا وروسيا والنمسا عقد اجتماعه الاول في مدينة بيروت في الخامس من شهر اكتوبر سنة ١٨٦٠ وكان القصد منه النظر في الذي حدث والذي يجب حدوثه ونقرير الامور الواجب عملها في الحال والاستقبال وسوف نتبع اعمال هذا المؤتمر بالتفصيل الذي يسمح به المقام ونبين كنيّة سعيه وما نتج عنه

هذه هي طرق المعالجة التي ارتأتها دول اوروبا وكان المظنون انها تعود بالفائدة المطلوبة . وكان القاتل الغادر الخائن الوحش الضاري والنذل الجبان خورشيد باشا الذي تمت احوال لبنان وبيروت والسواحل بأمره وعلى يده يضحك مسروراً من نتيجة دسائسه واصحاب العقل والانصاف من المسلمين والنصارى يظنون ان عزله واعدامه يكونان اولى اعمال فؤاد باشا لان هذا الوزير جاء مفوضاً تنويضاً مطلقاً في كل امرٍ وامر باعدام كثيرين غير هذا الطاغية ولكن خورشيد باشا ظلّ في وظيفته وكان خورشيد باشا جباراً عنياً . وشعر الاميرال مارتن قائد الاسطول الانكليزي الذي كان راسياً في بيروت يومئذٍ بازاء الاسطول الافرنسي ان بقاء هذا الجاني الخائن في وظيفته وفي

قيد الحياة لا يخلو من قصد سيء و يعود بأوخم العواقب فجعل يفكر في
طريقة لعزله وصدف يومئذ ان هذا الوحش ارسل من قبل فؤاد باشا
إلى الالاذقية في مهمة فظن أمير البحر مارتن انه لن يعود منها الا
محمولاً على آلة حديد، كانت أولى به من كل بشري مات من يوم قامت
لبنى آدم قائمة ولكن الظن خاب وعاد الرجل فلم يعد الاميرال يطبق
على هذا الخداع المنكر صبراً وكتب في الحال إلى فؤاد باشا كتاباً
رسمياً نرى ان ننقله هنا مترجماً ترجمة حرفية لان كلامه يشفي الغليل
ويروي الغليل ويدل على شيء من الحزم والشهامة تفرح القلب في
وسط هذه المصائب السوداء التي عددناها وهذا نص انكتاب

« لقد اصاب العالم المتمدن ضرراً عظيماً من جرأء النعال الوحشية
التي وقعت على سكان سوريّة من المسيحيين وكان عمال الدولة التركية
يشاركون عمداً في هذه الفظائع بسماحهم للعساكر والمساكين من
الاهالي ان يساعدوا الدروز فيها وان يشاركوهم بعد انتصارهم على المسيحيين
في قتل الرجال وفي ارتكاب افظع المنكرات مع النساء والبنات
والاطفال . وليس يمكن للعالم المسيحي ان يطبق صبراً على هذه الفظائع
ولا يجوز له ان يسكت عنها ويتأخر عن مجازاة الذين ارتكبوها ومن
الواضح ان اوربا لا تكفي بأمر الا اذا كان يمنع تكرار مثل هذه
الفظائع منعاً تاماً

« ثم ان الدولة التركية تفقد كل ما لها من الاعتبار اذا هي لم
تفـر العدالة حقها من نفسها وبدون ان تجبر على مثل هذا العدل
والارجح ان السلطة تنزع من يدها اذا ظهر منها نقصير في هذا الامر

الواجب . فاذا كان من نيّتها اجتناب مداخلة الدول وجب عليها ان تجاهر في الحال مع غيرها من الحكومات المتمدّنة بنورها من هذه الافعال المعيبة الّتي حصلت في سورّيّة وان نقرن القول بالعمل فتتصف الذين يقاسون الاهوال انصافاً تاماً وتعاقب الموظفين الذين اشتركوا في الفظائع عقاباً ظاهراً للعيان وعلى قدر جرميتهم . واما مجازاة بعض الاصاغر فأمره يوجب الهزء والازدراء ولا ينتج عنه الامتناع عن العود إلى مثل هذه الجرائم الفظيعة في المستقبل

« وعلى ذلك فمن الواجب ان يعاقب في الحال اعظم الموظفين الذين اسقطوا منزلة وظائفهم السامية بالاشتراك في هذه الفظائع او العلم بها والسكوت عن البلايا الّتي انتابت المسيحيين من سكان سورّيّة . وبلغني ان خورشيد باشا سيظل على السيادة في ولايته فعسى ان لا يكون في النية ابتاؤه على السيادة الّتي جلب عليها هذا العار بفعله ولما كان النظر في اعمال القسوة المائلة الّتي يظن انه اشترك فيها عن نفس طيبة ممّا يوجب الاهتمام وكنت انا مسؤولاً مع غيري الآن عن المحافظة على ارواح المسيحيين في هذه البلاد اعترضت هذا اعتراضاً على بقاء خورشيد باشا رئيساً في منصب نتوقف عليه سلامة الاوف الّتي اظهر لها سعادته كل هذا الكره وهذا التراخي عن وقايتها »

الامضا

مارتن

هذا هو نص الكتاب الذي ارسله امير البحر الباسل الى الوزير التركي المحاول . ولكن عباراته القويّة لم تبقى لفؤاد باشا مجالاً في الروغ فبادر في حال وصوله إلى عزل خورشيد باشا ووضعه في السجن

وفعل مثل ذلك في كاتم اسراره واثنين آخرين من اعوانه الاتراك
وكان لهذا الصنيع تاثير حميد للغاية نتج عنه فتور الهمم الامارة
بالسوء وقعود الوحوش عن السعي وراء قتل الباقين من النصارى
وذهب فؤاد باشا من بيروت الى دمشق فوصلها في التاسع والعشرين
من شهر يوليو سنة ١٨٦٠ وقوبل فيها كما يقابل السلطان وهناك شرع
في التحقيق وتجازاة بعض الوحوش الخائنين في الحال فقتل الوالي
احمد باشا بلا امل . ويرجع العارفون ان سبب السرعة في قتله هو
ان الرجل عمل بأمر فؤاد باشا نفسه ورغبة السلطان بعينه في قتل
الابرياء فعاجله فؤاد باشا برصاصة قتله قبل ان يبوح بالامر
ويفشي هذا السر . وكان الشاهد عليه مدة التحقيق بالاشتراك مع
الجانيين وتحريضهم على القتل اناس من المسلمين وفي مقدمتهم موظف
تركي اسمه صالح بك زكي وهو الذي حاول ان يخلص النصارى من
الذبح وكان قائدا لنفر من الجند فجاءه الامر بما اثناه عن عزمه .
واعدم في دمشق ايضا ذلك الوحش الضاري لا رحم الله له ذكرًا
نريد به النذل الخائن عثمان بك الذي كان في حاصبيا يوم مذبحتها .
واعدم معه ايضا ثلاثة من ضباطه ومائة وسبعة عشر جنديا من وحوش
الاتراك الذين ثبت اشتراكهم في المذابح وكان اكثرهم من الباشيزق
واعدم ستة وخمسون رجلا من مسلمي دمشق ونفي حوالي اربعمائة
منهم الى الولايات القاصية . وفرضت الحكومة التركية على المسلمين
في دمشق مالا مقداره ٢٠٠٠٠٠ ليرا وهذا لا يبلغ عشر الذي نهبه
من النصارى ولكن هذا القليل لم يجمع ايضا والذي جمع منه لم يصل

إلى اصحابه فقد زادت خسائر النصارى في دمشق وحدها عن مليوني ليرا في ذلك الشهر الاسود غير قيمة الستة آلاف نفس التي ذهبت ضحية التعصب والفساد

وعاد فؤاد باشا إلى بيروت في ١٢ سبتمبر سنة ١٨٦٠ وارسل يطلب بعض مشايخ الدروز ويتهددهم بالعقاب اذا هم امتنعوا عن الحضور فأطاع هذا الامر ١٤ منهم ورفضه ٣٣ ووقع فؤاد باشا العقاب على الجميع بلا محاكمة فعزلهم من مناصبهم وجردهم من كل شرف ورتبة ثم شكلت محكمة مخصوصة لمحاكمة بعض المجرمين وحوكم فيها طاهر باشا وخورشيد باشا وثلاثة غيرها من الاتراك وسبعة من مشايخ الدروز فحكمت على الدروز منهم بالاعدام وعلى الاتراك بالسجن المؤبد وحكم مثل هذا على عبد السلام بك وهو الوحش التركي الذي كان قائد العساكر في دير القمر يوم جرت مذبحتها ومع ان القتل ثبت بلا عناء على الجميع فقد عفت مكارم السلطان التركي عن الدروز وابدلت حكم الاعدام بالسجن واغرب من هذا ان هذه الاحكام ظلت حبرا على ورق ولم ينفذ واحد منها فلذا ذكر هذا الذين يصدقون ان في دولة الاتراك خيرا

ثم تظاهر فؤاد باشا بحب مجازاة الدروز عن بكرة ابيهم فجمع اعيان النصارى واساقتهم وقال لهم ان اهل الارض طرّا عرفوا بفظائع الدروز والمذابح التي حصلت وانه سيقتل كل مشترك في تلك المذابح وطلب اليهم ان يساعدوه على معرفة المجرمين فأجابوا الاساقفة ان وظائفهم تمنعهم من التداخل في مسائل القتل وسفك الدماء ولكنهم

قبلوا بتعيين نوّاب من الشعب عنهم يفيدون دولته الفائدة المطلوبة
فرضي فوّاد باشا بذلك ولما اجتمع هؤلاء النوّاب في حضرته اظهر لهم
تأثراً زائداً واسفاً كثيراً على الذي اصابهم ووعدهم مراراً وتكراراً
بأخذ الثار والاقتصاص من المجرمين الفجار ثم رجاهم ان يكتبوا له كشفاً
باسماء الدروز الذين ظهر من فعالهم التطرّف في القسوة الوحشية وثبت
انهم قتلوا الارباء بأيديهم ثم اوضح لهم ان الامر سرّي وشدد عليهم
بمخفيه في صدورهم حتى انه جاء بالكتاب المقدس واضطراً هؤلاء
النوّاب ان يسموا عليه بحضور اساقفتهم انهم يبقون السر مكتوماً
ولا يعملون احداً بالذي دار بينهم وبينه ففعلوا ذلك

وظلّ هؤلاء النوّاب شهراً كاملاً يفتكرون ويبحثون حتى وضعوا
تقريراً مسهباً وضمنوه كشفاً بأسماء اربعة آلاف وستمئة درزي
وثلاثة وستين مسلماً ومتوالياً من الذين اشتركوا في المذابح وقدموه
إلى فوّاد باشا بناءً على طلبه ولم يمض على تقديمه زمان طويل حتى
شاع بين الناس ان النصارى واساقفتهم قدموا طلباً باعدام ٤٦٠٠
درزي والحواء على فوّاد باشا بقتلهم . ومن المؤكد ان النوّاب الذين
قدموا الكشف لم يوحوا بأمره بسبب القسم التي ذكرناها وبعلة انهم
كانوا يخافون من الدروز اذا هم اعلنوا ذلك ثم انهم لم يطلبوا شقاً ولا
اعداماً في تقريرهم ولكنهم قدّموا اسماء المجرمين على حسب طلب
الوزير التركي فوصول الخبر بهذا الكشف إلى الناس لم يكن الا من
فوّاد باشا نفسه وقصد بذلك غايةً فاز بتحقيقها ذلك انه لما بلغ خبر
هذا الكشف بلاد اوربا نفر الناس من النصارى واساقفتهم ولا موهوم

كل اللوم على أطرافهم في حب الانتقام وانقلب الرأي عليهم في بلاد كثيرة وبنوع اخص في بلاد الانكليز حتى ان بعض فئات الاحرار صارت تدافع عن الدروز وتتهم النصارى بالدناءة والرداءة ودليلها على ذلك طلب الاساقفة والرهبان ان يعدم معظم رجال الدروز كما تقدم . وهذا هو الذي طلبه فؤاد باشا من سياسته وقد اتى الاتراك مثل هذا الصنيع بعد مذابح سنة ١٨٤٥ كما تقدم في هذا الكتاب . وما علم الاساقفة واعيان النصارى بما كان لهذا التقرير من التأثير في اوربا احتجوا واعترضوا واوضحوا للعالم اجمع انهم ما كتبوا الكشف الا على طلب فؤاد باشا وذكروا فيه اسماء الذين افردوا في التوحش حسب تعليماته وما ذكروا فيه غير لذين حرّضوا على المذابح والذين رأسوا عصابات القاتلين والذين قتلوا الابرياء بيدهم ومعلوم ان هذا يشمل كل وجيه او مسموع الكلمة في طائفة الدروز . وعاد فؤاد باشا واجتمع بهؤلاء النوّاب ووبخهم على افشاء السرّ وعم لم يأتوا ذلك ورجاهم ان يحوروا هذا الكشف ويقالوا الاسماء ففعلوا باشارته وكتبوا ١٣٠٠ اسم في كشف جديد وظنّ الناس ان هؤلاء سوف يعدمون لامحالة وقوي هذا الظنّ فيهم لما امر فؤاد باشا بضبط نحو الف وخمسمائة درزي من كل القرى ولكن الحكومة افرجت عن ثمانمائة بقي من هؤلاء القتلّة في الحال وكان الذين اخلت سبلهم ائتمروا بالذين ائتمروا في ارتكاب الفظائع فبدأ النصارى يرون ان تظاهر فؤاد باشا بجهنم وحب الانتقام لهم من اعدائهم مثل بقية طواغر الدياسة التركية حتى انه لما دعاهم هذا الوزير الى الذهاب معه الى الخارّة لمساعدته على معالجة

القاتلين امتنعوا عن تلبية الطلب فأرسل اليهم فؤاد باشا واحداً يفهمهم ان القصد من ذهابه الى المختارة وهي عاصمة الدروز في لبنان هو ان يعقد فيها مجلساً مخصوصاً يحاكم فيه القاتلين ويأمر باعدامهم وكان يريد منهم ان يقفوا في المجلس بمثابة الشهود والمخلفين حتى يساعدوه على معرفة المجرمين فلم يذهب من النصارى غير ثمانية اطاعوا الامر بعد الالاحاح الشديد ورأى الباقون ممّا مرّ ان القصد الاستهزاء بالعدل وتضليل العقول لغاية لم تخف عليهم . ولما وصل الباشا ومن معه الى المختارة طلب الى الثانية الذين ذكرناهم ان يعملوا له كشفاً بثلاثة شقي من اشقياء الدروز حتى يقتص منهم في الحال فقالوا له انهم لا يعرفون بعض الانحاء التي حصلت المذابح فيها ولا يتدرون على تخصيص هذا العدد القليل من بين عشرة آلاف قاتل او اكثر الا اذا عادوا الى بيروت وغيرها وسألوا العارفين فيها عما يريد . قال اذا ابعثوا وراء من تريدون من الناس الى هنا في الحال وسلوهم عما تريدون لان وقتي قصير لا يسمح لي بمثل هذا التأخير قالوا ان هذا لا يجدي نفعاً لان الناس لا يأتون كلهم سيما وان الاحزان والاهوال تمنع من ركوبهم هذا المركب الخشن الآن فأجابهم بما معناه انهم قوم لا يعقلون وانهم يؤخرون سير العدالة بمثل هذه الامور وحذرهم من عاقبة الاهمال في تلبية طلبه (وهو يعلم ان التلبية غير ممكنة لهم) وقال انه من بعد ذلك اليوم لا يقبل شكوى ولا يعاقب مجرمًا وعلى ذلك عاد هؤلاء النواب وقد رأوا ان الحكومة التركية لاتنوي مد يد السوء الى الدروز وفي الاسبوع الذي عقب هذه الحوادث اخلي سبيل خمسة

درزي من الذين كانوا في سجون الحكومة فصار مجموع الذين افرج عنهم من الالف والخمسمئة حوالي الف وثلاثمائة شقي ونفي نحو مئتين إلى طرابلس الغرب حيث صدرت التعليمات بالاحسان اليهم والتلطف معهم وعاد هؤلاء المتغيبين الى قراهم على نفقة الحكومة حالما غفلت عين اوربا عن مراقبة الاتراك وحكومتهم

ولطالما عثر بعض النصارى بالذين قتلوا اقاربهم من الدروز في خلال تلك الاعمال والمخابرات واطفروا الحكومة بوجودهم فلم تقبض عليه حتى ان بعض النصارى كانوا يقبضون على امثال هؤلاء ويأتون بهم إلى دار الحكومة فتصرف المشكل بالافراج عن الدرزي وعلى ذلك انقضى الامر ولم يقتل من الذين فتكوا بالالوف غير سبعة او ثمانية غير معدودين واما بقية القتاتين فدافعت عنهم الحكومة التركية ما استطاعت وخلصتهم من العقاب بالاساليب التي ذكرناها. وكانت المحكمة التي شكلت في اخنارة لمحاكمة القتاتين اكبر مثال على الظلم ووضح دليل على ان الاتراك كانوا يهزأون بالعدالة في كل اجراءاتها فقد تقدمت من بين الناس امرأة واتهمت درزيا انه قتل زوجها واتت بالادلة والشهود على ذلك وكان القاتل يتحدث بين اخوانه في قتل ذلك الرجل ويفرح بالذي اتاه فلما وقفت المرأة امام المحكمة بدأ اعضاءها العادلون يسألونها السؤالات الباردة من مثل قولهم كيف قتل زوجك. قالت ضربه فلان برصاصة من بندقيته قالوا وهل كانت البندقية ذات طلق واحد او متعددة الطلقات. وفي اي ناحية من جسمه اصابته الرصاصة أفى صدره أم في رجله. وهل ظلت الرصاصة

في جسمه أو خرجت منه . وهل وقع ساعة موته على ظهره أو على صدره . فضاقت صدور النصارى من هذه الامور ولم يبقَ عندهم ريبٌ في ان الحكومة التركية تنوي خلاص الذين قتلوا افاربهم وعدلوا عن الالتجاء إلى رحمتها وقطعوا كل امل في عدالتها

✽ الاحتلال الفرنسي ✽

ووصلت الجنود الفرنسية الباسلة مدينة بيروت في اليوم السادس عشر من شهر اغسطس سنة ١٨٦٠ وكان افراد هذا الجيش الصغير — وعدده ستة آلاف رجل — ينشدون الاناشيد الحماسية بلغتهم الفرنسية ويتوعدون الدروز بالجزاء العادل ويسرّون لانهم جاؤوا للاقتصاص من الذين ذبحوا الابرياء وفتكوا بالمساكين فكان لوصولهم رنة عظيمة وتأثير كبير وفرحت القلوب فرحاً لا يوصف في يوم قدومهم المبارك وطارت الاخبار الى سائر الانحاء ان هذا الجيش المخل قد جاء معه بالآلات المجازرة (الجلوتين) لقطع رقاب القتاتلين وعسكروا عقيب وصولهم في اطراف مدينة بيروت حيث ظلموا حوالي شهر في « الحرش » المعروف

ثم اتفق الجندال بوفور مع فؤاد باشا على ان يتقدم الجيش الفرنسي والجيش التركي لمقاصة الدروز فذهب فؤاد باشا ببعض الجنود التركية إلى آخر لبنان من جهة الشرق حتى يقطع على الدروز طرق الفرار من وجه العدالة إلى حوران وتقدم الجيش الفرنسي من جهة البحر فصار الدروز بين جيشين وظن البعض ان خلاصهم

مستحيل. وكان النصارى يتبعون العساكر الافرسيّة افواجا ويدعون لها بالنصر حتى ان بعضهم حملتهم الغيرة على قتل بعض الدروز في مدة وجود هذا الجيش على مقربة منهم وكان الجنرال بوفور يقاص كل نصرائي وكل عكري من رجاله يمدّ إلى الدروز يد الاذى. والتقى جيش الدولة الافرسيّة بجيش الاتراك في بلدة جب جنين في البقاع بعد ايام من خروج الفرنسيين من بيروت وكان الجنرال بوفور يظن ان الدروز صاروا في قبضة يده وان القاتلين منهم سوف يقتلون في الحال فجاء اليه فؤاد باشا واعلمه ان الجانبين من الدروز تمكنوا من الفرار إلى حوران مع كل ما اظهر وجيشه من الاهتمام لحصرهم في مواضعهم واظهر الاسف من ذلك فظن الجنرال الى ان في الامر حيلة واظهر غيظه لفؤاد باشا بانكلام الثقيل على هذه الخيانة ورأى ان المقصد من الحملة لم يتم وان دسائس الاتراك جعلت قدومه بلا فائدة فاظهر حدة كبيرة وكان على وشك ان يأمر رجاله بالغارة على قرى الدروز ولكنه امتنع عن ذلك خوف ان يؤخذ البريء بجريرة الاثيم ولما كانت الاوامر التي أعطيت اليه من دولته نقضي عليه بالانقياد الى فؤاد باشا اضطرّ الى سماع قوله وكان فؤاد يريد منه الرجوع الى بيروت ففعل ذلك بعد ان عسكر رجاله زمانا في بعض القرى اللبنانية لا عمل لهم غير مساعدة النصارى على بناء البيوت التي حرقّت مدة الحرب والتطاع الى غير هذا وقد شهد الناس اجمع يومئذ بالتأدب لهذه الجنود الباسلة التي كانت تود لو تسمح لها الظروف باظهار ما عندها من البسالة في القتال ولكن دسائس الاتراك وحيلهم غلبت

تدابير الجنرال بوفور فعاد بجيشه الى بيروت كأنما هو عائد من القتال مكسوراً ولوايح الاسف من ضياع المقصود بادية على الوجوه وكانت دولة الاتراك ودولة الانكليز تود أن لا يطول هذا الاحتلال الافرنسي لبلاد الشام فاتتاكل الطرق اللازمة لتعجيل يوم الجلاء وقيل ان الجنرال بوفور رُشي بمال طائل حتى يساعد الاتراك على اخراج عساكرهم من بلادهم وكان مدة وجوده في بيروت بعد عودته من لبنان قاعدًا ورجاله مدة سبعة اشهر بلا عمل ولا امر يهتم تنفيذه ولطالما اشتكى اليه النصارى مدة وجوده من ظلم الاتراك في الامور الكثيرة فلم يقدر على التداخل حتى ان بعض رعايا المسلمين كانوا يعتدون على جنوده الباسلة ويضربون كل من يقع في ايديهم ضرباً مبرحاً فلم يقدر على ردعهم واخيراً في ٥ يونيو من سنة ١٨٦١ اي بعد المذابح بعام واحد وكان ذلك اليوم اشدّ سواداً من الليل في عيون النصارى والعساكر الافرنسيّة الباسلة اذ صدر اليها الامر بالجزء عن بلاد الشام فعملت بالامر والرجال يتحسرون على رجوعهم بعد القعود الطويل على غير فائدة وعلى انهم لم ينفذوا احكام العدالة في مجرم واحد من مجرمي الدروز وفرح المسلمون والدروز بهذا الجلاء فرحاً لا يوصف . وكثرت من بعد ذلك الاشاعة بان الجنرال بوفور اعطي ٧٥ الف ليرة عثمانية حتى يسهل امر هذا الجلاء وهكذا انتهى احتلال الجيش الافرنسي لبلاد الشام ولم يفد في شيء وفلت الدروز من الجزاء العادل بمساعدة الاتراك الذين حرصوهم على تلك الفعال

فصل

مؤتمر بيروت من ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

وكانت الدولة الافرنسيّة ترى من اول الامر ان يعقد في سورّيّة مؤتمر دولي للنظر في الاهوال التي ذكرناها وتحقيقها ونشديم الآراء اللازمة عما يجب فعله من بعدها لاجتناب حدوثها في المستقبل ووافقتها الدولة الانكليزيّة على هذا الرأي ثم عرض الامر على بقيّة الدول وعلى دولة الاتراك فقبلن به وتسعين اعضاؤه كما يأتي :

وكيل تركيا	« رئيس المؤتمر »	فؤاد باشا
« انكلترا »	اللورد دوفرن	
« فرنسا »	الموسيو بكلاز	
« روسيا »	فيكوف	«
« النمسا »	وكبكر	«
« بروسيا »	رهفوس	«

وكان امهر هؤلاء الوكلاء الكرام فؤاد باشا التركي لانه كان يلعب ببقية الرجال كما يلعب الهرّ بالفار وسوف تعلم ذلك ممّا يجيء . واشتهر اللورد دوفرن منهم بالذكاء واستقامة الرأي وهو الى هذا اليوم من اعظم اكابر الانكليز ينوب عن بلاده في عاصمة الجمهوريّة الافرنسيّة واجتمع هذا المؤتمر في بيروت لاول وهلة في ٥ اكتوبر سنة ١٨٦٠

فقرر ان ينظر في اسباب المذابح الاخيرة والمسؤول عنها وان يرتأي مجازاة الذين اشتركوا فيها والتعويض عما خسرته النصارى بسببها وتعيين مقدار التعويض وتقرير نظام لجبل لبنان يحكم بموجبه في مستقبل الايام حتى لا تعود المذابح التي تقدم ذكرها . وجلس المؤتمر ٢٥ جلسة في مدة خمسة اشهر وفضَّ في ٥ مارس سنة ١٨٦١

واهتمَّ هذا المؤتمر في اول الامر بالتعويض الذي كان النصارى في حاجة كبرى اليه فقد عسر على القلم بيان حال اولئك المساكين وما صاروا اليه من الذل الهائل والفقر انكثير وكانت الارامل يتجمعن من سائر القرى والاطفال الذين بين ايديهنَّ يصرخون من ألم الجوع والعري والرجال يتحسرون ويتنهدون على الذي لحق بهم من الذل والذي اصابهم من فقد الاحبة والاموال وظهرت على وجوه الكثيرين منهم هيئة الموت والالم الذي لا يطاق . كل هذا والمسلمون يزدون عن الدروز غلظة في الشتمة والتعير والفرح بمصائب هؤلاء المساكين في حين ان الاموال الوفرة كانت ترد على المصابين من جماعة المحسنين في اوروبا واميركا وتشكلت اللجان الكثيرة للصدقات فاعطي المعوزون الغذاء وانكساء والغطاء وبعض المال واشترك في هذا الاحسان اكثر الامم الاوربية وكان في مقدمتها الامة الانكليزية والامة الافرنسية والامة الاميركية . وجاء بعض الاحسان من السلطان ايضاً فوزع مثل غيره على المعوزين ودفع اللورد دوفرن وكيل انكلترا يومئذ في مؤتمر بيروت خمسة آلاف جنيه من ماله الخاص لمساعدة هؤلاء الحزاني واتي المؤتمر كل ما يقدر عليه للاشتراك مع الذين حزنوا لمصاب

هؤلاء الشكودي الحظ فقدّر ان مجموع خسائر النصارى لا يقل عن ثلاثة ملايين جنيه وانتقل الى مدينة دمشق ببيئته الكاملة لينظر في امر تلك المدينة وبعد البحث والتروي قرر اعضاؤه ان خسائر دمشق لا تقل عن مليون ونصف من الليرات العثمانية ولكن فؤاد باشا اتى كل دعاء وذكائه حتى انزل هذا القدر إلى اقل من النصف فرضي المؤتمر بتقدير الخسارة بسبعائة الف ليرا وقرّر ان يجمع هذا المال من مسلي تلك الناحية ويعطى إلى المسيحيين كل على قدر خسارته. وارتأى فؤاد باشا ان يجمع قسم من هذا المال من طائفة الدروز فلم يوافق المؤتمر على رأيه

ومن اغرب امور هذا المؤتمر ان فؤاد باشا اعلن بقية الاعضاء في الجلسة الخامسة عشرة ان الباب العالي قد اقرّ على ان تنظر مسائل التعويض برمتها في الاستانة ويعنى المؤتمر من النظر فيها فذهل بعض الوكلاء لهذه الحكاية وصمت الآخرون ولكن الغريب في الامر انهم لم يعترضوا على هذا القرار وسلموا به في الحال مع ان حقوقهم كانت تحول إلى المتابعة على النظر باتسهم في امور التعويض. ونج عن انتقال هذا الامر الخطير إلى يد الاتراك ما يعرفه كل عارف في الارض فان الباب العالي اعلن بعد الامهال الطويل انه لا يقدر على دفع اكثر من ٣٥٠ الف ليرا لاهل دمشق وان هذا المال يعطى اليهم اقساطاً يقبضونها كل ستة اشهر على مدة ثلاث سنين ومعلوم ان التعويض مع مثل هذا التأخير وفي كمال المأساة لا يكون ولا يعطونه إلى اصحابه مثل ما موري الاتراك لا يعد تعويضاً ولكنه يعد ظمناً تركياً

وقد حصل من بعد هذا القرار ان الدولة التركية اعطت بعض الاساقفة والوجهاء مالا قليلاً فأعطوها الشهادات بوصول حقهم اليهم وبانه لم يبق عليها شيء من اوجه العدالة وبان النصارى يدعون لها بدوام النصر على هذا الاحسان الكثير والعدل الوافر وانقضى الامر بمثل هذه الاكاذيب فلم يقبض بعض المصابين شيئاً وقبض بعضهم معشار ما له وقبض المأمورون بعض ما للذين لم يجسروا على المطالبة ولم يبلغ مجموع الذي دفع عشر الذي خسرته الاهالي من المال في سنة الاهوال. واما الذي اصاب الارامل والايتام من اهل حاصبيا وراشيا ودير القمر فحدث عنه ولا حرج فقد ذبلت نفوس هؤلاء المساكين من الهم ولم تعطهم الحكومة التركية شيئاً من التعويض الا اليسير ولولا ان يتداركهم اولو الاحسان من الافرنج للحقوا بالذين قتلوا في تلك المجازر الوحشية

وكان من اهم اعمال مؤتمر بيروت النظر في جنايات الدروز والمسلمين من مراقبة محاكمتهم واعدامهم فاجتهد فؤاد باشا في اول الامر ان ينزع هذا الحق من يد المؤتمر كما نزع حق النظر في امر التعويضات فهاج لذلك اللورد دوفرن وقال انه اذا حاولت الحكومة التركية منع المؤتمر واعضائه من النظر في سير المحاكمات وتوقيع العقوبات ذهب بنفسه الى المحكمة واجاز للحراس منعه من الدخول بالقوة حتى يثبت ذلك على عمال الدولة التركية ويعرف كيف يجازيهم بعد ذلك ووافقه بقية الاعضاء فخاف فؤاد باشا وعدل عن رأيه ولكنه صمم النية على عرقلة مساعي المندوبين ونجح في ذلك فطلب اليهم ان يدوا

رأيهم في كيفية المجازاة وصار كل واحد منهم يبدى رأياً فكان وكيل دولة النمسا يرى ان الاعدام لا يجوز مطلقاً بدعوى ان الذي يقتل خصمه في الحرب لا يستحق الاعدام . وكان قنصل روسيا يريد امراً غير هذا وقنصل فرنسا يطلب اعدام وجهاء الدروز واكابرهم وفي جملتهم سعيد بك جنبلاط فعارضه وكيل انكلترا في امر هذا الحميد ولم يوافق على قتله ولكنه رضي باعدام الآخرين وهكذا وتنع المؤتمر في شرك الاتراك وكثير الاختلاف بين اعضائه

ومضت الايام والاشهر والمؤتمر يبحث في المسائل وفؤاد باشا يؤخر نتيجة اعماله بكل واسطة ممكنة فيوماً يلقي عليه المسائل المعضلة ويوماً يتقرب من وكيل على وكيل آخر ويوماً يطلب منه الامهال في بعض الامور ريثما يتم التحقيق ويوماً يسافر إلى دمشق او سواها بدعوى ان الاحوال تدعو إلى ذلك فيؤخر المؤتمر عن اتمام اشغاله حتى ضاقت صدور الناس من هذا التأخير وحذر المؤتمر فؤاد باشا من عاقبته فجمع اساقفة النصارى واعيانهم على ما تقدم وامرهم بتحرير الكشف الذي ذكرناه وظل اشهرًا يحاول الوكلاء بهذا الكشف ويعدهم بتحذيره وتنقيحه ونجازاة الذين يذكرون فيه حتى اذا شاع بين الناس ما مرّ عن رغبة الاساقفة ووجهاء النصارى في اعدام ٤٦٠٠ درزي انقلبت الافكار على النصارى وبدأ البعض من اعضاء المؤتمر يدافعون عن الدروز ويرتأون تشكيل محكمة مخصوصة تدور في المدن والجلال لمحاكمة النصارى والدروز معاً من الذين اشتركوا في الحرب الاخيرة

وكان فؤاد باشا في خلال هذه المدة يحاكم بعض دروز بيروت والمخارة على ما تقدم من اساليب الدهاء والتويه وكما سأله وكلاء الدول ان يعجل في التحقيق ويسرع في معاقبة الجانين يقدم لهم رأياً جديداً وعذراً يوجب التأخير حتى فرغ الصبر عن آخره ولم يعد في امكان الوزير التركي ان يزيد في التأخير فأمر باعدام ٣٥ رجلاً من أشهر اشقياء الدروز وهكذا انتهى الامر ولم يقتل من هؤلاء القتلة الغادرين غير هذا العدد الذي لا يذكر

ثم عاد المؤتمر إلى التحقيق والنظر في ما يجب اتخاذه من الاعمال لمنع حدوث مثل هذه المذابح في لبنان وكثر اختلافهم في هذا الامر ايضاً ولكنهم قرروا مبدئياً ان يكون حاكم لبنان المطلق مسيحياً من غير اهل ومن رعايا الدولة التركية ويكون الثاني في الجبل بعده من الدروز وان يستقل لبنان في شؤونه الداخلية تحت سيادة الباب العالي وانتهت جلسات هذا المؤتمر في ٢ مارس سنة ١٨٦١ فرفع تقريره إلى الاستانة للباب العالي وسفراء الدول وهناك تخارت الدول في الامر فقررت بعد الامعان قبول المبدأ الذي اوضحناه

وسنت نظاماً لجبل لبنان رأينا ان ننقل صورته

هنا ويمثل هذا انتهت حوادث

سنة ١٨٦٠

السوداء

ترجمة نظام جبل لبنان

لما كان الاجل المضروب مدة ثلاث سنين للنظام الذي وُضع
وللقرار الذي تقدم صدورهُ بخصوص ادارة جبل لبنان تحصيلاً لأسباب
رفاهة وأمن الرعيّة التابعين دولتي العليّة القاطنين والمستوطنين الجبل
المذكور وكان من المقررّ انه عند انقضاء المدة المعينة يعاد التذاكر في
مقتضى الحال وقد انقضت الآن اجري التعديل والتنقيح في بعض
المواد الواردة في لائحة هذا النظام وعند عرضها على جناب سلطنتي
الاشرف والاستئذان فيها تعلق شرف صدور ارادتي السنية الشاهانية
باجراء مقتضاها على هذا الوجه وبوجوبها لزم اعلان النظام المذكور
على المنوال الآتي بيانهُ

✽ المادة الاولى ✽ يتولى ادارة جبل لبنان متصرف مسيحي
تنصبه الدولة العليّة ويكون مرجعهُ الباب العالي رأساً وهو مختل
العزل بمعنى انه لا يستمر في منصبه ما دام حياً . ويكون على عهده
القيام بجميع خطط الادارة الاجرائية متوفراً على حفظ الراحة والنظام
في انحاء الجبل كلها وان يحمل منها التكاليف . وبحسب الرخصة التي
من لدن الحضرة الشاهانية ينصب تحت عهدهُ ، وأموري الادارة المحليّة
ويقاد الحكام القضاء ويعقد المجلس الكبير ويتولى رئاسته . وينفذ
الاعلامات القانونية الصادرة من المحاكم الخارجة عن القيود التي
ستذكر في المادة الثامنة

✽ المادة الثانية ✽ ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلفاً من اثني عشر عضواً اثنين مارونيين ينوبان عن مديرية^(١) كسروان . وثلاثة من مديرية جزين احدهم ماروني والثاني درزي والثالث مسلم واربعة من مديرية المتن احدهم من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتاولة . وعضو واحد درزي من مديرية الشوف وآخر من الروم ينوب عن مديرية الكورة . وآخر من الروم الكاثوليك عن مديرية زحلة . ومجلس الادارة هذا يكون مأموراً بتوزيع التكاليف والبحث في ادارة واردات ومصاريف الجبل وبيان آرائه من وجه المشورة فيما يعرضه عليه المتصرف من المسائل

✽ المادة الثالثة ✽ ينبغي ان ينقسم جبل لبنان إلى سبعة قضاوات الاوّل يشتمل على الكورة مع الجهة التخيّة والاراضي المجاورة الآهلة باقوام على مذهب الروم الا ان قصبة القلمون التي على ساحل البحر ومعظم سكانها من اهل الاسلام هي مستثناة من ذلك . والثاني يشتمل من شمالي لبنان على جبة بشري والزاوية وبلاد البترون . والثالث يشمل من الشمال المذكور بلاد جبيل وجبة المنيطرة والفتوح وكسروان الاصلي حتى نهر الكلب . والرابع يشتمل على زحلة وضواحيها . والخامس يشمل المتن مع ساحل النصارى واراضي القاطع وصليما . والسادس يبتدىء من جنوبي طريق الشام حتى جزين . والسابع يشمل جزين

(١) في بداية تأسيس المتصرفية اللبنانية كانت المديرية بمعنى القائمقامية وكان قضاء كسروان والبترون مديرية واحدة ولهذا ورد في هذا النظام لفظة مديرية عوض لفظة قائمقامية المستعملة الآن

واقليم التفاح. وفي كلٍّ من هذه القضاوات السبعة المارّ ذكرها ينبغي للمتصرف ان ينصب مأمور ادارة منتخباً من ابناء المذهب الغالبين هناك عدداً في النفوس أو اهمية في الاملاك والاراضي الجارية بتصرفهم

✽ المادة الرابعة ✽ يجب ان تنقسم القضاوات إلى نواحٍ على نمط قريب المشاكلة لما ذكر من اقسام القضاوات فيلي كل ناحية مأمور ينصبه المتصرف بناءً على انتهاء القضا. وان يكون في كل قرية شيخ ينصبه المتصرف بانتخاب اهله

✽ المادة الخامسة ✽ قد تقرّر امر المساواة بين الجميع في شمول احكام القانون ونسخ والغاء كل الامتيازات العائدة لاعيان البلاد خصوصاً ذوي المقاطعات

✽ المادة السادسة ✽ يكون في الجبل ثلاث محاكم ذات درجة اولى يقوم كلٌّ منها بحاكم ووكيل ينصبهما المتصرف ومعهما ستة وكلاء دعاوي رسميين ينتخبهم الطوائف. ويكون في مركز ادارة الحكومة مجلس محاكمة كبير يتألف بستة حكام ينتخبهم المتصرف ويعينهم من الطوائف الست وهي المسلمون السنيون والمتاولة والموارنة والدروز والروم والروم الكاثوليك ويلحق بذلك ستة من وكلاء الدعاوي الرسميين لكل طائفة وكيل معين. واذا وقع دعوى لاحد المذهبيين بمذهب البروتستنت أو اليهود اضيف إلى المجلس حاكم ووكيل دعاوي رسمي من اهل كلا المذهبين علاوة على الاثني عشر عضواً المارّ ذكرهم امّا رئاسة هذه المحكمة فيتولاها مأمور مخصوص ينصبه المتصرف. وان اقتضت حاجات البلاد مزيداً فليتصرفين ان

يضاعفوا عدد المحاكم ذات الدرجة الاولى . واجراء للحكومة مجراها
المتسق ينبغي لهم ان يعينوا منذ الآن الاماكن الحرية بان تكون فيها
هذه المحاكم

﴿ المادة السابعة ﴾ ان لمشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة
حاكم الصلح ان يحكموا في الدعاوى التي لا يتجاوز قدرها مئتي قرش
حكما غير مستأنف واما الدعاوى المتجاوز قدرها مئتي قرش فتري في
مجالس المحاكم ذات الدرجة الاولى على انه لو عرض امور مختلطة وهي
الدعاوى الواقعة بين اثنين مختلفي المذهب واني ايها كان قضاء حاكم
الصلح فيها لكونه على مذهب المدعي عليه فتحال وان قل قدرها إلى
حاكم الدرجة الاولى . ثم ان جميع الدعاوى ولو وجب فصلها بحسب
ماهيتها بغالبية آراء الاعضاء الا ان للمدعي والمدعي عليه المتحدين
المذهب ان يردوا الحاكم لاختلاف مذهبه غير ان الاحكام المردودين
من هذا الوجه لا بد من حضورهم للمحاكمة

﴿ المادة الثامنة ﴾ تقتضي المحاكم في الدعاوى الجزائية ان
تكون على ثلاثة وجوه وهي ان يرى دعوى القباحة شيوخ القرى
المنقلدون خطه حاكم وان الجنحة والجرائم تراها المحاكم ذات الدرجة
الاولى . وان الجنايات تجري محاكمتها في مجلس المحاكم الكبير . واءلامات
الحكم الواجب صدورها من هذا المجلس لا يمكن وضعها موضع التنفيذ
ما لم تكمل المعاملات والمراسم الجارية بها في سائر الممالك المحروسة
الشاهانية

﴿ المادة التاسعة ﴾ ينبغي ان يرى في مجلس تجارة بيروت

كل الدعاوي التجارية حتى ان الدعاوى العادية الواقعة بين واحدٍ من ذوي التبعية الاجنبية او احد الداخلين في حماية اجنبية وبين آخر من اهل الجبل ترى في المجلس المذكور. على ان المنازعات البادية بين اللبنانيين والاجنبيين متى تأتت فصلاً بمعرفة محكمين عن تراض من المتنازعين فيجب والحالة هذه على مأموري لبنان المحليين وقناصل الدول المتعاقبة الفخيمة ان ينفذوا اعلام المحكمين. وان تعذر تراضي الخصمين على التحكيم في الدعوى واحيلت إلى محكمة بيروت فيجب تأدية المصاريف على الخاسر دعواه بحسب التعريفة التي وضعها متصرف جبل لبنان وقناصل الدول مجلة واتفاقاً وقد جرى عليها التصديق من جانب الباب العالي. ومن المقرر انه يجب في الصك الحاوي تراخي المتنازعين على اتخاذ محكمين ان ينظامه وبمضياده وفقاً لاصوله وان يسجله في بيروت وفي مجلس المحاكمة الكبير بلبنان

✽ المادة العاشرة ✽ ان المحكام ينصبهم المتصرفون بخلاف اعضاء مجلس الادارة فلهم ينتخبون بمعرفة مشايخ القرية كما ان انتخاب الشيخ يكون بمعرفة اهل القرية. ثم ان اعضاء مجلس الادارة يجدد انتخاب ثلثهم كل سنتين ويجوز تكرير انتخاب من انقضت عضويتهم

✽ المادة الحادية عشرة ✽ يجب ان يكون المحكام باجمعهم موظفين وان اقدم احدهم على ارتكاب «الرشوة» او تبين بالتحقيق انه آت ما لا يليق بصفة مأموريته فهو مستحق للعزل بل مستوجب ايضاً للتأديب على قدر قباحتها

✽ المادة الثانية عشرة ✽ يجب في مجالس القضاء على الاطلاق ان تكون المرافعة علنية وان يعهد بضبط الدعوى إلى كاتب مخصوص وما عدا ذلك فيحسب ان هذا الكاتب يكون مأموراً باتخاذ سجل لقيود الصكوك المخصصة بفراغ وانتقال « بيع » الاموال الثابتة « العقار » فلا تكون هذه الصكوك معمولاً بها ما لم تقيد بحسب اصولها في السجل المذكور

✽ المادة الثالثة عشرة ✽ ان المتهمين من اهل جبل لبنان بارتكاب الجرائم في غير الولاية فرجع الدعوى عليهم هو اللواء الواقع فيه الجرم . وكذا مرتكبو الجرم من اهالي سائر الولاية داخل نطاق جبل لبنان ينبغي ان تجري محاكمتهم والحكم عليهم بدعاوى جرائمهم في جبل لبنان . وبناء على ذلك فان المجترمين في جبل لبنان سواء كانوا من اهاليه الوطنيين او من نزلاءه المعدودين من اهل ديار اخرى اذا فرّوا إلى لواء آخر فكما ان على ضابطه ان يمسكهم بمقتضى الاشعار الوارد من قبل ادارة جبل لبنان ويسلمهم اليها كذلك يلزم ادارة الجبل ان تلقي القبض على الفارين اليه من المجرمين في احد الولاية لبنانيين كانوا او غير لبنانيين وتدفعهم إلى اللواء المذكور بموجب اشعار ضابطه ومأمورو الادارة الذين يتسامحون في اجراء الاوامر الصادرة باسترجاع امثال هؤلاء المتهمين إلى المحاكم الملوطة بها دعاويهم او الذين يميزون تأخيرات لا يمكن اثبات انبائها على اسباب شرعية فتجري عليهم المجازاة بمقتضى قانون الجزاء كسائر الذين يوارون ويخفون امثال هؤلاء المتهمين عن الحكومة . والحاصل ان العلاقات اللازم اجراؤها

بين ادارة جبل لبنان والالوية المجاورة لها تكون كالمواصلات الجارية
والمتخذة دستوراً للعمل بين باقي السناجق في ممالك الدولة العلية

✽ المادة الرابعة عشرة ✽ ان سبيل المتصرف إلى اقرار حفظ
الراحة وانفاذ القوانين في الازمنة العادية انما يكون بمعرفة فرقة ضبطية
مجموعة من الالهين بحسبان سبعة انفار تخميناً على كل الف من
النفوس. ويجب نسخ سكك الحوالية وابطال نزول الضبطية على البيوت
والاعنياض عن ذلك باسباب اكرهية كاستياق المحكوم عليه إلى
السجن. فبناءً على ذلك يمنع مامورو الضبطية بقيد التأديبات الشديدة
ان يصادروا اهل البلاد بشيء من الاجرة نقداً كان أو عيناً. ويجعل
للضبطية ملابس رسمي أو أزياء مميزة لهم في خدمتهم. وان تبقى طرقات
بيروت والشام وصيدا وطرابلس تحت محافظة العساكر الشاهانية إلى
ان يصدق المتصرف على ان جند الضبطية صاروا اكفاءً لاتمام جميع
الوظائف المحمولة عليهم في الازمنة العادية. وهذا العسكر يكون لدى
المتصرف وبادارته وللمتصرف ان يطالب من الحكومة العسكرية بسورية
الامداد بالجنود المنظمة في الاحوال غير العادية ان دعت الضرورة
بعد أن يستشير مجلس الادارة الكبير. ويلزم الضابط المعين بالذات
لرئاسة هذا العسكر ان ينظر مع المتصرف في تقرير التدابير الواجب
اتخاذها وهو «اي الضابط الموما اليه» وان كان مخناراً ومستقلاً بامور
العسكر المحضة كاجراء الحركات والنظامات الجندية الا أن عليه مدة
وجوده في الجبل أن يلزم معية المتصرف ويجري العمل تحت عهده
وفي حال اعلان المتصرف لرئيس العسكر وافادته رسمياً ان قد زال

السبب الذي من اجله ورد العسكر إلى الجبل يجب عليه اخراجه منه
 * المادة الخامسة عشرة * ان الدولة العلية تحافظ على حقها
 المعلوم بتحصيل ويركو الجبل المعين الآن ثلثة آلاف وخمسة كس
 وذلك على يد المتصرف على انه يجوز ابلاغ هذا القدر إلى سبعة
 آلاف كس عند الامكان بحيث ان المال المتحصل يخصص بادئ بدء
 لادارة الجبل ونفقات العمومية فان فضل منه شيء رُدَّ الفاضل
 إلى الخزينة وان اقتضت شدة الضرورة إلى تحسين مجرى الادارة
 مزيداً على التكاليف المعينة فيرجع في تسوية الميزانية إلى مصاريف
 الخزينة الجبلية امّا واردات البكاليك اي حاصلات الاملاك الهايونية
 فحيث انها ليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي اذخارها في صندوق
 الجبل لحساب الخزينة الجبلية على ان السلطنة السنية لا تقوم باداء
 مصاريف المنشآت العمومية وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم
 قبولها لها وتصديقها عليها

* المادة السادسة عشرة * يجب تعجيل الشروع في احصاء
 نفوس اهل الجبل محلاً محلاً وملة ملة ومسح جميع الاراضي المزرعة
 ونظم خريطة مساحتها

* المادة السابعة عشرة * كل الدعاوي الكائنة بين افراد
 رهبان الاديرة وخوارنة الكنائس يكون فيها المظنون به أو المتهم
 تابعين للحكومة الرهبانية الا ان تطلب الاسقفيات اعادة ذلك إلى
 مجالس الدعاوي العادية

* المادة الثامنة عشرة * يمتنع في عموم اماكن الرهبان مطلقاً

اجارة الاجئين اليها ممن تطلبهم وفتحهم الحكومة رهبانا كانوا أو من عوام الناس « اه »

ان الثاني عشرة مادة المسرودة آنفاً هي النظمات الاساسية لجبل لبنان يجب اتخاذها دستوراً للعمل إلى ما شاء الله تعالى . ومن مقتضى ارادتي القاطعة السلطانية ان يتوفر الجميع على كمال الاعناء والدقة في اجرائها وتنفيذها حرفاً فحرفاً والحذر كل الحذر من مخالفتها . وائذاناً بذلك صدر فرماني هذا العالي الشأن . وقد كتب في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الآخر لسنة احدى وثمانين ومائتين والف « اه »

وقد عاد هذا النظام بالفائدة المطلوبة على جبل لبنان فانتظمت احواله وترقت شؤونهُ وسارت ادارته سير الاصلاح والتقدم في حين ان الولايات الاخرى من بلاد الشام التي لم يشملها هذا النظام ظلت على ما هي عليه الآن من الاخلال في الآراء وسوء الحال . ولكن هذا لم يفد الذين أصيبوا بفقد الاهل وضياع المال ولم تزل آثار تلك الفظائع والاهوال باقية إلى الآن في المدن والقرى التي دمرها الاتراك والدروز في السنة السوداء من مثل دير القهر وراشياً وحاصبياً ودمشق وغيرها . وقد تشتت اهالي المدن التي ذكرناها في جهات شتى واستوطن بعضهم المدن الجورية من بلاد الشام ورحل بعضهم إلى القطر المصري وبعضهم إلى أوروبا واكثرهم الآن من نخبة المعروفين بين وجهاء الشام وادبائها

جعل الله الذي ذكرناه خاتمة مصائب الشام واحزانها وألم حكومتها الاقدام على تعميم العدل والاصلاح فيها انه السميع المجيب

فصل

في بعض ايضاحات عن جبل لبنان

جبل لبنان سلسلة جبال وهضاب تمتد من منتهى السلسلة الغربية شمالاً حيث مديرية الهرمل الى اقصاها جنوباً حيث جبل الريحان وتصل حدوده بشطوط البحر المتوسط غرباً على محاذاته طولاً ما عدا بعض المدن الكبيرة كطرابلس وبيروت وصيدا فانها منفصلة عنه سياسةً . ويحده من الجهة الشرقية سهل البقاع المشهور

ومجموع النفوس المكلفة فيه (اي التي تدفع الاموال الاميرية) ٩٩٨٣٤ نفساً واذا أضفنا إلى كل فرد اربعة كان عدد السكان التابعين لمصرفية لبنان نحو خمسمئة الف نسمة وربما زادوا على هذا العدد وقد تغير حال هذا الجبل ونظامه بعد حادثة سنة ١٨٦٠ ونال امتيازاً لم ينله مكان آخر سواه وذلك واضح من فرمان المدرج آنفاً الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢٨١ للهجرة

واما المتصرفون الذين تولوا الحكم فيه منذ سنة ١٨٦١ إلى الآن فخمسة اولهم داود باشا ابتدأت مأموريته في ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ وبقي متصرفاً ٦ سنين و ١١ شهراً وثلاثة فرائق باشا في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨ فتوفي بعد اربع سنين وسبعة اشهر وعين بعده دولابو رستم باشا (سفير الدولة العثمانية الآن في لندن)

في ٩ مارس (اذار) سنة ١٨٧٣ وبقي متصرفاً عشر سنين وشهرين ،
وخلتهُ واصه باشا في سنة ١٨٨٣ وتوفي في سنة ١٨٩٢ فخلتهُ دولته
نعوم باشا المتصرف الحالي

ويشتمل هذا الجبل على سبعة اقسية في كل منها عدة نواح .
وفي كل قضاء قائم مقام وفي كل ناحية مدير والمديرون بخابرون
القائمات والقائمات تخابر المتصرفية والمتصرفية تخابر الباب العالي .
فقضاء الشوف يتضمن اثني عشرة ناحية منها ناحية الشوفين وهي
تحتوي على اثنتين وعشرين قرية . وناحية الغرب الاقصى وتحتوي
على تسع قرى . وناحية اقليم الخروب وتحتوي على ٥٦ قرية . وناحية
العرقوب الاعلى وتحتوي على ٨ قرى . وناحية العرقوب الجنوبي وفيها
١٠ قرى والعرقوب الشمالي وفيها ١٤ قرية . وناحية الغرب الشمالي
وفيها ١٧ قرية . وناحية الغرب الاعلى وفيها ٩ قرى والجرد الجنوبي
وفيها ٢١ قرية والجرد الشمالي وفيها ١١ قرية والمناصف وفيها ١٨ قرية
والشحر وفيها ١٤ قرية . والجملة ٢٠٨ قرى وعدد النفوس التي تدفع
الاموال الاميرية في هذا القضاء ٢٣٩٨٣ نفساً وفيه ٧٧ مكتباً
للتعليم و ١٧ جامعاً و ٢٠ كنيسة و ١١٨ خلوة للدروز و ٧٠٩ دكاكين
و ١٥٧٣٩ بيتاً . وما برج هذا القضاء اهم الاقسية في متصرفية جبل
لبنان نظراً إلى كونه محيطاً بمركز متصرفية الجبل وفيه السكان المختلفة
الاديان والمشارب

وقضاء المتن فيه ٥٤ قرية تتعلق رأساً بمركز القضاء وناحية المتن
الاعلى وفيها ٤٨ قرية وناحية بسكنتا ١٠ قرى وناحية القاطع ٣٨

فصل

في بعض ايضاحات عن جبل لبنان

جبل لبنان سلسلة جبال وهضاب تمتد من منتهى السلسلة الغربية شمالاً حيث مديرية الهرمل الى اقصاها جنوباً حيث جبل الريحان وتتصل حدوده بشطوط البحر المتوسط غرباً على محاذاته طولاً ما عدا بعض المدن الكبيرة كطرابلس وبيروت وصيدا فانها منفصلة عنه سياسةً . ويحده من الجهة الشرقية سهل البقاع المشهور

ومجموع النفوس المكلفة فيه (اي التي تدفع الاموال الاميرية) ٩٩٨٣٤ نفساً واذا أضفنا إلى كل فرد اربعة كان عدد السكان التابعين لتصرفية لبنان نحو خمسمئة الف نسمة وربما زادوا على هذا العدد وقد تغير حال هذا الجبل ونظامه بعد حادثة سنة ١٨٦٠ ونال امتيازاً لم ينله مكان آخر سواه وذلك واضح من فرمان المدرج آنفاً الصادر في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٢٨١ للهجرة

واما المتصرفون الذين تولوا الحكم فيه منذ سنة ١٨٦١ إلى الآن فخمسة اولهم داود باشا ابتدأت مأموريته في ١٠ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦١ وبقي متصرفاً ٦ سنين و ١١ شهراً وتلاه فرانتو باشا في ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٨٦٨ فتوفي بعد اربع سنين وسبعة اشهر وعين بعده دولتو رستم باشا (سفير الدولة العثمانية الآن في لندن)

في ٩ مارس (اذار) سنة ١٨٧٣ وبقي متصرفاً عشر سنين وشهرين .
وخلفه واصله باشا في سنة ١٨٨٣ وتوفي في سنة ١٨٩٢ فخلفه دوانلو
نعوم باشا المتصرف الحالي

ويشتمل هذا الجبل على سبعة اقلية في كل منها عدة نواح .
وفي كل قضاء قائم مقام وفي كل ناحية مدير والمديرون يخابرون
القائمات والقائمات تخابر المتصرفية والمتصرفية تخابر الباب العالي .
فقضاء الشوف يتضمن اثني عشرة ناحية منها ناحية الشوفين وهي
تحتوي على اثنتين وعشرين قرية . وناحية الغرب الاقصى وتحتوي
على تسع قرى . وناحية اقليم الخروب وتحتوي على ٥٦ قرية . وناحية
العرقوب الاعلى وتحتوي على ٨ قرى . وناحية العرقوب الجنوبي وفيها
١٠ قرى والعرقوب الشمالي وفيها ١٤ قرية . وناحية الغرب الشمالي
وفيها ١٧ قرية . وناحية الغرب الاعلى وفيها ٩ قرى والجرد الجنوبي
وفيها ٢١ قرية والجرد الشمالي وفيها ١١ قرية والمناصف وفيها ١٨ قرية
والشحر وفيها ١٤ قرية . والجملة ٢٠٨ قرى وعدد النفوس التي تدفع
الاموال الاميرية في هذا القضاء ٢٣٩٨٣ نفساً وفيه ٧٧ مكتباً
للتعليم و ١٧ جامعاً و ٢٠ كنيسة و ١١٨ خلوة للدروز و ٧٠٩ دكاكين
و ١٥٧٣٩ بيتاً . وما برج هذا القضاء اهم الاقلية في متصرفية جبل
لبنان نظراً إلى كونه محيطاً بمركز متصرفية الجبل وفيه السكان المختلفة
الاديان والمشارب

وقضاء المتن فيه ٥٤ قرية تتعلق رأساً بمركز القضاء وناحية المتن
الاعلى وفيها ٤٨ قرية وناحية بسكنتا ١٠ قرى وناحية القاطع ٣٨

قرية وناحية الشوير ٥ قرى . والساحل ٢٤ قرية والجملة ١٧٩ قرية .
وعدد النفوس المكلفة فيه ٢٣١٩٥ وفيه مئة مكتب ومكتبان و١٧٤
كنيسة و ٣١ خلوة وجامعان وستمئة دكان و ١٠٣٩٣ بيتاً

وقضاء جزين يشتمل على ١٤٩ قرية منها ٦١ قرية تتعلق ادارتها
رأساً بمركز القضاء . ومنه اقليم التفاح وفيه ٣٤ قرية وجبل الريحان
وفيه ١٢ قرية . وعدد النفوس المكلفة فيه ٥٤٣٢ وفيه ٣٥ مكتباً
و ٨ جوامع و ٤٣ كنيسة و ١١٦ دكاناً و ٢٩٩٠ بيتاً

وقضاء الكورة فيه ١٠ قرى تتعلق رأساً بمركزه و ١٢ قرية في
ناحية الكورة الشمالية و ١٦ قرية في ناحية الكورة الوسطى و ١٢ قرية
في ناحية القويطع . وعدد النفوس المكلفة فيه ٥٩٩٧ وفيه ١٥ مكتباً
و ٦ جوامع و ٧٩ كنيسة و ٢٨٠١ بيت و ٨٦ دكاناً

وقضاء زحلة مركزه مدينة زحلة ويلحق بها عين المزرعة وعين
الدوق وعدد النفوس المكلفة فيه ٤١٤٦ وكنائسه ١٤ ومكاتبه ١٥
ودكاينه ٤٠٠ وبيوته ٢٠٠٠

واما دير القبر فخبارتها مع مركز المتصرفية رأساً يلحق بها سبع
قرى وعدد النفوس المكلفة فيها ١٣٥٩ وفيها ٧ مكاتب وجامع و ١٠
كنائس وخلوتان و ٢٩٤ دكاناً و ٩٩٣ بيتاً

وقضاء كسروان فيه قريتان تتعلقان رأساً بمركزه وناحية جبيل
وفيه مدينة جبيل و ٧٣ قرية تابعة لها وناحية المنيطرة وفيها ٣٢ قرية
وجبيل العليا وفيها ٢٤ قرية وناحية غسطا وفيها ١٩ قرية وناحية الزوق
١٠ قرى وناحية جرود كسروان ١١ قرية وناحية الفتوح ٤٨ قرية

وناحية جونيه ٦ قرى . و يتعلق بهذا القضاء رأساً قرية شمس طار
التي لها مأمور خاص . فعدد القرى ٢٢٦ وعدد النفوس المكففة فيه
١٩٨٤٠ وفيه ٣٥ مكتبة و ١١ جامعاً و ١٥٥ كنيسة و ٨٥٠ دكاناً
و ١٠٠١٠ بيوت

وقضاء البترون فيه سبع نواح وهي ناحية حصرون وتحوي على
٧ قرى وفيه اسكلة البترون و يلحقها ٤٣ قرية و ناحية قناة وفيها ١٧
قرية و ناحية أهدن ٢٢ قرية و ناحية بشرى ١٠ قرى و ناحية الزاوية
٢٤ قرية و ناحية تنورين ٢٦ قرية و ناحية الهرمل في اقصى لبنان عند
منبع العاصي . وعدد النفوس المكففة فيه ١٥٨٨٥ وفيه ٤٤ مكتبة
و ٥ جوامع و ١٨٣ كنيسة و ٣٦٤ دكاناً . ومجموع قراه ١٤٩ قرية
و بيوته ٧٨٠٧ بيوت

اما دخل حكومة الجبل فبقدر خرجها وهو يبلغ نحو ٣٧ ألفاً
و ٥٠٠ ليرة عثمانية توزع رواتب على المأمورين و ١٧ ألفاً و ٥٠٠ ليرة
عثمانية توزع على العساكر . وكانت رواتب العساكر فيما سلف تاتيهم
من الباب العالي اسعافاً للجبل فبطل ذلك الآن وصاروا يقتصدون من
رواتب المأمورين و يعطون العساكر فتخلص الباب العالي من دفع
الاسعاف و بقي الحال على ما كان عليه فلم يزد الدخل ولم ينقص الخرج
حسب روابط الجبل القانونية . ومعلوم انه لا يصيب الرجل المكلف
في لبنان اكثر من ١٥ غرشاً في السنة يدفعها إلى الحكومة . اما ما
يدفعونه عن العقارات فيكاد لا يذكر . ونعني بالمكلف الذي لا ينقص
عمره عن ١٥ سنة ولا يزيد عن سبعين . واما مسلمو لبنان فمعفون من ذلك الرسم

وعسكر الجبل وحكامه من اهل ولدا ترى نظامه احسن نظام
لرفقه بحال الاهلين والسكان

اما المحاكم في لبنان ففي كل قضاء محكمة ابتدائية مؤلفة من رئيس
وعضوين « قاضيين » وكتبة على قدر الحاجة ينصبهم جميعاً متصرف
الجبل ويعزلهم متى شاء. وهذه المحاكم مأمورة ان تحكم بالدعاوي الحقوقية
على ان ما كان منها دون الالفين والخمسمائة قرش فحكمها فيه لا يستأنف
بل يميز في محكمة التمييز بالاستانة العلية وما كان فوق ذلك اي فوق
الالفين و ٥٠٠ قرش فحكمها فيه يقبل الاستئناف في ديوان الاستئناف
الآتي ذكره ويقبل التمييز ايضاً. واما في دعاوي الجزاء فتحكم بالقباح
(والقباحة هي التي تعرف في مصر بالمخالفة) وهي التي لا يتجاوز الحبس
لاجلها اسبوعاً واحداً والجزاء النقدي مئة قرش حكماً لا يقبل
الاستئناف بل التمييز. وفي دعاوي الجنح يكون حكمها قابلاً للاستئناف
والتمييز . وليس لهذه المحاكم ان تنظر في الدعاوي الجنائية بل عليها
اتمام تحقيقاتها الاولى ورفع اوراقها إلى الهيئة الاتهامية التي سيأتي
ذكرها . وهذه التحقيقات يتولاها المستنطق المعروف في مصر بقاضي
التحقيق وهو احد اعضاء هذه المحاكم مع وكيل معاون المدعي العمومي
وهو باشكاتب احدى هذه المحاكم . اما وظيفة المستنطق فهي . أولاً
تحقيق ما يقع في القضاء من الجرائم الجنائية ورفع اوراقها بعد اتمام
التحقيق إلى الهيئة الاتهامية . ثانياً تحقيق ما يحال عليه من دعاوي
الجنح التي قد تكون غامضة فيحققها ويخرج قراراً اما بالمحاكمة او بعدمها
على ان قراراته خاضعة لرئيس المحكمة الذي له الحق بان يغير فيها وان

يأمر باعادة التحقيق ثانية . اما وكيل معاون المدعي فمأمور باجراء التعقبات العدلية في دعاوى الجنايات و باقامة دعاوى الجنح باسم الحقوق العمومية في المحاكم وكل حكم تصدره المحكمة في دعاوى الجنح لا يعتبر اذا لم يكن وكيل المعاون حاضراً عند تفهيمه

وفي مركز المتصرفية ديوان يسمى ديوان الاستئناف يقسم إلى دائرتين حقوقية وجزائية . وكل منهما يقوم برئيس وستة اعضاء يعينهم المتصرف ايضاً فدائرة الحقوق تنظر بوجه الاستئناف في ما يرفع اليها من الاحكام القابلة للاستئناف التي تصدر من المحاكم الابتدائية وهي تقوم في ذلك بوظيفة الهيئة الاتهامية في الدعاوى الجنائية أعني ان الدعاوى الجنائية لا تحال على دائرة الجزاء بعد ان تتم تحقیقاتها الاولية في القضاء ما لم يدق فيها اولا في دائرة الحقوق باعتبار كونها هيئة اتهامية فاذا رأت هذه الهيئة بعد مطالعة الاوراق ان الادلة التي اتي بها لاثبات ان المظنون مرتكب للجناية المنسوبة اليه انما هي ادلة يصح الاعتماد عليها أمرت بسوقه إلى دائرة الجزاء ليحاكم فيها وان لم يكن ثمة دليل او كان ولكن غير بالغ حد الكفاء اطلقت سراح المظنون به وقررت انه ما من محل لاجراء المحاكمة . واما الهيئات الاتهامية في سائر الولايات العثمانية فليست دوائر الحقوق بل دوائر الجزاء في محكمة اللواء الذي يكون مركز الولاية

اما دائرة الجزاء فتتفرق استئنافاً في احكام المحاكم الابتدائية المتعلقة بدعاوى الجنحة وتنظر بداءة في الدعاوى الجنائية على ان ما تصدره من الاحكام فيها يميز رأساً ورسمًا بلا طلب بمعنى ان الحكم

في دعاوى الجنايات لا يمكن وضعه في موضع الاجراء ما لم يميز ويثبت من محكمة التمييز بخلاف سائر الاحكام حقوقية كانت ام جزائية فان تمييزها وعدمه منوطان باختيار اصحابها

اما الرسوم التي يضطر المتداعون إلى تأديتها في محاكم لبنان فهي عبارة عن غرش واحد في المئة يؤدي ربعها عند فتح الدعوى وثلاثة ارباعها عند اعطاء الحكم وهذه الرسوم تسمى « خرج اعلام » واخص القوانين المعمول عليها في دعاوى الحقوق الكتاب المسمى « مجلة الاحكام العدلية » وهو مأخوذ عن الكتب الفقهية الاسلامية ولكنه يمتاز عنها باختصاره وبجزمه في المسائل المفتى بها وبسهولة عبارته فهو من هذه الجهة مضارع للكتب الافرنجية التي بمعناه . وقد علق عليه الشراح عدة شروح اقتبسوها من الكتب الفقهية وسهلوا بعضها وتركوا البعض الآخر معقداً

واما في دعاوى الجزاء فالمعمول عليه في المجازاة « قانون الجزاء الهاموني » واما « قانون اصول المحاكمات الجزائية » فيبحث فيه عن كيفية النظر في دعاوى الجزاء وعن وظائف المستنطقين والمدعين العموميين إلى غير ذلك وهذا الكتاب مترجم حرفياً عن القانون الفرنسي . وقد صادف القوم ويصادفون في تطبيق المعاملات عليه صعوبات جمة . انتهى .

هذا ما عن لنا تدوينه في هذا الكتاب والحمد لله أولاً
وآخرًا وباطناً وظاهراً

فهرست
کتاب حسر اللثام
عن

نکبات الشام

وجه	
۲	مقدمة
۳	تمهيد في ماضي الشام وحاضرها
۴	موقع الشام وحدودها الطبيعية
۴	اقسام الشام واسماؤها القديمة والحديثة
۵	مساحة بلاد الشام وعدد سكانها
۵	طوائف الشام ومساكنها
۶	المسلمون في الشام وتعدادهم ومحل سكنهم
۷	النصارى والبلاد التي يقيمون فيها وعددهم
۸	اليهود " " " "
۸	الدروز " " " "
۹	الطوائف الاخرى " " " "
۹	مناظر الشام الطبيعية وجبالها وانهارها وبحيراتها وغير هذا
۱۰	حاصلات الشام وحيواناتها ومعادنها
۱۱	مصنوعات الشام على اختلاف انواعها
۱۱	المعارف والمدارس الاجنبية والوطنية فيها

وجه	
١٢	في ذكر اشهر مدارس الشام
١٣	مهاجرة السور بين إلى البلدان الاخرى واسبابها
١٣	في بيان الولايات السورية واقسامها
١٤	وصف بعض المدن البحرية في الشام مثل مرسين واسكندرونة وطرابلس وبيروت وصيدا وصور ويافا وحيفا وغيرها
١٦	مدن الداخلية مثل انطاكية وحلب وحمص وحماء ودمشق والقدس ونابلس وغيرها مع مدن لبنان المشهورة وتاريخ كل منها بالاختصار
٢٢	حكومة الشام قبل مذابح سنة ١٨٦٠ وبيان مقاصد السلاطين العظام فيها واجتهادهم في انصاف الرعية
٢٥	ايلات الشام او ولاياتها مع ذكر ما يهم عنها وعن كيفية تقسيمها وتنصيب العمال فيها
٢٦	المتسلطات واوضح امرها
٢٧	حكام الجبال قبل سنة ١٨٦٠ وكيفية تعيينهم واهم اعمالهم وذكر بعض مشاهيرهم
٢٨	كيفية جمع الاموال الاميرية
٢٨	في حالة المدن وحكامها وما انتابها من الاخلال وما لحق بأهلها من الظلم والاهانة
٢٩	سياسة بعض الولاة وعملهم على توليد العداء بين اصناف الرعية لاضعاف الاهالي

وجه	
٣٠	في امور الولاة وعسف بعضهم والطرق التي كانوا يستعملونها لاذلال النصارى واضعافهم
٣١	اسباب القلاقل والمذابح وبيان انواع الجنود العثمانية وكيفية سيرها مع الاهالي
٣٣	وجاقات العساكر العثمانية ووصف حالها ونفوذها وكيفية معاملتها للاهالي
٣٤	في فئة المعتزمين وشرح حالها وفعالها ونواذر البعض من افرادها
٣٦	انتشار التعصب الديني في البلاد واسبابه
٣٧	حالة النصارى في المدن السورية قبل حوادث سنة ١٨٦٠
٣٨	تسخير النصارى واذلالهم وسوء معاملتهم
٤٠	اموال الذميين في تلك الايام وكيفية اخلاصها منهم
٤١	الضرائب الاخرى التي كانت تفرض على النصارى
٤٢	مرارة الحياة وصعوبتها على النصارى في تلك الايام
٤٣	منشور درويش باشا وفيه بيان حال الحكومة التركية ورغبةها في اذلال النصارى
٤٥	ارتقاء حال النصارى في ايام ابراهيم باشا المصري
٤٦	تحسين الحال من بعد الاحتلال المصري وصدور الفرمان السلطاني القاضي بالمساواة والعدل مع صورة هذا الفرمان
٤٩	عود الحكم بعد هذا إلى العسف والجور
٥١	في اصل الدروز وتاريخهم بالاختصار وفيه تاريخ الحاكم بأمر الله طوًلاً

وجه	
٦٢	في اصل الموارنة وتاريخهم بالاختصار
٦٣	في حكام لبنان من الموارنة وذكر اشهر عائلاتهم ونوابغ الذين حكموا منهم
٦٥	احوال جبل لبنان وتاريخه إلى سنة ١٨٦٠ ونوع حكومته
٧٠	في ايام ابراهيم باشا والاحتلال الانكليزي الذي تلاها
٧٣	عود الاتراك إلى السعي في جعل جبل لبنان ولاية تركية
٧٤	ذكر الامير بشير وبعض اعيان لبنان
٧٥	سعي اكليروس الموارنة في اكتساب السلطة وهياج الدروز عليهم
٧٦	مساعدة فرنسا لأكليروس الموارنة واشتداد الازمة
٧٧	تداخل القناصل وتعاضل الحال بين الدروز والنصارى
٨٠	اشتداد الهياج واستعداد الطائفتين للقتال
٨١	معركة دير القمر في سنة ١٨٤١ وتداخل الكولونل روز وفصل انكلترا واتمام الصلح بين الدروز والنصارى مع بيان عدد القتلى والخسائر
٨٤	عود الدروز الى القتال ومحاصرة دير القمر
٨٧	مخابرة القوم في الصلح وطرد الامير بشير يوسف من دير القمر واهانة الدروز له
٨٩	بيان القتال في سنة ١٨٤١ بين الدروز والنصارى في القرى الاخرى

- وجه ٩٢
في ان الحكومة التركية حرّضت الناس على القتال وواجبت
تداخل القناصل
- ٩٣
مجل في اعمال شبلي العريان
- ٩٥
قتال النصارى والدروز في البقاع وما يليها
- ٩٧
هجوم الدروز على زحلة وحكاية موقعتها ونجاح اهل زحلة في
رد الاعداء عنهم
- ٩٩
انتهاء حرب ١٨٤١ الاهلية وبيان نتائجها
- ١٠١
تصيب عمر باشا والياً تركياً على لبنان وبيان مقاصد دولته
وغاية حكومته
- ١٠٢
في الطرق التي استعملتها الحكومة التركية لتظهر لاوروبا ان
اهل لبنان رضوا عن حكمها
- ١٠٤
صورة الاوامر التي اصدرتها حكومة الاتراك لأكراه الناس
على الختم في مدحها
- ١٠٥
في بيان السياسة التركية وغاية الاتراك في البلاد التي يحكمونها
- ١١٠
قيام الدروز على عمر باشا في سنة ١٨٤٢ ومجاهرتهم بالعصيان
وانكسارهم
- ١١٢
بيان الحرب بين الدروز وعساكر الدولة وهرب شبلي العريان
إلى دمشق
- ١١٥
في عزل عمر باشا الوالي التركي وتعيين والٍ من الدروز
ووالٍ من النصارى على جبل لبنان

وجه

١١٦ تنافس الدروز والنصارى بتحريض الاتراك وعود الطائفتين إلى القتال

١١٨ في الحرب الاهلية سنة ١٨٤٥ ووقوع اكثر الخسارة على النصارى

١٢٢ في عود النظام الى جبل لبنان بعد الحروب

١٢٣ الاسباب التي ادت إلى مذابح سنة ١٨٦٠

١٣٣ في حوادث سنة ١٨٦٠

١٣٤ حادثة بيت مري الاولى في سنة ١٨٥٩

١٣٧ استعداد الطائفتين للحرب ومخابرة الحكومة التركية مع رؤساء

الدروز في الامر بقصد ابادة النصارى

١٣٩ معركة عين دارا

١٤٠ قيام دروز حوران لنجدة اخوانهم في لبنان بناء على طلب

سعيد بك جنبلاط

١٤٢ حاصبيا — وصفها وتاريخها

١٤٥ حاصبيا — مذبحتها مع ذكر التفاصيل

١٥٨ مجموع قتلى حاصبيا وخسائرها

١٥٩ راشيا — وصفها وتاريخها

١٦٠ راشيا — حكاية مذبحتها بالتفصيل

١٦٩ دير القمر — طرف من تاريخها وتفصيل مذبحتها الهائلة

ونتائجها المكربة

- وجه
- ١٨٩ مذابح المتن والساحل واشتراك عساكر الاتراك فيها تحت قيادة خورشيد باشا
- ١٩٩ في ما اصاب صيدا سنة ١٨٦٠ اقيام المسلمين والمتاولة لمساعدة الدروز
- ٢٠٧ وصول الاساطيل الاوربية إلى بيروت
- ٢٠٨ في مذابح القرى المحيطة بصيدا
- ٢١٠ في واقعة زحلة ومذبحتها
- ٢١٦ في الذي اصاب بيروت وضواحيها عام ١٨٦٠
- ٢٢٠ في ان سعي القناصل بابطال هذه المجازر لم يقد شيئاً
- ٢٢٢ في مذبحه دمشق وفضائعها المنكرة وبيان اسبابها وعلاقة الوالي احمد باشا بها ومجاهدة القناصل والامير عبد القادر في حفظ الامن وحدث المذبحة ونتائجها الفظيعة
- ٢٣٥ بيان عدد القتلى والخسائر في مذابح سنة ١٨٦٠
- ٢٣٨ في الذي تم بعد هذه المذابح . تحرك اوروبا وعقد المؤتمر في باريز وبعض قراراته
- ٢٤٠ في سياسة الاتراك بعد هذه المذابح وبيان ان الذي حصل كان باغرائهم
- ٢٤٢ قرار الامم الاوربية وقيامها لطلب العدالة وبيان الطرق التي عولت على استعمالها
- ٢٤٤ فوائد باشا ومهمته وسياسته في البلاد بعد هذه الحوادث وتلاعبه بالعدالة وبيان اساليب غدره ومكره بالتفصيل

وجه

٣٥٢ احتلال الجيش الفرنسي و خلاصة اعماله في بلاد الشام
و خروجه

٣٥٥ مؤتمر بيروت و وقائعه و قراراته

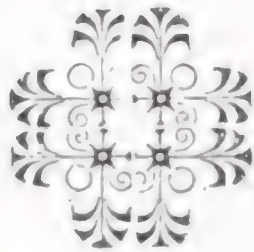
٣٥٧ فوز فؤاد باشا بنزع السلطة من يد المؤتمر و احوالها على الباب
العالى

٣٥٨ خلاص القاتلين من الدروز من نتيجة ما فعلته ايديهم

٣٦٠ اقرار الدول على نظام لبنان الحالى

٣٦١ ترجمة نظام جبل لبنان

٣٧٠ بعض ايضاحات عن جبل لبنان و تعداد اهله و اقضيته و محاكمه
و كيفية تنصيب العمال فيه و غير هذا مما تمم معرفته



ملحق

بعد الانتهاء من طبع كتاب حسر الشام عن نكبات الشام وتوزيع قسم منه ارسل اليها فاضل من الذين لم المام تام بحوادثه الملاحظات الآتية لاضافتها اليه عند اعادة طبعه ولما كان القصد بيان تاريخ صحيح لحوادثه اصدرا هذه الملاحظات في ملحق واضفناه على النسخ الباقية منه

قد اطلمت على المؤلف المسي بحسر الشام عن نكبات الشام فظهر لي منه ان حضرة المؤلف اختصر في بعض الاماكن ووقع بعض اغلاط في كتابه والامل ان يصلحها في الطبعة الثانية وبما اني من المظلمين على احوال لبنان وقد اخذت اخبار حوادثه في سنة ١٨٤١ عن مصادر موثوق بها واما حوادثه في سنة ١٨٦٠ فقد عرفتها بنفسي وحضرت اكثر حروبها واخذت ما لم اشاهده بنفسي عن اهل العارفين الموثوق بهم وكنت من جملة الاشخاص المختارين لمقابلة فؤاد باشا ومعتدي الدول العظام وشكوى حالنا اليهم والمطالبة بحقوق المسيحيين وقصاص المجرمين منية الحصول على ذلك بواسطتهم وكان لا يمضي وقتئذ علي وعلى رفقائي يوم في بيروت لا تقابل فيه فؤاد باشا او احد معتدي الدول وعليه اتيت بهذه العجالة تعميما للفائدة

ان القدس الشريف ليس بولاية كما جاء في صفحة ١٩ وانما هو متصرفية كان من ملحقات ولاية سوريا ثم فصل عنها وبقي متصرفية على حاله مربوطة بمخابراته بالباب العالي رأساً نابلس هي متصرفية ايضاً كانت تابعة لولاية سوريا ولما تشكلت ولاية بيروت مؤخراً ألحقت بها ولم تتبع متصرفية القدس ابداً كما جاء في صفحة ٢٠ اما طبريا وصفد والناصرية فهي ثلاث قائممقاميات من ملحقات متصرفية عكا الملحقة بولاية بيروت وكانت تابعة من عهد بعيد لعكا حين كانت ولاية ولم تفصل عنها قط لقرىها اليها

ان الامير بشير عمر الشهابي ولد نصرانياً اما الذي تنصّر فوالده الامير عمر الا انه كان يتظاهر بالاسلامية وبقي متظاهراً بها حتى فتح المرحوم محمد علي باشا سورياً (انظر صفحة ٦٦) ان الدول التي ارسلت عمائرها لاستخلاص سوريا من الدولة المصرية وارجاعها لدولة تركيا هي انكلترا وروسيا والنمسا (صفحة ٨٠)

ان دير القمر كانت في مدة الامراء المعنيين والشهابيين هي المدينة الوحيدة ببلدان ولوجودها مركزاً للحكومة قد تقدمت كثيراً بالعلوم والصنائع والمنسوجات والتجارة وقد نبغ منها كثيرون ونالوا شهرة لم ينلها غيرهم ببلدان مثل المرحومين جرجس باز وعبد الاحد باز وميخائيل مشافة واقاربته وعمون بك يوسف وبشاره افندي نحول وخطار افندي ثابت وكثيرين سواهم لو ذكرناهم فرداً

فرداً لطلال بنا الشرح وشي حتى الآن مركز حكومة لبنان ومع
تفرق اهاليها ايدي سبا بعد سنة الستين وخسرانها بجارتها واكثر
صنائعها لم تزل المدينة الاولى بلبنان وهاك اصل مبداءها

كانت دير القمر غاباً عاصياً مأهولاً بالثور والدئاب فصدف ان
احد الامراء المعنيين بحكام جنوبي لبنان بينما كان - يصطاد في الغاب
(الحرش) المذكور عثر على نبع ماء زلال خارج من صخر محبوب عن
الابصار بكثافة الاشجار ومضاعف النبت العميم فاخبر بذلك كبيرهم
الامير فخر الدين وكانت بعقلين مركز حكومتهم خالية من الماء
الجاري وبها آبار يستقون منها فقابل الامير فخر الدين هذا النبأ
بالسرور وشرع في بناء دير القمر واستجلاب الاهالي من دروز
ونصارى وملكهم بها الاراضي مجاناً عادة كل من احدث بلدة او
مدينة ترغيباً للاهالي على ترك محلات سكناهم وتوطن المحل المحدث
فحضر لهذا السبب بعض النصارى من بلاد جبيل وغيرها لسكن
دير القمر وما كان يترك شمالي لبنان من النصارى وباتي جنوبية
الا من كان شجاعاً لايهاب الموت فاتخذهم آل معن من رجال حربهم
وقبل ان ينهي الامير فخر الدين عمار دير القمر اتاه خبر من اخيه
زوجة حاكم عكار تشكو اليه زوجها الذي اهانها وشمته لافتخارها
به ومن جملة الشتمة قوله بمن تفتخرين اباخيك الذي انت وقعت
البيضة من استه الى الارض لا تكسر وكان أمير عكار شجاعاً كبير
الجملة فاخذت من فخر الدين الحدة كل مأخذ وجمع رجاله وكتب
الى امير عكار كتاباً من جملة ما يقول قيد - حقيق انا صغار صفار

لكن في عيون العدا كبار انتم خشب حور نحن للخشب منشار وحق
 طيبا وزمزم والنبي المختار ما بعمر الدير الا من حجر عكار فتجهز
 للحرب انا موافوك اليها . ثم توجه اليه بعساكره فالتقاه امير عكار
 عند آخر بلاده ولما تقابل الجيشان انتشبت بينهما نار القتال وبعد
 حرب حامية استقامت ساعات دارت الدائرة على الامير فخر الدين
 فتقهقر برجاله وكان في الساقة رجل نصراني اسمه عزام الخوري
 اصله من مشمش في بلاد جبيل من عائلة خوري فيها وكان من مقدمي
 رجال فخر الدين فوصل برجوعه الى عقبة قد حصنتها الطبيعة فالتجأ
 اليها مع ستة من رجاله واتخذوها لم حى واصلوا عساكر عكار
 منها نارا حامية واوقفهم عن لحاق عساكر فخر الدين الذي لما
 عرف بفعل عزام وانقاره (وهو لاء قد اشتهروا بسبعة فخر الدين)
 رجع بعساكره وهجم على رجال عكار وبعد حرب حمي وطيسة قتل
 امير عكار وكسر رجاله وهدم منازلهم ونقل حجارها الى دير القمر
 ووضعها في سرايات بيت معن وهذه الحجار صفراء وحمرات لا
 يوجد مثلها في جبل لبنان وهي باقية حتى الآن ولم ينس الامير بعد
 رجوعه عزام الخوري بل استحضره لديه واوسعه شكرا وانعم عليه
 باملاك في دير القمر والعرقوب وسماه عزام ثابت وبني له بابا لداره
 ووضع في اعلاه مثال سبعين من حجر وامر بان ينشر العلم المعني كل
 يوم اربعاء من كل سنة على بابه وانعم ايضا على جماعته الستة وهكذا
 كانت نصارى دير القمر رجال حرب لدس الامراء المغنيين
 والشهابيين والشايخ النكديين ولهم اعمال كثيرة نظير هذه واعظم



منها اجزأت بهذه للاختصار وكانوا دائماً اكثر من الدروز في
دير القمر ولم يكونوا قط اجراء عند احد

قال ما معناه ان الموارنة وبطاركتهم كانوا يجوزون قتل
المراطقة ومن كان على غير مذهبهم ويهدمون مدارس البروتستانت
ويغتصبون كنائس الروم الارثوذكس وان بطرك الموارنة مات
وعقبه آخر لم يعرف عاقبة التهور مثل الذي سبقه الى آخر ما ذكر
بهذا الباب وان النصارى من غير الموارنة اتحدوا مع الدروز
بجروبهم لرفع ظلم الموارنة عنهم (كل هذا خطأ) والامل اصلاحه
في الطبعة الثانية

واما ما نسبة للسعيد الذكر البطريرك بولس مسعد فلم يكن له شبه
حقيقة لانه كان على غير هذا المبدأ وكان يأنف من الحروب
وطالما نصح المتداخلين فيها بالانكفاف عنها وكان رحمه الله اكثر
الناس مودة ونجدة لطائفة الروم وهذا مشهور والظاهر ان حضرة
المؤلف اراد ان يقول المطران طويلاً فقال البطريرك غاطاً سامحاً
الله نعم ان المرحوم المطران طويلاً كان له يد بجروب سنة ٦٠
وكان ينشط النصرانية وهذا لما قطع الامل من اصلاح الحال وتيقن
ان لا مندوحة من وقوع الحادثة ولما رأى ان مخبراته مع مسيو
بنتفوليو قنصل جنرال فرنسا لوقاية دماء النصرانية من الهدر لم تنجد
نفعاً (انظر صفحة ١٣٠)

ومن جهة ما ذكره المؤلف عن طرد مشايخ آل خازن من
كسروان فلو علم كيف كانت تصرفات بعضهم مع الاهالي لما عد ذلك

من جملة المظالم فقد كانت هذا البعض مسلطاً على المال والعرض
والدم ومتى ثارت الثائرة ذهب البريء ضحية المجرم وان شبت النار
نفخت اليباس والاخضر

بيان حوادث سنة ١٨٤١ واسبابها

كان امراء ومشايخ الدروز في جنوبي لبنان هم اصحاب
الاقطاع فكان امراء آل ارسلان يحكمون الغرب الاسفل ومركز
حكومتهم الشويفات وآل تلحوق الغرب الاعلى ومركز حكومتهم
بيصور وآل عبد الملك الجرد والمركز بتاتر وآل نكد المناصب
والشمار والمركز دير القمر وآل جنبلاط الشوفين والاقاليم اقليم
جزين والخرنوب والتفاح وجبل الريحان والمركز المختارة وآل عماد
العرقوب الاسفل والمركز كفر نبرخ ثم نقله خطار بك العماد الى بربح
وآل عيد العرقوب الاعلى والمركز عين زحلنا ثم نقله الشيخ محمود
عيد الى اغميد وكان يحكم مشايخ آل خوري جرد انصارى والمركز
رشياً ونقله غندور بك السعد الى عين تراز وكانت المشايخ
المذكورون يحكمون الدروز والنصارى تحت امرة الحكام من المعنيين
والشهابيين بدون النفات الى المذاهب وكان الدروز والنصارى
يطيعون مشايخهم طاعة عمياء بدون النفات الى المذاهب ايضاً وكان
اذا حدث اقل حادث بين الدروز تنقسم النصرانية على بعضها وكل
فريق منها يتحد مع حزبه ويحارب الآخر وكانت المشايخ يقاصون
المعتدي من اي طائفة كان بلا فرق والبرهان على ذلك ان

رجلاً درزياً من كفر حيم (بلدة تبعد ثلاثة ارباع الساعة
 عن دير القمر) واولاده الاربعة اشتركوا بقتل رجل مسيحي من
 دير القمر فتوجه الشيخ كليب نكد بنفسه مع عشرين من رجاله
 الى كفر حيم فهرب المجرمون فتابعهم الى محل خارج كفر حيم
 يسمى بيدر الرمل واذ لم يتمكن من القبض عليهم وخوفاً من عدم
 وقوعهم بيده امر رجاله باطلاق الرصاص عليهم فقتل خمسة ودام
 الامر على هذه الحالة حتى قدمت العساكر المصرية تحت قيادة البطل
 الشهير ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر وفتحت سوريا ففر
 من مشايخ الدروز من فر ملتجئاً لعساكر الدولة العلية ومن لم يفر
 ارسل لمصر كسعيد بك جنبلاط وملك بك العماد وملك بك حماده
 ومكثوا جميعهم خارج لبنان حتى اتت عمائر انكلتره وروسيا والنمسا
 والدولة العلية سنة الاربعين بعد الثمانئة والالف واخذت سوريا
 من حكومة مصر وارجعتهما للدولة العلية وارسلت الامير بشير
 عمر الشهابي وعائلته الى مالطه واقامت حاكماً للبنان خلفاً له الامير
 بشير قاسم واما الامير الذي كان من خاصته وبمعينه فهو الامير
 محمود سلمان الشهابي من امراء وادي شحور وليس من احفاد
 الامير بشير عمر فخفيدة الامير محمود ابن الامير خليل توجه بمعيته
 الى مالطه ومن ثم ارجعت مشايخ الدروز الى اقطاعها فرأوا من
 النصاري غير ما كانوا يعهدونه من الطاعة لم واشتموا منهم رائحة
 التمرد فعدوا ذلك مروفاً عن الطاعة وقد زاد الطنبور نفحة سقاء
 الامير بشير واحنقاره لم وذلك ما لم يعتادوه من اسلافه فاخذت

الامور تتعاضم بمداخلة اهالي دير القمر في شؤون مشايخ الدروز باقطاعهم ومساعدتهم للنصارى المختلطة من جميع الطوائف النصرانية بدون استثناء ولم تزل الامور تتعاضم حتى اوائل تموز (يوليو) من سنة ١٨٤٠ المذكورة وفي هذا الحين توجه يوسف بن صالح افرام البستاني من دير القمر الى بعقلين (بلدة تبعد نصف ساعة عن دير القمر من مقاطعة الشوف السويجاني من مقاطعات سعيد بك جنبلاط ولا علاقة بها لآل نكد) فاصطاد حجلاً (انظر وجه ٨٠) بقرب مطعمة مصنوعة لصيد الحبال وهي لآل حماده من بعقلين وليس لآل نكد فحضر بعض الجهال وضربوه ووصل الخبر الى دير القمر بان الدروز قتلوه في بعقلين فتوجه بعض اهاليها مدججين بالسلاح للتحقق من الامر فالتقاهم جمهور غفير من دروز بعقلين خارجها فانتشب بينهم الحرب واثت نجدات للمتحاربين من الفريقين وبعد مقاومة شديدة كسرت الدروز ودخل اهالي دير القمر بعقلين منتصرين فقاتلهم النساء باول البلدة مستجيرات فارتد اهالي دير القمر راجعين الى بلدتهم ومن ذلك الحين اخذ رؤساء الدروز في المخابرة مع بعضهم لوضع حد لهذه الاعمال وذل النصرانية وارجاعها الى ما كانت عليه سابقاً من الانقياد والطاعة لهم ورأوا ان هذا لا يتم لهم الا بعد قتل الامير بشير قاسم وبعض ذوات من دير القمر الذين يتداخلون باعمالهم ويمجرون النصارى على مخالفتهم فتقرر ذلك بينهم واخذوا بمخابرة الامير بشير لعمل جمعية في عين السوق وهذه يحيط بها سهل واسع (بالنسبة لسهول

(الجبل) من اراضي السمقانية التي تبعد عن دير القمر ثلاثة ارباع الساعة يجمعون اليها وجهاء الدروز والنصارى لاجراء المصالحة بينهم وكان مشايخ الدروز قد طلبوا من مشايخ آل نكد ان يكون الاجتماع في خلوات دير القمر فلم يقبلوا خشية وقوع حادث من اهالي دير القمر وبالاخص لانهم ما كانوا يرغبون سوى قتل الامير بشير وبعض ذوات دير القمر الذين كانوا حجر عثرة في طريقهم وقد تعين الاجتماع صباح يوم الاربعاء في ١٤ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٤١ وفي اليوم المعين اجتمع الدروز في عين السوق واستعد الامير بشير والمشايخ النكديّة ووجوه دير القمر المدعوين لموافاتهم وبعد ان ركبوا خيولهم حضر اليهم مخبر واخبرهم بسر المسألة فلم يصدقوا الخبر ولبثوا مصرين على التوجه فاتي جمهور من الشبان وانزلوهم قسراً عن خيولهم فلما رأى النكديّة ان قد كشف الستر عن الحقيقة ولم تسمح لهم كبريائهم بالبقاء على الحالة التي كانوا يعدونها تعيسة بالنسبة لماضيهم جازفوا بما كانوا يدعونه حقوقاً لهم مكرسة واسرعوا باخبار رؤساء الدروز المجتمعين في عين السوق واستدعواهم الى دير القمر لقصاص الامير واهاليها وفي هذه الفترة اجتمع عموم وجوه دير القمر في انطوش كنيسة سيدة التلة ليروا فيما يجب عمله لدفع طوارئ الاحوال الجارية وبعد مناقشات طال امرها قال انطون ثابت المشهور بابي دهام ان اجتماع مشايخ الدروز ومعهم جماهير من رجالهم في عين السوق يخشى منه سوء العاقبة فاحسن شيء الآن هو استعداد النصارى على اسلحتها وننظر من بعد فيما

يجب عمله وان بقينا على ما نحن عليه من المحاورات اخذنا على غفلة فلم يقبل رايه فخرج من بينهم غاضباً وتوجه الى خارج دير القمر من الشرق الى محل يكشف ظهور السماوية فنظر الدروز قادمين الى دير القمر افواجا افوجاً من جميع الجهات المكشوفة له فرجع ركضاً وهو بسن يقارب التسعين سنة وبوصوله الى راس ساحة الميدان محل اشغال الاهالي صاح باعلى صوته الجمهوري سلاحكم يا اهالي دير القمر ذبحتم نفقت المقاتل واسرع الاهالي الى السلاح فلما رأى نصيف بك والشيخ حمود نكد هذا العمل اسرعا برجالهما من دروز الشحار والمناصب الى محل يسمى ساحة النكدية تجاه ساحة الشالوط المنسوبة لمياه شرب دير القمر المسماة شالوط لمنع اهالي حارة الدلفاني غربي دير القمر من الوصول الى السلاح وبينما كان بطرس عميل احد النصاري مسرعاً لاخذ سلاحه اعترضه درزي لمنع من الوصول اليه فاخذ منه بارودته واطلقها عليه فقتله وهذه الفعلة وقفت الدروز عن اتمام ما ينوون ومكنت الاكثرين من العبور لاخذ السلاح فوصلوا اليه وباشروا نقل حريمهم واولادهم الى حارة الخندق حيث يسهل الدفاع لاجتماع بيوتها وضيق دائرتها فاجتمع الاهالي من المسيحيين في حارة الخندق وسراي الحكومة وحارة بطرس الجاويش بعد ان قتل منهم نحو اربعين قتيلاً ثم وصل الدروز القادمون من الخارج وبرزقتهم بعض النصاري المختلطة من جميع الطوائف الذين كانوا حضروا معهم للاجتماع في عين السوق واذا ذاك دارت رحى الحرب بين الفريقين وكان عند

ما بهجم الدروز من جهة ما بقصد الدخول الى الحارة المذكورة
يخرج اليهم الموجودون من النصارى في تلك الناحية حامية لها
كلاسود الكاسرة فيرجعونهم مدحورين خاسرين ويرجعون الى
تحصيناتهم خوفاً من هجوم فرقة اخرى تستولي عليها وفي الليلة
الاولى نهب الدروز وحرقوا جميع المعلات التي اخلتها النصارى ولم
يبق من حوانيت البلد ومغالقها سوى قسم صغير لا يذكر من سوق
الميدان المحل المكشوف للاستحكامات ولبثت الحرب دائرة على
هذا المنوال بين الفريقين خمسة ايام بلياليها والنساء يأخذن
الماكولات والمشروبات والبارود والرصاص الى المتاربس لرجالهن
واخوانهن واولادهن وبلغت قتلى الدروز في الايام المذكورة نيف
وخمسائة قتيل منها خمسة عشر من المشايخ منهم اربعة من العماديين
(وجه ٨٢) الذين قتلوا في دير القمر لا في بعقلين كما جاء في الكتاب
واكثر من ضعف هذا العدد جرحى وقتل من المسيحيين نحو مائة
وخمسين منهم الذين قتلوا قبل الحرب وجرح نحو ثلاثمائة وبعد
هذا توقف الدروز عن المهاجمة واكتفوا بحصر اخصامهم وامتنعت
النصارى عن الخروج من البلد لضعف الحامية بعد ان قتل من قتل
وجرح من جرح ودام الحصار نحو تسعة عشر يوماً اي لغاية اليوم
الرابع والعشرين من بداية الحرب والمخابرة بالتسليم دائرة لا تنقرر
على وجه حتى لم يعد عند المحاصرين ما يأكلون ونفذت مهماتهم
الحربية ببعض مناوشات كانت تحصل حيناً بعد حين فقبل النصارى
بالتسليم لمشائخهم على ان يكونوا امينين على مالهم وحياتهم (ولم يذكر

العرض لعدم الخوف عليه من جهة الدروز لان حفظه من قواعد
 الدين عندهم (وجه ٨٤) وعلى ان يكونوا خاضعين مطيعين لا واصر
 ناصيف بك والشيخ حمود نكد ومن يخلفهما كسابق امرهم قبل دخول
 العساكر المصرية سورياً ولما تقرر الحال على هذا سلموا اسلحتهم
 للشيخين المذكورين اللذان ذبحا بعد ذلك اربعة عشر رجلاً وحبسا
 كثيرين من ذوي الثروة لاستنزاف ثروتهم ولم يحصل حريق ولا
 نهب بعد التسليم انما ذلك كان باول الحرب كما سبق ذكره ولم
 يتعرض احد الدروز للحريم كلياً وهذه من جملة عوائدهم الحميدة
 والمناوشات التي حصلت بين النصارى والدروز خارج الدير كانت
 لا تستحق الذكر وكانت قبل التسليم بقصد رفع الحصار عن دير
 القمر والوصول اليها فلم ينجحوا ولم تأت محاولاتهم بفائدة وعند ما
 انتهى الدروز من دير القمر قرروا التوجه لمحاربة زحلة (وجه ٩٥)
 وقد كان اهلها احتاطوا بمعاودة الامراء الخرافشة على مساعدتهم
 لرد غارة الدروز عنهم ووعدوهم بان تكون زحلة حمية لهم عند الحاجة
 وقد تم هذا الامر بواسطة الجمدوني المشهور بالشجاعة والاقدام
 وكان اذ ذاك كاخيه الامير سلمان الحرفوش فاتي اليها الامير سلمان
 وبعض بني عمه مرفوقاً بخيله ورجله من البعلبكية الشجعان فكسر اهالي
 زحلة بمساعدتهم الدروز شر كسرة ولو لم يخش اهالي زحلة من ان
 تكون كسرة الدروز خدعة لهم لنالوا منهم اكثر مما يظن وقد رجع
 الدروز لمخالاتهم والخوف ملء قلوبهم وبالحقيقة ان الخرافشة الفضل
 ليس على زحلة فقط بل على كافة النصرانية في جنوبي لبنان لانه لولا

انكسار الدروز في زحلة لكانوا أذلوا النصرانية لدرجة متناهية
بعد فوزهم السابق على اهالي دير القمر

حوادث سنة ١٨٦٠ واسبابها

ان وامي باشا والي بيروت سابقاً ومن خلفه من الولاة طلبوا
بالتتابع من المرحوم الامير أمين ارسلان قائم مقام جنوبي لبنان ان
يشير الدروز على النصاري فيفوز عليهم بمساعدة العساكر الشاهانية
ويمحي آثارهم وان هذه خدمة تذكر فتشكر ينال عليها جزيل
المكافأة وكان الشيخ حسين تلحوق وبعض الذوات من الاسلام
في بيروت يحنونه على القبول وهو رحمه الله يعير جميع اقوالهم اذناً
صماء فبعد موته تعين ابنه الامير محمد قائم مقاماً لجنوبي لبنان خلفاً له
فاغراه خورشيد باشا والي بيروت وقتئذ على القيام بذلك العمل
وشوقه اليه الشيخ حسين تلحوق وبعض ذوات الاسلام في بيروت
فلبى الدعوة وبث روح الشر في رؤوس اصحاب الاقطاع من
مشايخ الدروز وكان اكثرهم ميالين لهذا الامر فعقب ذلك حادثة
بيت مري وتلتها حوادث سنة الستين المشهورة فابتدأت بحصول
بعض مفايرات من سلب وقطع طرفات ثم قتل ثلاث اشخاص من
طائفة الدروز في البوشرية فقتل الدروز في عيذاب وهبه ابا شمعون
من ضابطية دير القمر اذا كانت عائدة اليها مع فرقة من عساكر
الدولة العلية فانقطعت المواصلات ولم يمض وقت حتى احتاج اهالي

دير القمر الى القوت فأرسل لهم كبة من الخنطة من بيروت
 بواسطة قناصل الدول وبقي هذا الحال على ما هو عليه من سلب
 ابناء السابلة والمغايرات حتى حضر نحو خمسمائة رجل من كسروان
 الى قرية بعبداهم من اصل سبعة او ثمانية آلاف رجل كانت
 اجتمعت لمساعدة النصرانية فلم يتعد منها نهر الكلب حدود كسروان
 سوى هذا العدد وكان حضورهم بمساعي الطران طويلاً الذي قطع
 الامل من اصلاح الحال وعند وصولهم الى بعبداه خرجت العساكر
 من قشلة بيروت الى الحازمية وطلب خورشيد باشا والي بيروت من
 سيادته ارجاع من حضر وتعهده بكف الدروز ومنع وقوع ادنى
 حادث منهم فأرسل سيادته بعض ذوات من الطائفة المارونية منهم
 منصور افندي التيان وبشارة افندي فرعون الى بعبداه بكتاب منه
 الى الامير قيس ملحم شهاب يطلب فيه منه صرف رجال كسروان
 ومن كان موجوداً في بعبداه من اهالي دير القمر والعرقوب
 وارسلهم لكرسيه في بيت مري فصرفوا اليها وبعد مضي ثلاث
 ساعات من انصرافهم نزل دروز الغرب الاعلى مع آل تلحوق الى
 وادي شحور فحرقوها وقتلوا من قدروا على لحاقه من اهله ومنها
 اتوا بطشيه التي جميع اهاليها من طائفة الروم الارثوذكس
 (المتحددين مع الدروز على زعم المؤلف) فاصابها ما اصاب وادي
 شحور ومنها تقدموا الى بعبداه وبعد مقاومة ضعيفة هرب من كان
 باقياً من اهاليها اذ كانت العدد الاكبر منهم واكثر الحريم قد
 توجهوا الى بيروت قبل وصول الدروز فتبعهم الباقون اليها وفي

اليوم نفسه قتل الامير بشير قاسم في جنائن الحدث وهو الذي كان
 حاكم لبنان سنة ١٧٤١ وهذا كان توجه من بيروت الى الاستانة
 ومكث فيها بضع سفين ثم عاد منها الى مزرعة تحفه اسمها سبنيه
 تبعد خمس دقائق عن بعدا بعد ان تعين له والامير محمود سلمان
 الذي كان بمعيته معاش يصرف لها مدة حياتهما من الدولة العثمانية
 وبقي في مزرعته وقد فقد بصره في آخر عمره حتى قتل كما سبق
 وفي اليوم الثاني من حادثة بعدا هجم بعض الكسروانيين الذين
 توجهوا الى بيت مري على قرية تدعى العبيدية من قرى المتن وبعد
 حرب ساعات نكسوا مدحورين وقد فاز الشنتيري وبعض اهالي
 المتن بحرق فرنايل بينما كان اهلهما بحرب ظهر البيدر الذي سيأتي
 ذكره ومن ثم انكسرت نصارى المتن في برمانا وكانت تحت قيادة
 الامير بشير عساف وكسرت اهالي العربانية مع خمسين رجلاً من
 دير القمر والعرقوب كانوا نجدوها بعد حرب يذكر وبعد ما اجتمع
 عليهم اضعاف ضعفهم وحرقت العربانية وفر الامير مراد اللامي من
 السفيلة حالما رجع عنده الامير بشير عساف مكسوراً من برمانا
 من دون حرب بالكية وحرقت شرذمة من الدروز جملة قرى من
 المتن في نفس ذلك اليوم كالسفيلة وبعيدات وبحنس ودير ماري
 موسى وغيرها

حروب زحلة سنة ١٨٦٠

ان حوادث زحلة وحرقتها سبقت حادثة دير القمر لا ان حادثة دير القمر سبقت حوادث زحلة كما ورد في الكتاب وهاك بيان الحقيقة . خرج جمهور من زحلة من الالف وخمسمائة الى الفين منهم نحو ستمائة رجل من اهالي العرقوب الاشداء الذين تركوا محلاتهم والتجأوا اليها خوفاً من ان يغدر بهم الدروز وهم قاصدون كبح جماح الدروز وتوقيفهم عن الفتك بالنصرانية فبوصولهم لظهر البيدر قرب عندارة النقا هم علي بك ابن خطار بك العماد الذي كان في عندارة مع جمهور غفير من الدروز يفوق عدد الزحالي واستعرت نار الحرب بين الفريقين وبعد عراك شديد جرح علي بك جرحاً بايغاً مات منه بعد قليل من الزمن وكسر الدروز وقبل وصولهم لعندارة التقوا بخطر بك العماد المشهور بالشجاعة والاقدام يرأس نحو خمسمائة من رجاله الاشداء فسأل عن سبب رجوعهم فاخبروه بجرح ابنه وانكسارهم فامر باخذه الى بريح وامر الدروز بالرجوع الى الحرب فتأخروا عن الاجابة فقتل واحداً منهم وقص لحية آخر وجز شارب آخر فاطاعوا امره وهجم بجميع الدروز على المنتصرين ولم يطل الوقت حتى فاز الدروز وكسروا النصاري لان خوفهم من خطار بك كان اكثر كثيراً من خوفهم من النصاري وكانت كسرة اهالي زحلة والعراقبة بترتيب لان كثيراً من الزحالة والعراقبة كانوا في الساقة يحامون جهدهم عن المكسورين ويناوشون

الدروز القتال الى ان فصلوا غروب الشمس عند خان مراد فرجع الدروز وظلت النصارى في هزيمتها الى ان بلغت زحلة ثم توجهت مع العرافة ونحو خمسين نفرًا من دير القمر كانوا حضروا الى زحلة بعد شظهر البيدر قاصدين قرية كفر سلوان من قرى المثن فالتقاهم الدروز الى حماها بجمع بنوق كثيرًا جمع النصارى وبعد قتال شديد انكسرت النصارى بترتيب ايضا ولم يزل الدروز يتعقبونهم وبنواوشونهم القتال حتى عين كفر حزير باول كروم زحلة فارتدوا راجعين وبعد هذا جرى موقعتان بين خيالة الدروز والعرب وخيالة وبعض مشاة زحلة انكسر فيهما النصارى ايضا (الواحدة في بريالاس والثانية في حواش زحلة) وباتناء ذلك وصل طابور عسكر من الشام ونصب خيمة في اراضي المعلقة بجوار زحلة وحينئذ هجم الدروز على زحلة من الجهة الجنوبية والجهة الغربية فصد هجماتهم نحو الف ومايتين رجل منها منهم نيف وستائة من العرقوب ودير القمر وباقي الاهالي توجهوا مع غالب النساء الى حارة البربارة ينتظرون فيها النتيجة وظل القتال شتباكًا حتى الساعة الثامنة من النهار وبينما كانت حامية حارة الراسية مشغلة بمقاتلة المهاجمين على زحلة من الغرب الشمالي هجمت عليها فرقة مؤلفة من ثمانين الى مائة نفر من جهة الشمال ولم يأت هؤلاء بحركة حتى قربوا منها فاطلقوا بنادقهم طلقة واحدة فشلت لها الحامية وادعت انها ظنت المهاجمين من جماعة المرحوم يوسف بك كرم الدين كان اهل زحل يعدون النفس بقدمهم انجدهم (وجهه ٢١٣) وهذا هو سبب انكسار

حامية الراسية ولما رأَت حامية حارة بيت المعلوف دخول الدروز الى
 زحلة انكسرت هي ايضاً وتبعتها حامية حارة البيادر جنوبي زحلة
 وبقي قسم من الذين عليهم الاعتماد من خيل ورجل زحلة ودير
 القمر والعرقوب تجاه الجسر يصلون الدروز ناراً حامية حتى وصل
 من كان باقياً في زحلة الى حارة البربارة ومنها توجهوا الى بسكنتا
 من قضا المتن فوصلوا اليها ليلاً وخطوا فيها رحالهم وفي الليلة نفسها
 تقدم تحرير من احد اهالي دير القمر الذي كان موجوداً في زحلة
 وحاضراً حروبها الى المرحوم ابراهيم مشاقفة من ذوات دير القمر
 يخبره فيه عن اخذ زحلة ونهبها وحرقتها وتشتيت اهاليها مفصلاً
 ويرجوه بذل الجهد في المساعي الممكنة لحل القناصل الجنرالاية على
 التوجه الى دير القمر لصيانة اهاليها لكونها محاطة من جميع جهاتها
 بالاعداء ولا سبيل لاهائها الى الهرب كاهل زحلة وان الدروز بعد
 رجوعهم من زحلة سيتوجهون اليها راساً وهناك الطامة الكبرى
 والمصيبة العظمى فسعى مع المرحوم عمون بك يوسف من اهالي دير
 القمر الذي كان وقتئذ في بيروت لدى القناصل الجنرالاية مستجيرين
 فلبوا طلبهم واتفق قنصل جنرال دولة انكترا مع قنصل جنرال دولة
 فرنسا على التوجه الى دير القمر في صباح اليوم الثاني لوقاية الاهالي
 وفي المعاد المعين بارح قنصل جنرال الانكليز بيروت قاصداً مقابلة
 خورشيد باشا في الحازمية والتوجه منها الى دير القمر وارسل
 خبراً قبل مبارحته بيروت الى قنصل جنرال فرنسا بان يوافيه الى
 الحازمية ليتوجها معاً الى دير القمر حسب الاتفاق فورد له منه الجواب

الى الحازمية بانه قد قابل خورشيد باشا وتقرر بينهما ارسال طاهر
باشا قومندان مركز ولاية بيروت لوقاية دير القمر وان هذا كافٍ
وانه لم يعد بإمكانه التوجه لانه دعي الى ليلة رقص عند مدام بوشوت
(خليلته) فراجع جنرال الانكليز خورشيد باشا فتعهد له ايضاً
بذلك وامر طاهر باشا بحضوره ان يتوجه الى دير القمر (وجه ١٧٦)
ويحافظ وبوقي ويتعهد الدروز الخ فتوجه اليها واوفاه على الطريق
بعض مشايخ الدروز وبوصله اليها وافاه قسم آخر فطمعن الاهالي
كثيراً وطمعنهم حضرات المشايخ ايضاً ثم توجه منها الى ابدنين
فاستدعى من لم يحضر لديه في دير القمر من مشايخ الدروز كسعيد
بك جنبلاط وخطار بك العماد وغيرهما وامرهم بان يحثوا رجالهم على
الفتك بالنصرانية بعد ما يتوجه الى بيروت وان لا يبقوا على احد
من النصاري فاجابوا ممثلين وبعد مبارحة سعيد بك جنبلاط
ابدنين ارسل اثنين من خواصهما حبيب بك عكاوي من دير
القمر ويوسف بك مبارك الخوري من بكاسين الموجود الآن قاضياً
في دير القمر فوصلا الى انطوش سيدة التلة فيها واستدعيا وجوه
الاهالي فحضروا فبلغاهم سلام سعيد بك وقالاهم انه ارسلنا اليكم
من قبله لاختباركم بان طاهر باشا غير مخلص لكم النية وانه بغير
بقائه عندكم لا امنية لكم على حياتكم ومالككم فان لم يبق فابواب المختارة
مفتوحة لكم فمن شاء التوجه اليها فليخبره ليرسل له خيلاً وبغالاً
ورجالاً لنقله وعائلته اليها فشكروا لها منه وكان رأي شاكر افندي
شاوول عدم التوجه الى المختارة واتبعته الاكثريّة وخالفه وجوه

طائفة الروم الكاثوليك وطلبوا من رسولي سعيد بك ان يعرضوا له استعدادهم الاستظلال بظل حماه ان لم يبق طاهر باشا في دير القمر وبعد رجوع طاهر باشا من ابدن الى دير القمر ألحوا عليه كثيراً راجين بقاءه عندهم فأخذ يطمئنهم بان لا خوف عليهم وانه تارك لهم عساكر كافية وان عبد السلام بك يقوم مقامه حتى قيام وان مشايخ الدروز تعهدوا له بأنهم لا يسمحوا لاحد من طائفتهم ان ياتي بمحرقة ما وتركهم قلقين ورجع الى بيروت (وجه ١٧٨) واذ ذاك طلب الوجوه وغيرهم من طائفة الروم الكاثوليك من سعيد بك جنبلاط نقلهم الى المختارة فارسل واخذهم كما وعد مع عيالهم وجل امتعتهم ومن ثم طلب منه المرحوم انطون بك عمون اخذه ايضاً ففعل وكان يجيب طلب كل من شاء ذلك فهذه هي اعمال سعيد بك جنبلاط وهاك اعمال الامير محمد ارسلان نعم انه وتي اهالي مقاطعته النصراني من القتل (وجه ١٩٧) كما فعل جميع اصحاب الاقطاع لكنه وافق خورشيد باشا على الفتك بالنصارى وانفع بذلك جميع مشايخ الدروز المائلين الى الشر كبيت ابي نكد وبيت عماد وغيرها الذين ابوا طلبه ولم يخالفه سوى سعيد بك جنبلاط وارسل رجاله ومماليكه من الشويفات للفتك باهالي الديبة على شط البحر تحت صحراء الشويفات في اثناء مرورهم من هناك فاصدين بيروت خوفاً من شر الدروز ولو لم يكونوا شديدي البأس واظهروا شجاعة غريبة لما اتخلص من سالم منهم بحريهم ومالهم بعد ما قتل منهم اربعون رجلاً غير انهم قتلوا ضعفها من جماعة الامير محمد ارسلان وقد راجع سعيد بك اهالي دير

القمر كثيراً بواسطة حبيب بك عكاوي ليتوجهوا عنده وبالاخص
 وجوه الطائفة المارونية التي لم يذهب منها اليه سوى المرحوم
 انطون بك عمون من الوجوه وافراد قليلين من الرعايا واعد
 مبارحة طاهر باشا دير القمر طلب عبد السلام بك اسلحة الاهالي
 فتهددهم بعدم وقايتهم اذا لم يجيبوا طلبه ولو لم يكونوا خالين من
 البارود والرصاص لانهم كانوا اتلفوا الموجود عندهم من ذلك في
 موقعين جرتا بينهم وبين الدروز الاولى في معاصر ابتدئ والثانية
 في دير القمر لما سلموه سلاحهم وبعد تسليمه دخل الدروز الى دير
 القمر آمنين فسلموا في اليوم الاول جميع مقتنيات الاهالي بالاشتراك
 مع العساكر الشاهانية التي كانت تتقدمهم بالدخول الى كل محل
 وفي اليوم الثاني ذبحوا من التجأ الى سراي الحكومة تحت ظل العلم
 العثماني الظليل ولكن نجا أكثر الذين كانوا خارجها في خلوات بيت
 القاضي وعند بشير نكد وعند الشيخ حمد محمود من كفر قطره من
 مشايخ العقل وفي المدرسة البروتستانتية ومن ثم ارسل بشير بك
 من كان عنده ومن كان بالمدرسة وفي خلوات بيت القاضي الى
 معاقبة الدامر واخذوا منها الى بيروت في المراكب الفرنسية
 والذين التجأوا الى الشيخ حمد محمود أرسلوا بامان الى بيروت
 وبالاجمال لم يخلص من دير القمر بغير واسطة الدروز أكثر من
 خمسة اشخاص وقليل من قتل من اهالي دير القمر خارج سراي
 الحكومة ولم ينج احد ممن كان ملتجئاً اليها من النصاري
 واما متسلم دير القمر فانه بذل جهده لدى رؤساء العساكر

وعبد السلام بك قائمقام العسكر لوقاية الاهالي الملتجئين الى سراي الحكومة المستظلمين بظلم العلم العثماني فلم يسمع له وكان قد خبأ جمهوراً في دار حريمه فطلب منه تسليمهم فابي وبعد مجادلات يطول شرحها امر رئيس المساكر الدروز والعسكرية بان يدخلوا دار الحرم وينهبوها ويقتلوا الموجودين فيها من النصاري ففعلوا كما امر وخرج حريم المتسلم واولاده حفاة عراة كنساء دير القمر مشاركينهن في المصيبة وبعد وصول المتسلم الى بيروت استدعاه خورشيد باشا اليه وطلب منه ان يقدم له تقريراً ببيان ما جرى في دير القمر واوعز اليه ان يبرر فيه الحكومة والعسكرية فقدم له تقريراً مستوفي البيان كان قد احضره من قبل ومن جملة محتوياته الفظائع التي ارتكبتها المساكر بامر رؤسائها وقال هذا تقرير لي ليس عندي سواه فبش الوالي في وجهه ومدحه على ذلك وبعد هنيئة امر له بالقهوة فشربها ولم يلبث ان شعر بالالم فقام من حضرته وذهب قاصداً بيته يئن من شدة الالم فوقع على الطريق قبل ان يبلغه فحمل اليه وبوصوله قضى نحبهُ جزاء انتصاره للحق . رحمة الله عليه

ان الذي قتل المسلم في بيروت هو رجل مسيحي لا مسلم وهو من اهالي دير القمر والذي قتل بسببه هو شاب من بكاسين من عائلة خوري فيها

ان اهالي حاصبيا الذين كانوا ملتجئين الى دار الست نائفة خلصوا بواسطة تجريرات المرحوم سعيد بك جنبلاط قبل مذبحة دير القمر (انظر وجه ١٥٦)

ان الجيوش الافرنسية خرجت من فرنسا بصفتها عساكر فرنسا ودخلت سورية بصفتها جيوش اوربا وذلك لان الدول اقامت الحجة على عمل فرنسا منفردة فقبلت بعد هذا بان تكون عساكرها في سورية من قبل اوربا (انظر وجه ٢٥٤)

ان الذين توجهوا من دير القمر الى المختارة بطلب فواد باشا قدموا لدولته دفترًا بثلاثمائة شخص من الاشد شقاوة في الدروز حسب طلبه (وجه ٢٤٩) وليس هذا العمل منعه من اجراء القصاص ولا معتمد النمسا انما الذي منعه من مقاصصة الدروز بالقتل هو معتمد دولة فرنسا الذي توهم امكان تعيين امير شهابي حاكمًا في لبنان ورشح لذلك الامير مجيد ابن الامير قاسم ابن الامير بشير عمر الذي اشتهر اخيرًا بالمالطي وخابر بذلك روساء الدروز الذين كانوا مسجونين بقشلة بيروت ووعدهم بالعفو عنهم وعن باقي الدروز من القتل فقبلوا بذلك وتحرر معروضات عمومية من اهالي لبنان وتقدمت لفؤاد باشا ومعتمدي الدول بطلب الامير مجيد واليا على لبنان حتي ان احد المعروضات أرسل الى حوران لخم روساء دروز لبنان الذين فروا اليها فلم يقبل معتمدو الدول ولا فؤاد باشا بتعيين شهابي حاكمًا في لبنان فعاد معتمد فرنسا بصفقة المغبون واما الدروز فعفي عنهم بمساعي المعتمد المذكور

ان المؤتمر الدولي قرر ان يكون حاكم لبنان مسيحيًا من رعايا الدولة العلية ولم يستثن لبنان من هذا الحق والمعول عليه نظامات لبنان التي لم تذكر ان يكون الثاني درزيًا وهي مدرجة حرفيًا باخر

حسر اللثام فلتراجع فيه (انظر وجه ٢٦١ وما بعده)
 ان التسعة والتسعين ألفاً وثمانمائة واربعة وثلاثين هي عدد
 نفوس ذكور لبنان الرسمي لا عدد المكلفين وعند توزيع المال
 المربوط على لبنان خصص منها كل ذكر بتسعة غروش توزعها كل
 قرية على مكافئها وما بقي وزع على الاملاك غير ان هذا العدد مخلول
 لان عدد نفوس لبنان يزيد كثيراً عنه والبرهان على ذلك ان
 التسعة غروش المفروضة على نفوس الذكور وزعت على المكلفين
 وأعفي منها من لا يقدر على الدفع فالتعديل المتوسط يخص المكلف
 من تسعة الى عشرة غروش

قال حسر اللثام اما دخل حكومة الجبل فهو بقدر خرجها سبعة
 وثلاثون ألفاً وخمسمائة ليرة عثمانية توزع على المأمورين وسبعة عشر
 ألفاً وخمسمائة ليرة عثمانية توزع على العساكر وكانت رواتب العساكر
 فيما سلف تأتيمهم من الباب العالي الى قوله واما مساهمة لبنان فمعفون
 من ذلك الرسم

ان حكومة لبنان تتبعت بسيرها نظمات جبل لبنان والمادة (١٥)
 منها تبين كمية مال ويزكو جبل لبنان ولم تحدد المعاشات والمصارفات
 بل قالت ان مال جبل لبنان ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس ويجوز
 ابلاغه عند مقتضيات الاحوال الى سبعة آلاف كيس يصرف في
 ادارة الجبل وان بقي منه شيء يرد الى الخزينة وان لم يكف
 فيصرف الباقي من الخزينة

حَسْرَةُ اللّٰثَمِ
عَنْ

نُكْبَاتُ الشَّيْطَانِ

وَفِيهِ مَجْمَعُ أَخْبَارِ الْحَرْبِ الْأَهْلِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِحَوَادِثِ
سَنَةِ ١٨٦٠ مَعَ تَمْهِيدٍ فِي وَصْفِ بِلَادِ الْجُغُرْفِي وَالسِّيَاسِي

حَقُوقُ الطَّبَعِ وَالْإِرْجَمَتِ مُحْفُوظَةٌ